الدكتور عبد الجليل شلبي

معركة التبشير والإسلام

حركات التبشير والإسلام في آسيا وأفريقيا وأوربا

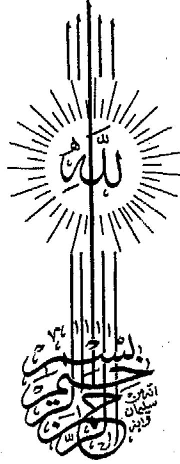








معركة التبشير والإسلام



فاتحة الكتاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾

آمين

(صدق الله العظيم)

معركة التبشير والإسلام

حركات التبشير والإسلام في آسيا وأفريقيا وأوربا

الدكتور عبد الجليل شلبي

كتاب يصف سباق الدعوة الإسلامية والتبشير المسيحى
ونشاط الدعاة الإسلاميين والمبشرين فى أقطار العالم كله
والظروف التى لابست هذا السياق

مؤسسة الخليج العربي
ARABIAN GULF EST.

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م



ARABIAN GULF EST.
١٩٥ شارع ٢٦ يوليو - القاهرة
ت ٣٤٧٢١٨٣ - ٣٤٧٢٢٠٩
تلكس ٢٣١٦٢

١ – تعـــريف :

هذا الكتاب امتداد وتكملة لأخيه «الإرساليات التبشيرية» فكلا الكتابين يتناول موضوعات تبشيرية يرتبط بعضها ببعض ، هناك تحدثت عن بداية التبشير منذ عهد السيد المسيح عليه السلام ، حتى عصرنا الحاضر ، وتحدثت فى إيجاز عن نشأة المسيحية وتطورها ، وماغذيت به بعد المسيح من أفكار وفلسفات ثم عرضت المذاهب المسيحية وأشهر الإرساليات التبشيرية ، وتاريخ كل جماعة منها ، والمنهج الذى تسلكه وما تدعو إليه .

وهنا أتحدث عن لقاء المسيحية والإسلام وسباقهما فى ميدان الدعوة ، وقد كانت هناك مواجهة بين الديانتين منذ عهد رسول الله – ﷺ – حيث قدم عليه وفد من نصارى نجران لمناظرته ، وقد دعاهم إلى المباهلة فنكصوا[١] ثم بدأ أول اتصال بين الديانتين فى أطراف الجزيرة ، فى حياة رسول الله ﷺ أيضاً فى غزوتى مؤتة وتبوك .

وأول اتصال فعال واشتباك حربى كان على عهد الخليفة الأول أبى بكر إذ أرسل خالد بن الوليد إلى بلاد فارس ، وكانت مجوسية ، وكان بها كنائس وصابئة ومسيحية محرفة ، كذلك أرسل أحد عشر لواء إلى أرض الشام ، وتم فتح سورية وفلسطين على عهد عمر ، وأعطى كل من خالد بن الوليد وأبى عبيدة بن الجراح نصارى الشام عهوداً ، ثم ظلت دعوة الإسلام تمتد بعد ذلك على ساحل البحر المتوسط ، وكان المسلمون يجدون فى البلاد التى يدخلونها كنائس ، ومذاهب مسيحية ، بعضها ذو نشاط وبعضها فى حال ركود ، واستمرت موجة الفتح والمد الإسلامى حتى انتهت إلى المحيط ، ثم عبر المسلمون مضيق جبل طارق إلى أسبانيا ، وكان بها نصارى ويهود ، وانتهى

---

(١) المباهلة من الابتهال إلى الله ، وكان اتفاق النبى محمد والنصارى أن يخرجوا إلى الصحراء ، وأن يبتهلوا إلى الله أن ينزل لعنته وسخطه على الكاذب من الفريقين ، وسيأتى هذا الحديث بعد .

مد الفتح فى أسبانيا عند جبال البرانس ، ودخلت صقلية وجنوب إيطاليا فى حوزة المسلمين ، وكانت جزر البحر الأبيض قد فتحت منذ عهد معاوية ، ولكنها لم تدم إسلامية ، فأعيدت إلى حكم الرومان وديانتهم ، ثم فتحت ثانياً .

ومن الناحية الشرقية فتح المسلمون الآستانة على يد محمد الفاتح أواسط القرن الخامس عشر الميلادى . ثم دخل الإسلام بلاد المورة وامتدت فتوحات العثمانيين داخل القارة الأوروبية ، وتوقفت عند فينا عاصمة النمسا فى تاريخ معروف .

أما فى الجانب الشرقى من الجزيرة العربية ، فلم تكن ثم سيادة للديانة المسيحية ولكن كان هنا وهناك كنائس للنساطرة ، واليعاقبة .

وهكذا كان لقاء الديانتين وتسابقهما حتى الصين واليابان .

وفى هذا الكتاب حديث غير مطول يصف سباق الديانتين وأساليب كل منهما فى دعوته ، والطريقة التى يدعو بها . وفى نظرى أن هذا الحديث هام جداً للدعاة ، ولمن يريدون أن يعرفوا مدى هذا السباق .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى التزام الحيدة والبعد عن التعصب . وأن يكون حديثى وصفاً صادقاً يضع الحقائق واضحة أمام القراء .

ومعظم هذه الموضوعات محاضرات ألقيت على طلاب الجامعة الأزهرية فى كليات الدعوة وأصول الدين فى القاهرة والمنصورة وطنطا ، وهاهى ذى أمام الدعاة طلبة وغير طلبة ، تنير الطريق لمن يريد أن يتوسع فى بعض موضوعاتها .

وأسأل الله العلى القدير أن يتقبل هذا العمل المتواضع وأن ينفع به إنه نعم المولى ونعم النصير .

وصلى الله على سيدنا محمد قائد الدعاة ومرشدهم ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بطريقه .

عبد الجليل عبده شلبى

مصر الجديدة ١١ من ذى الحجة سنة ١٤٠٨هـ

٢٥ من يوليو سنة ١٩٨٨م

٢ - توطئــــة :

نذكر فى هذا الكتاب كلمة عامة عن مواجهة كل من هاتيْن الديانتين للأخرى ، وما قام أمام الديانة المسيحية من عقبات قبل أن يظهر الإسلام ، ثم نستعرض أهم الأقطار التى يصطرع فيها الإسلام والتبشير المسيحى ، فنذكر بداية كل من الديانتين بها ثم موقف هذا الصراع الآن .

وكما رأينا من قبل[1] بدأت الدعوة المسيحية فى حقلين رئيسيين هما : أورشليم (القدس)، وروما. أماأورشليم فلأنها مقر الهيكل اليهودى، وإليه حج المسيح وفيه ناظر خصومه ، وقام بتطهيره من جلوس الباعة والصارفة به ، وهو المعبد الرئيسى لليهود ، والمسيح واحد من أنبيائهم ، ورسالته الأولى هدايتهم إلى التوراة ، وبها كنيسة القيامة ،.وأما روما فلأن كلا من بولس وبطرس انتقل إليها ولقى حتفه بها ، وهى مدينة مقدسة من قديم[2] ولم تلق المسيحية -كما رينا[1]- قبولاً من أباطرة الرومان،ولما نالت استقراراً بعد اعتراف قسطنطين بها كان على دعاتها أن ينشروها وأن يحلوها محل الوثنيات التى كانت سائدة ، وعاق نشرها أول أمرها مامنيت به من انقسامات وماترتب عليه من اضطهادات ، فأنفق دعاتها طاقاتهم وجهدهم فى حرب

---

(١) راجع « الإرساليات التبشيرية » .

(٢) يرتبط تاريخ روما بأسطورة يبدو أنها وضعت بقصد توضيح اسم المدينة وبيان قداستها، وتقبلها الحكام وعملوا على تثبيتها وإشاعتها لما تضفى عليهم من قداسة وجلال ، وخلاصة الأسطورة أن توأمين أرضعتهما ذئبة حتى شبا ، كان أحدهما يدعى روميوس ، وقد مات والثانى يدعى روميولاس وقد عاش وأسس مدينة روما فى نحو منتصف القرن الثامن ق‌م (٧٥٣) تقريباً ، وبداية سكان إيطاليا ترجع إلى سنة ١٥٠٠ ق‌م تقريباً ، فعندما كانت الجماعات الإغريقية تنحدر من سهل الدانوب إلى بلادها الحالية كانت القبائل الأخرى تندفع إلى إيطاليا من شرق جبال الألب فأزاحوا سكانها واستقروا مكانهم فى وسطها فاستقرت جماعة اللاتينين جنوب نهر التيبر ، وعلى غير بعيد منها كان يوجد نهير نشأت بجانبه قرية لاتينية ، وسميت الجبال جنوبها « بلاتين » ثم كون السكان فى السهل الذى بين الجبال سوقاً Fassu وكانت هذه السوق هى روما ، وفى سنة ٣٥٧ كانت قد أصبحت مدينة واكتسب سكانها قداسة لأنهم من سلالة روميولاس ابن‌الإله ، فظلوا مقدسين حتى ظهور المسيحية .

بعضهم بعضا ، كل يهمه أن يثبت صحة مذهبه وإبطال الآخر ، وكان اليهود حرباً عليهم منذ عهد المسيح نفسه ، وكان عددهم بين سكان الإمبراطورية الرومانية يقدر بنحو ٧٪ وكان نشاطهم ملحوظاً فى حرب الدعوة والحط من شأن صاحبها ، أما الوثنيات العديدة التى كانت قد تأصلت بين الشعوب الأوروبية ، فكان أمرها أهون ، لأن الناس كانو قد سئموها خصوصاً رعايا الإمبراطورية الرومانية ، وقد قبل اليهودية قوم واختتنوا وقبل المسيحية آخرون ولكن دعاية اليهود ودعوتهم كانت الأسبق ، وكانت عبادات الأسرار[١] الشرقية قد غزت الدولة الرومانية ، وجذب الناس إليها ما فى الوثنية من جفاف روحى ، وواجهت المسيحية فى الغرب خصوماً عديدين ، منهم من جاهر بعدائها ومنهم من سد عليها الطريق .

والديانات الشرقية ديانات زراعة تقوم على العقيدة فى موت إله الخصوبة ثم انبعاثه بعد موته ، وكانت تقيم الحفلات وتقدم الطعام فى بداية عيد الخصوبة ابتهاجاً بما تأتى به الأرض من نبات وما يشملها من خضرة وازدهار ، كما كانت تقام المآتم وتسفح الدموع فى مناسبة موت الإله ، ولا تزال صورة من هذه المظاهر/ قائمة عند اليهود فى أعياد الحصاد . وعيد أستير الذى يحتفى به الأوربيون فى شهر مارس هو أيضا امتداد لهذه التقاليد ، ويربط الكثيرون بين هذه الطقوس وبين صلب المسيح ودفنه ثم قيامه من مقبرته حسبما تصوره العقيدة المسيحية ، ويقول استيفن نيل أن ديانات الأسرار فى الدولة الرومانية المتداعية خلال القرن الثانى كانت موازية للعقيدة المسيحية أو مصدراً لها[٢] ، وكما ذكرنا فى غير هذا الموضع لم يهتم الأباطرة الرومان بحرب العبادات الشرقية التى غزت بلادهم كما اهتموا بحرب المسيحية ذلك لأن المسيحية حرمت عبادة الأباطرة ، وكان اليهود يثيرون حول دعاتها ما أثاروا حول المسيح نفسه من تهم ، وقد قتل أكبر دعاتها الأُوَل - بولس وبطرس فى روم ، وأيضاً كانت

---

(١) سميت بذلك لما بها من مؤثرات خفية .

(٢) P 28 - وانظر Mithras The Secret God. P 30 .

العقوبات تلاحق من يتبع هذا الدين ، ومشت الدعوة بطيئة وبين الطبقات الدنيا والأرقاء فقط وتعالى عليها النبلاء والأشراف[1] وفى الثلاثة القرون الأولى استطاعت المسيحية أن تثبت أقدامها فى الدولة الرومانية وأن تنثر بذورها فى الأقاليم الأخرى ، حتى جاء القرن السادس وجد الإمبراطور تراجان فى محو الآثار الوثنية وتحطيم معابدها — فبدأت دعوة المسيح تتمشى فى أنحاء الغرب ، وفى هذا العصر ظهرت الدعوة الإسلامية وبعد هجرة رسول الله محمد — ﷺ — تمشت دعوته بسرعة واتخذت لوناً سياسياً ، وحاربت الإمبراطورية الرومانية والفارسية ، واشتبكت مع الديانتين الساميتين اليهودية والمسيحية ، واستولى المسلمون فيما استولوا على الأراضى المقدسة لديهما ، وانتشر الإسلام بين أبنائها ، ومنذ ذلك التاريخ ظل الصراع مستمراً بين هذه الديانات ، ومنذ تشتت اليهود سنة ٧٠م كانت حربهم للإسلام تقوم على الدس وتدبير المكايد ، إذ لم يكن لهم دولة ولا جيش ، فلجأوا إلى طعن الإسلام عن طريق تشويهه وإساءة تاريخه ونظمه ، أما المسيحية فكان لها تاريخ ومواقف مع الإسلام أوسع وأكبر ، ولكنها بعد أن أخفقت فى حرب الإسلام حرباً مسلحة لجأت إلى ما لجأ إليه اليهود ، ولأن كلا من اتباع الديانتين الإسلام والمسيحية مكلف بنشر ديانته وهداية الناس إليها كان هناك سباق من الجانبين ، وعمل دائب على كسب أنصار أكثر ، واكتساب الآخرين إلى دينه ، ويتعدى الأمر ذلك إلى رغبة المسلمين فى تحويل النصارى إلى الإسلام ورغبة النصارى فى تحويل المسلمين إلى النصرانية ، وفى هذا السباق تتجلى قصة التبشير وأعمال المبشرين.

وليست أعمال اليهود ولا المستشرقين ولا أصابع الاستعمار بعيدة عن هذا الميدان فاليهود عدو للمسيحية والمسيح ولكنهم أكثر اهتماماً بحرب الإسلام ، والمستشرقون — كما هو معروف — مع المبشرين فى صف واحد — والمستعمرون — كما رأينا فى غير موقف — لا يرون ما هو أنكى عليهم من الإسلام ، وقد مرنوا على حربه وحتى بعد تقلص الاستعمار لا يزال العداء للإسلام قائماً .

---

(١) كان هذا فى عهودها الأولى ثم أقدم عليها الأشراف أيضاً ، وقد أشاع الفليسوف الألمانى نيتشه فكرة اعتناق المسيحية من الطبقة السفلى وحدها فقلده فيها الآخرون وقد بينا فى غير هذا الموضع أن بعض الكبراء والمثقفين اعتنقوها أيضاً .

٣ - الخطوط العامة لتلاقى الديانتين :

كان ظهور الإسلام وسيادته فى الجزيرة العربية خلال القرن السابع الميلادى وكانت الديانة المسيحية بعد أن هدأت حدة الخلافات التى نشبت بين قوادها حول طبيعة المسيح - وبعد أن أمنت حرب الأباطرة الرومان قد أخذت تستأنف نشاطها فى الغرب وفى الشرق ، وفى هذا الحقل أول اصطدام مع الإسلام .

ولد رسول الله - ﷺ - فى سنة ٥٧١ م وتلقى أول وحى له سنة ٦١١ ولم يكن مثل هذا النبى ولا الرسالة التى نادى بها مما يعنى الكنيسة ولا يهز البابا فى روما ولم يكن أيضاً مما يشغل بال الدولة الرومانية - التى أصبحت دولة مسيحية وبها الكنيسة الأم والبابا ذو القداسة ، ولكن فى مكة وبين الوثنيين القرشيين كان هناك ارتباط بين دعوة الإسلام والدين المسيحى لموقف كل منهما ضد الأوثان . فلما انتصر الفرس على الرومان وأجلوهم عن سوريا ومصر فرح الوثنيون فى مكة ، وأبدوا الشماتة للمسلمين ، ونزل فى هذا قول الله تعالى : ﴿ألم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين﴾[(١)] .

وهاجر نبى الإسلام إلى المدينة سنة ٦٢٤ ، فقام احتكاك بينه وبين نصارى نجران وجاء وفد لمناظرته فيما أعلنه الإسلام نحو المسيح من أنه عبد الله ورسوله وليس إلهاً ولا ابن إله ، ولكن الوفد النجرانى نكص عن المناظرة وعن المباهلة[(٢)] ثم كان لنبى الإسلام جهاد ومعارك مع قومه وأيضاً مع اليهود الذين

---

(١) السورة مكية ، وقد راهن أبو بكر أبى بن خلف على عشر قلائص - ثم زيدت المراهنة إلى مائة وضرب لغلب الروم أجل تسعة أعوام ، فلما هاجر أبو بكر كفله ابنه عبد الرحمن ، ولما خرج أبىُّ إلى الحرب يوم أحد أعطى عبد الرحمن كفيلا ، وغلب الروم واستردوا أرضهم فى العام السابع للهجرة - وقيل كان يوم الحديبية .

(٢) جاء هذا فى سورة آل عمران آية ٦٠ وما بعدها - وكان اتفاقهم أن يخرج كل مع أبنائه =

كانوا بالمدينة وما حولها[١] ، ولم يكن للمسيحيين صلة بهذا الجهاد ، وفى سنة ٦٢٨ كان صلح الحديبية الذى أراح المسلمين من المعارك الدامية التى استمرت نحو ستة أعوام ، فاتجه رسول الله - ﷺ - بدعوته إلى رؤساء القبائل العربية ، وأيضاً إلى الملوك ، وكان من العجيب المستغرب أنه بعث برسائل إلى رجال كبار من الحكام المسيحيين ، أرسل إلى هرقل إمبراطور الدولة الرومانية ، وإلى المقوقس حاكم مصر ، وكانت رسالته إلى هرقل عقب انتصاره على الروم وحضوره إلى بيت المقدس ليعيد الصليب الأعظم إلى مكانه فى كنيسة القيامة[٢] .

وبعد أربعة أعوام من هذه الرسائل كان الجيش الإسلامى يغزو الدولتين الكبيرتين فى وقت واحد ، وفى سنة ٦٣٣ سقطت الحيرة -وهى مركز مسيحى فى أيدى المسلمين ، وفى سنة ٦٣٤ كانت موقعة اليرموك ، وفى سنة ٦٣٥ سقطت دمشق ، وكانت الترانيم الكنسية تتردد أثناء هذه المواقع وكانت الصلبان ترفع بأيدى الكهنة ، وكانت هذه الحروب شرقاً وغرباً لا تعدوا أن تكون نصراً للإسلام على المسيحية أكثر مما هى نصر للعرب على الروم .

= ونسائه إلى العراء ثم يبتهلون إلى الله أن ينزل لعنة على الكافر منهم ، فنكص نصارى نجران ، وخرج رسول الله - ﷺ - معه الحسن والحسين وفاطمة وعلى ، فقال رئيس الوفد النجرانى ، تعلمون أن هذا الرجل مؤتى له ، ولئن تباهلنا ليصيبنا كذا وكذا ، فخافوا ورجعوا .

(١) كان اليهود من بنى قريظة وبنى النضير وأحياء أخرى قد سبقوا الأنصار إلى الواحات الخصبة حول المدينة كما نزلوا خيبر -ووقائعهم مع المسلمين معروفة .

(٢) كان القائد الرومانى هرقل رجل دين وحرب ، وقد ثار على سلفه فوكاس وتولى هو الحكم فانتصر على الفرس ، وكان كسرى -غداة انتصاره- قد أخذ الصليب الأعظم فوضعه فى حجرة خارج إيوانه وخشى إدخاله الإيوان -فلما استرده هرقل- أقسم ليحجن إلى بيت المقدس ماشيا ليعيد الصليب إلى مكانه ، وجعل رحلته منازل كان أخرها بصرى وفيها تلقى خطاب رسول الله - ﷺ - يدعوه للإسلام وكانت الغرابة أنه يوم نصره ، واجتماع الجند والناس لهذه المناسبة ، وقد اهتز هرقل لهذا الخطاب وتوقع زوال ملكه- وانظر حديثه فى باب الإيمان فى البخارى .

وكان من أخطاء هرقل أنه تورط فيما تورط فيه قسطنطين من قبل إذ أراد أن يقضى على الخلافات حول طبيعة المسيح فاستعان برجل لاهوتى يدعى سرجيوس وهو سورى من سلالة يعقوبية[١] فقرر وحدة المشيئة فى شخص المسيح بدلا من فكرة الناسوتية واللاهوتية ، ولم تلق الفكرة قبولا ، وكانت نتيجتها أن زادت مذهباً جديداً سمى المذهب الملكانى ، وعمل هرقل على إكراه الناس عليه ، فصادر الكنائس الأرثوذكسية ، وأيضاً معابد اليهود ليجعلها كلها كنائس ملكانية، وأصر السوريون على مذهبهم المونوفستى، وأصر المصريون على مذهبهم الأرثوذكسى وبقيت الكاثوليكية مهددة حتى فى القسطنطينية نفسها، ومارس كل طقوسه سراً، وجهراً أحياناً، واشتد اضطهاد الإمبراطور وبالغ فى تعذيب مخالفيه ولم ينقذ المسيحيين من هذا كله إلا مجىء الإسلام وفتح المسلمين بلادهم ، فقد كان المسلمون عملاً بتعاليم دينهم ذوى تسامح لم يعرف فى أى مكان فى العصور الوسطى ، كما كان حكامهم ذوى عدل وديمقراطية مما جعل المسيحيين يقبلون على الإسلام ويدخلونه عن طواعية أفواجاً أفواجا وخسرت المسيحية أعداداً كبيرة من أبنائها زاد بهم الإسلام قوة وعدداً ، ولم تقف موجة الفتوح الإسلامية بل ، ظلت تمتد غرباً على ساحل البحر المتوسط حتى انتهت إلى المحيط ، ثم عبرت إلى أسبانيا ، وقبل أن يمضى قرن واحد بعد هجرة نبى الإسلام من مكة ، كانت الدولة الإسلامية قد شملت مساحة من الأرض والعالم أوسع مما شملت الدولة الرومانية فى أقصى اتساعها[٢] .

والفتوحات الإسلامية معروفة فى جملتها ، وهى لم تقف نشاط التبشير المسيحى وتحول دون انتشار المسيحية فحسب ، بل أنقصت عدد المسيحيين ، بسبب الكثرة التى تحولت منهم إلى الإسلام ، ولهذا الانتصار وابتلاع الإسلام هذه الكثرة المسيحية ظل المسيحيون يحملون للإسلام أحقاداً لم يمحها تطاول

---

(١) كان بطريق القسطنطينية فى هذا الوقت ، وأراد تناسى المسألة الخلافية – مسألة الطبيعة والطبيعتين وتأكيد وحدة إرادته وإرادة الله ، وسمى المذهب المونوثليت Monothelite أخذا من Mielema – أى الإرادة الواحدة .

(٢) أنظر تاريخ العرب لفيليب حتى ص٢٦٨ ، ٦٥٢ ت مبروك .

الأيام ، وجاءت أجيال لا تعرف ما عانى أسلافهم من ظلم ولا ما عمل لهم الإسلام من كف الظلم عنهم ، وظلوا يذكرون فقط استيلاء المسلمين على الأراضى المقدسة ، وإعلانهم أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، وأن ولادته من غير أب لا تجعله إلهاً ولا إبن إله ، فكان على المبشرين المسيحيين أن يحتشدوا لصد الإسلام ويعدوا له ما لا يحتشدون به أو يعدونه لحرب أى دين آخر .

ومع أن السيد المسيح ولد فى فلسطين وأعلن دعوته بها لم يستطع أن ينشرها بين كل أو معظم سكانها ، لأن اليهود كانوا حرباً عليه وعلى أتباعه ورسله من بعده ، ولكن ظل المسيحيون يحلمون باتخاذها مركز دعوتهم ، وهم يترقبون أيضاً أن ينزل المسيح بها ليقيم مملكة تبدأ فى فلسطين وتشمل العالم كله ، وبفلسطين أيضاً كنيسة القيامة ، وبعد تشتيت اليهود على يد تيطس[1] تنفست المسيحية الصعداء لولا ما منيت به من الانقسامات وحرب الكنائس والبطارقة بعضهم بعضا ، ثم كانت مشكلة هرقل التى أزالها الإسلام وحل محلها فأصبحت بعض المدن فى الشرق مسلمة كلها ، وبعضها به أقلية مسيحية ، ثم كانت الحكومة حكومة إسلامية فكان مجال التبشير المسيحى فى الشرق الأوسط كله محدوداً ، واتجهت الإرساليات التبشيرية إلى جهات أخرى . وحاولت الحروب الصليبية أن تستخلص هذه الأراضى من المسلمين فباءت بفشلها المعروف ، وظل اليأس يستولى على نفوس المبشرين قروناً طويلة ثم استيقظ منذ عهد قريب ، ومن المؤسف حقاً أن رجال التبشير المحدثين حين يهجمون على الإسلام ويحاربونه لا يعتمدون على منطق ولا دليل ، بل يلجأون إلى الشتائم والاتهامات .

---

(١) تيطس قائد رومانى أبوه هو القائد فسباسيان ، الذى عهد إليه نيرون بإطفاء ثورة اليهود ٦٧ - ٦٨ م فدمر حصوناً وهدم قرى ، ولكن نيرون مات قبل حصار أورشليم ، وصار فسباسيان إمبراطوراً فقام ابنه بتدميرها سنة ٧٠م .

يقول المبشر الكبير إستيفن نيل[١] Stephen Neil فى شيء من الحنق :

كان هناك على الجبهة الأخرى للكنيسة (يقصد الجانب الشرقى) شئون حربية أشد صعوبة وأبعد خطراً وفتكاً . ففى سنة ٦٢٢م تحرك من مكة إلى المدينة هذا الرجل الذى زعم أنه تلقى وحياً ليكون نبياً للإله الحى -محمد- وكان ذلك قبل موته بعشرة أعوام ، وقد جمع عدداً غير كبير ممن قبلوا دعوة التوحيد التى ادعاها وقوامها ... لا إله إلا الله محمد رسول الله ... وأفرغ فيهم شعوراً بوجوب الدعوة للإسلام فى كافة أنحاء العالم .

وهو شعور لم ينقطع من المسلمين بعد[٢] .

ومضى يصف امتداد الفتوحات الإسلامية السريعة ، والتى كادت تشمل فرنسا لولا أن وقفها شارل مارتل فى سنة ٧٣٢م فى موقعة تور فى قلب فرنسا[٣] ثم يقول :

إن الصــورة الكابية التى ترسمها الرواية المسيحيــة عن مصيرها المحــزن

---

(١) مبشر قضى عشرين عاماً يبشر فى الهند وكان رئيس كاتدرائية تتيفلى .. جنوب الهند ثم صار رئيس الإرساليات ورئيس الدراسات الدينية العالمية فى جامعة هامبورج . وهو الآن رئيس الدراسات الدينية والفلسفية بجامعة نيروبى ، وموجه الإرساليات التبشيرية ،وله عدة كتب فى الدعوة إلى المسيحية ، ومنها كتاب تاريخ الإرساليات المسيحية الذى ننقل عنه فى مواضع مختلفة ، وقد استوعب فيه خطوات الدعوة المسيحية فى العالم الأوربى والشرق وأمريكا فى شيء من الاستفاضة وأعتذر عن إيجازه الحديث بأن الموضوع أوسع من أن يلم به .

(٢) P — 62 .

(٣) كانت موقعة تور Tours بقيادة عبد الرحمن الغافقى ، وكان قد تقدم بخطوات ثابتة وأحرق بعض الكنائس واتجه نحو تور -وهى مدينة لها قداسة لأن القديس مارتن رسول الغاليين مدفون بها ، فالتمس الكونت أبوديس معونة شارل مارتل حاجب القصر فى البلاط المورفنجى ، وكان إبناً غير شرعى للملك ، قوى الشخصية والشجاعة ، فقابل العرب قريباً من تور ، واستمرت الحرب سبعة أيام عجز العرب خلالها أن يقتحموا صفوف جيش مارتل ثم سقط الغافقى نفسه قتيلا ، وتوقفت المعركة بدخول الليل البارد المظلم وفى الصباح تبين أن العرب انسحبوا ليلاً -فكان ذلك نصراً لشارل واعتبرت هذه موقعة حاسمة قضت على الزحف العربى نحو وسط أوروبا .

[redacted]

أمام التقدم الإسلامى الذى حتم على المسيحيين إما الردة أو الموت لما يملأ النفس أسى وحسرة فبين حين وآخر كانت تقوم المذابح ، وباستمرار كان عدد المسيحيين يتناقص بردتهم عن دينهم ودخولهم الإسلام ..

ونيل بوصفه مبشراً محارباً للإسلام لا يحجم عن المغالطات التاريخية وهو فى أحاديثه التاريخية رَاوٍ أكثر منه مؤرخاً ، وما قرره فى هذا الموضوع وفى مواضع أخرى فى كتابه من أن الإسلام أكره المسيحيين على قبوله – فضلا عن أنه يغض من قيمة رأيه التاريخى – رده غير واحد من المؤرخين المحدثين، وقد نعى المؤرخ الإنجليزى جيبون على مؤرخى أوروبا فى العصر الوسيط ماأبدوه من بهجة بنصر شارل مارتل فى موقعة « تـور » بلاط الشهداء وتمنى لو أن المسلمين كانوا قد دخلوا فرنسا ، إذن لتقدم وجود الجامعات فى أوروبا مائتى عام ، وهو رأى وشعور شاركه فيه الكثيرون من المحدثين ، حتى أن المؤرخ الكبير بيكر الذى لم تخل كتابته من تعصب وتحامل على الإسلام يقول : أن أوروبا العصور الوسطى نظرت إلى انتشار « الإسلام » نظرة كنسية دينية ، وإذ أفزعها ضياع بلاد ترتبط بأصول المسيحية مثل الشام ومصر وشمال العراق راحت تفسر انتشار الإسلام بأنه كان بحد السيف ، ولكنها نظرة بعيدة عن الواقع لأن الوثائق المعاصرة كلها تثبت أن العرب لم يفرضوا دينهم على أهالى البلاد المفتوحة بدليل ماأجمعت عليه الوثائق من تسامح العرب المطلق مع المسيحيين واليهود على السواء وهو تسامح لم يحظوا به فى ظل حكامهم السابقين[١] .

وقد أفاض السير توماس أرنولد فى تفنيد الآراء التى تذكر أن العرب أكرهوا بعضاً على الإسلام فى غير موضع من كتابه « الدعوة إلى الإسلام »[٢] ومع ذلك فإنه وبيكر وحتى يفترضون أن فتوحات العرب كانت لأسباب

---

(١) أنظر تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ص ١٠٤ – ٥ .

(٢) أنظر ص ٧٤ ومابعدها .

اقتصادية بحتة ، وهذا على فرض صحته لا ينافى وجود التسامح الدينى ووازن بيرين Pierenne بين هجوم العرب على أراضى الدولة الرومانية وهجوم القبائل المتبربرة الأخرى من المغول والجرمان ، فرأى أن هذه القبائل كانت تهاجر هجرة جماعية تشمل كل القبيلة رجالاً وأطفالاً وماشية ومتاعاً لأنهم خرجوا للبحث عن القوت وعن أماكن للإقامة ، بينما لم يكن يخرج من المسلمين إلا الجيش المحارب وليس معه إلا سيوفه وكلمة الشهادة الإسلامية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » يريد الإعلام بها ونشرها بين الناس[١] وهذا فى الواقع فرق واسع ، نضيف إليه ماكان يفعله المسلمون من بناء المساجد وإقامة محفظى القرآن الكريم ومعلمى الدين والقراءة والكتابة فى الأماكن التى يفتحونها كما فعل معاوية فى فتحه قبرص والجزر الأخرى فى البحر المتوسط[٢] .

ويذكر بيرين أيضاً أن هجرة العرب من الجزيرة واستقرارهم فى البلاد المفتوحة لم تحدث إلا بعد انتهاء حركة الفتوح بنحو قرنين من الزمان كانت البلاد المفتوحة خلالها قد تغيرت وأصبحت جزءاً من العالم العربى[٣] ، ويذكر فى موضع آخر تعليلاً لبقاء الكيان العربى الإسلامى وذوبان القبائل الجرمانية ، بأن الجرمان لم يكن لديهم مايواجهون به كنيسة العالم الرومانى ، بينما كان العرب مزودين بعقيدة ودين سماوى به تماسكوا وبه استعصوا على الذوبان فى مجتمعاتهم الجديدة[٤] ، وهذه ملاحظة لها قيمتها ، لأن العرب المسلمين دخلوا بلاداً كانت غريبة عليهم ، وكانت ذات حضارة وهم لم يكونوا متحضرين ، ومع ذلك صبغوا الشعوب التى خالطوها بصبغتهم العربية ، ولم تقو هى على صبغهم بصبغتها ، وتم ذلك بقوى العرب الروحية وثقافتهم الإسلامية ، ولم يكن ثَمَّ إكراه ما .

---

(١) تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ١٠١ .

(٢) راجع فتوح البلدان فى هذه الغزوات .

(٣) تاريخ أوروبا ١٠١ .

(٤) نفسه ٩٩ .

وماذكره جيبون والذين أيدوا رأيه ذكره الآن أيضاً روجيه جارودى هذا الفليسوف الفرنسى المعاصر المعروف بحريته الفكرية وبحثه عن الحقيقة ، وبهذا جرؤ على إعلان إسلامه[١] وممن سبق بهذا أيضاً جوستاف لوبون ، وقد بكى فى غير موضع من كتابه « حضارة العرب » ماأصاب أوروبا من تأخر وفساد بسبب خروج المسلمين من أسبانيا وصقلية وهزيمتهم فى معركة « تور » كما وصف وحشية المسيحيين فى إبادة المسلمين[٢] .

أضف إلى ذلك أن البرابرة الذين هجموا على الدولة الرومانية ، كانوا يستبقون الأساقفة والقسس فى معابدهم[٣] وأن البابوات كانوا يشرعون الاسترقاق عقوبة لمعارضيهم فى ميدان السياسة ، وأن نشأة تجارة الرق ترجع إلى مرسومين بابوين بهما صارت هذه التجارة عملاً قانونياً[٤] وهذا يعنى أن أعمال الرق قبل هذين المرسومين كانت من المخالفات القانونية وأن رجال الدين المسيحى هم الذين جعلوها عملاً شرعياً . وبعد هذا يتهم الإسلام بأنه شرع الرق . بينما هو قد شرع التحرير من الرق .

ولم يغب عن نيل هذا الفرق ، فذكر أن الجرمان والهون والقوط ومن إليهم لم يكن لهم إلا دين بدائى ساذج فبهرتهم الحضارة الرومانية ، أما المسلمون فكانوا صلابا على عقيدتهم ويستندون إلى حجج منطقية وفلسفية[٥] .

وعن حياة المسيحيين بين المسلمين يقول أنهم كانوا يمثلون الطبقة الثانية من المواطنين ويقوم بعضهم بالأعمال الحرفية من الزراعة والصناعة والأعمال

(١) أنظر فى جريدة الأهرام ٣٠ يناير ١٩٨٣ حديثاً له أذاعه فى الكويت ، وهو ممن نفروا من المسيحية وأبغضوها، وكان قد تركها نهائياً واعتنق الشيوعية ، ثم هدته دراساته إلى اعتناق الإسلام ، وانظر حديثاً عنه فى مجلة الأمة القطرية عدد ذى الحجة ١٤٠٢هـ .

(٢) راجع حديثه عن نهاية المسلمين فى أسبانيا وصقلية . ص٣١٧ .

(٣) كولوتون – عالم العصور الوسطى ص ٥٢ .

(٤) نفسه / ٧٥ – ٦ .

(٥) P - 65 .

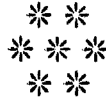
الكتابية ، وربما تولى بعضهم مناصب عالية فى الدولة ويختم حديثه بأن الكنيسة الشرقية فقدت سيادتها نهائياً أمام الإسلام ، وأصبحت ضعيفة التأثير فى جذب الناس إلى المسيحية(١) .

وييئس دعاة المسيحية من تنصير المسلمين فولوا وجههم شطر الشرق الأقصى والجهات الأخرى ، وكان هم الكنيسة فى الشرق الأوسط أن تحافظ على أبنائها حتى لا يبتلعهم الإسلام وكانت مهمة المبشر فى البلاد التى بها عدد كبير من المسيحيين أن يذكر بأمجاد المسيح ومعجزاته ، وكان حسبهم من الحاكم الإسلامى أن يمنحهم هذه الحرية ، ولم يكن لهم أى مطمع فى تنصير مسلم واحد ، ولكن أعمال المبشرين كانت – فى شيء من الإصرار يستحق التقدير – ينبعث نشاطها بين حين وآخر كلما بدأ ضعف الدعاة الإسلاميين ، أو ضعفت الدول الإسلامية فى حياتها الثقافية والاجتماعية ، ففى خلال الثلاثينيات من هذا القرن ظهرت فى مصر حركة تبشيرية تمثلت فى فتيات مبشرات يدعون إلى المسيحية ويجتذبن الشبان بحسن مظهرهن وكانت ثم نشرات توزع ويحملها البريد تذكر بأمجاد المسيح وتدعو إلى اتباع الأناجيل ولكن لم يكن بها طعن للإسلام . ونشطت كاتدرائية مصر القديمة ومستشفى هرمل الذى بجانبها ، وفى هذا المستشفى كانت تنشر أفلام مثيرة وسيئة لنبى الإسلام ، وكان المرضى يتحملونها على مضض لحاجتهم إلى الصحة والعلاج بهذه الدار ، وكانت تلك السنون عجافاً جدباء كسنى يوسف وكان الفقر يدفع بالمرضى إلى هذا المحيط ، وكانوا يصبرون أنفسهم على ما يرون ويسمعون ولكن لا نعلم أحد تنصر ، بل سمعنا ممن خالطوا هؤلاء القوم سخطاً وشكوى ، ولم تنته الأزمة الطاحنة التى اجتاحت العالم تقريباً إلا بقيام الحرب العالمية سنة ١٩٣٩ ، وخلالها تقلص النشاط التبشيرى ، ولكن دعاته استفادوا فوائد دراسية جعلتهم يحورون دعوتهم ويختارون لها حقولاً ملائمة .

---

(١) IBID PP 63 — 4

هذه هى الخطوط الرئيسية للقاء الإسلام والمسيحية ، وبدءاً من عصر الاستكشافات وعصر الاستعمار بدأت كفة النشاط المسيحى ترجح بما لها من قوة مادية ، ثم اتجهت أخيراً إلى البلاد الإسلامية التى يئست من دعوتها للمسيحية من قبل ، وعقدت لذلك مؤتمرات عديدة مهمتها البحث فى الطريقة التى تنصر بها المسلمين .



٤ - عصر الاستكشافات وآثاره التبشيرية :

ذكرنا من قبل تدرج الدعوة المسيحية ، وبينا أنها استغرقت وقتاً غير قصير حتى تشمل الأقطار الأوروبية ، ثم ضايقها فى الشرق ظهور الإسلام وانتشاره بسرعة خلال القرن السابع، وبينما كانت المسيحية لا تزال متورطة فى خلافاتها حول طبيعة المسيح ، وبينما كانت بعض الأقطار الأوروبية لا تزال على وثنيتها ، والكنيسة فى روما تعانى مشاكل داخلية وخارجية ... خلال هذا كله كانت موجة الفتح الإسلامى قد شملت ممتلكات الدولة الرومانية فى الشرق وأخذت أيضاً ماأخذت من القارة الأوروبية ، ولم تقو المسيحية على دفع هذا الخصم كما فعلت مع الخصوم الآخرين ، فهو دين يحمل مشاعل الثقافة وقيادة الفكر ، ولا يكره أحداً على قبوله ، وقد دخله كثير من المسيحيين عن عقيدة ثابتة ، وتحول الكثيرون من مسيحى أوروبا ووثنيّيها إلى الإسلام وأظهروا غيرة عليه[(١)] وخلال هذه الحقبة قامت الحروب الصليبية فلم تظفر -رغم تطاول أزمانها وتعدد حملاتها- بشيء مما كانت تحلم به ، ثم انفتح باب الأمل بضعف المسلمين فى أسبانيا واستكانتهم ، وكانت سكرة الانتصار فى الحروب الصليبية بعض ما سبب لهم هذا الضعف ، ثم خرجوا نهائياً من أسبانيا أواخر القرن الخامس عشر سنة ١٤٩٢م . وهو العام الذى كشفت فيه القارة الأمريكية ثم توالت بعدها كشوفات أخرى ، وكانت دعوة التبشير ترافق كل هذه الحركات[(٢)] .

ويعتبر القرن السادس عشر بداية نشاط تبشيرى جديد ، ففيه قويت حركة اتحاد الكنائس وظهرت المطبعة العربية على يد فرديناند دومتشى ١٥٨٦م . وفيه أنشىء أول كرسى للغة العربية فى الكوليج دى فرانسيه (الكلية الفرنسية) وفيه اشتد الاهتمام بكتب المعاجم والقواعد إلى أعمال

---

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام/ ١٥٥ .

(٢) Niel PP 140 — 1 .

أخرى كانت كلها بدافع التبشير والدعوة إلى المسيحية ، وفتحت حركة الكشف مجالات جديدة وواسعة خارج القارة الأوروبية وبعيداً عن منطقة الشرق الأوسط التى ثبت فيها الإسلام وقطع عنها أطماع المبشرين ، فكانت كل رحلة كشفية تصطحب معها عدداً من المبشرين ، وكانت الجماعات التبشيرية تتسابق إلى هذه الصحبة وتحرص عليها ، ولم تكن رحلة كولومب لمجرد الاستكشاف ولا هدفها الأول هو تقريب طريق التجارة بين أسبانيا والهند ، بل كان وراءها باعث دينى .

يقول المؤرخ الكبير هنرى فيشر : لايمكن القول بأن الدافع لاكتشاف العالم الجديد هو الرغبة فى الحصول على التوابل والذهب ، بل اختلطت المشاعر الدينية بالمطامع الاقتصادية ، ففى الفاتيكان وخصوصاً لدى الفرنسيسكان الذين كانت مشروعاتهم التبشيرية تطمح إلى تغطية العالم — كانت مشروعات البرتغال وأسبانيا تثير أكبر قسط من الاهتمام ، لا لأنها جديرة بأن تهىء السبيل إلى تنصير الوثنيين فحسب ، ولكنها تفضى إلى شن هجوم على المسلمين من ناحية الشرق ، وقد كان نجاشى الحبشة — مسيحياً وكان المعتقد أنه لاتزال فى الهند دولة مسيحية نتيجة — لبعث القديس ثوما — يحكمها عاهل يعرف بالخان الأكبر ، وكان يداعب أوروبا الكاثوليكية أمل كبير فى أن تتلقى من هؤلاء الملوك الشرقيين البعيدين مساعدة فعالة فى حرب صليبية ضخمة أخيرة ضد المسلمين ، تلك هى « خطة الهند » كما رسمها نقولا الخامس منذ وقت مبكر يرجع إلى سنة ١٤٥٤م فى مرسوم بابوى أرسله إلى ملك البرتغال ، وفى هذا الجو أقلع كولومب ليكتشف الطريق إلى الهند غرباً[1] .

---

(١) أصول التاريخ الأوروبى الحديث ٨٨ ، ٨٩ : عرض كولومب مشروعه على كل من البرتغال وانجلترا وفرنسا وظل موضع بحث لدى أسبانيا لمدة خمسة أعوام ثم رفضته اللجنة ، ثم قبلته الملكة بمسعى كاهن وسيدة أثيرة لديها ، وكان أسطول كولومب يتكون من ثلاث قوافل بحرية ، واستغرقت الرحلة خمسة أسابيع وصل بعدها إلى جزيرة واتلنج من جزر الهاما ، وهى التى سميت باسم سان سلفادور ، ثم تكررت رحلاته بعد ذلك

وبعد أن عرف أن هذه الجزر ليست هي الهند بقى لها اسم الجزر الهندية .

كانت الرحلة الأولى لكولومب فى أغسطس سنة ١٤٩٢م ووصلت إلى أمريكا فى أكتوبر ، فنزل القوم فى جزيرة جوانا هانى Guanahani . من جزر باهاما ، ورفعوا أعلاماً عليها الصليب الأخضر ، والحروف الأولى من إسمى فرديناند وإيزابيلا ، وحررت وثيقة الاستيلاء باسمهما . وأثار هذا الكشف ثائرة البرتغال ، وكادت تنشب الحرب بين البلدين ، لولا أن تدخل البابا الإسكندر السادس ، فتدارك الموقف برسم خط وهمى يفصل بين ممتلكات البلدين ، ويمتد من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى ماراً بجزر الخالدات على بعد مائة فرسخ من غربها ، ثم جزر الرأس الأخضر ، فرضيت الدولتان وغضبت الدول الأوروبية الأخرى ؛ لأنه سد عليها باب الكشوف والاستعمار .

وقام كولومب بعد رحلته الأولى بثلاث رحلات أخرى فى سنوات ١٤٩٣ ، ١٤٩٨ ، ١٥٠٢ وكشف جزراً أخرى ، وفى كل رحلة كان يحمل عدداً كبيراً من القسس المبشرين ، وكان هو يرتدى الملابس الدينية الخاصة بجماعة الفرنسيسكان ، وكان الصليب يرسم على أشرعة سفنه ، وكان يعتقد أنه مسوق بقوى إلهية لنشر المسيحية والقضاء على الإسلام ، ولكنه أسرف كل الإسراف فى نقل الهنود الحمر أرقاء إلى أسبانيا .

وبعد رحلته الثالثة نمت الوشايات ضده حتى غضبت عليه حكومته ، فكبل بالحديد وسيق إلى المحاكة . ولكن الملكة عفت عنه ، ولم يقم برحلات بعد ذلك . واحتفظ بالقيود التى كبّل بها فى مكتبه ، وأوصى أن تدفن معه . ومات سنة ١٥٠٦م مات ، وهو يعتقد أنه لم يصل إلّا إلى الجانب الشرقى من الهند . وبعد مدة طويلة تذكر الأسبان فضله ، فكتبوا على قبره إسمه وسجلوا أنه أعطى أسبانيا عالماً جديداً .

أما الذى كشف أن هذه البلاد ليست هى الهند فهو ملاح إيطالى يسمى أمريجوفيز بوتشى ، ومنه أخذت القارة إسمها بعد ذلك .

وعلى أى حال توطدت المسيحية فى الجزر التى كشفت ، ثم توالت الرحلات الكشفية ثم نقل الأفريقيون السود إلى الأراضى الجديدة ، وقد هلك منهم الكثيرون ، وكانت هذه أشنع أعمال الاسترقاق فى التاريخ كله ، ولم ينكر القسس نهب الأفريقيين ولكنهم بشروهم – فى أرض كولومب – برحمة المسيح وإنسانيته ، وأقيمت لهم الكنائس هنا وهناك .

والصورة التى نجدها فى رواية « كوخ العم توم » تعطى صورة مصغرة عن هذه المعاملة ؛ لأنها لم تتعرض لما حدث للأفريقيين المنهوبين .

ثم طاف فاسكو دى جاما حول أفريقية ووصل إلى الهند الحقيقية بحراً ، وقامت رحلات أخرى إلى أمريكا فانفتح أمام المبشرين ميدان واسع للتبشير ، وقال البابوات أنها فرصة لإيصال نور الإنجيل إلى هؤلاء المجهولين والذين كانوا يعيشون فى ظلام دامس بسبب الإسلام[١] !!

ولخص نيل غرض الحملات الكشفية فى أمرين اثنين ، هما التبشير بالإنجيل أولاً ، ثم التحالف مع الكنائس المسيحية التى كانوا يظنون وجودها هناك ، وبه يقوم تحالف مسكونى عام يمكن به أن يستأصل المسلمون من تلك البلاد ، وكانت تسيطر على عقل المسيحيين أسطورة الإمبراطور القديس الذى سيحكم إمبراطورية عظيمة فى أرض مجهولة ، ولم تكن هذه الأرض محدودة المكان ، فأملوا أو افترضوا أن تكون هى الهند[٢] وبعض توقع أن تكون هى الاستبس ومهما يكن مصدر هذه الأسطورة فإنها كانت من الحوافز الدينية الدافعة إلى مزيد من الكشوف[٣] .

(١) أنظر Neil 140 .

(٢) Ibid PP 140 — 49 .

(٣) لم يعرف مصدر هذه الخرافة التى إستولت على أذهان القوم مدة طويلة ، وظن أنها نبتت فى الحبشة التى كان بها مملكة مسيحية بالفعل ، وكانت مصدراً لعديد من الأساطير .

كانت رحلة فاسكو دى جاما سنة ١٤٩٧م أى بعد كولومب بنحو خمسة أعوام ، وقد وصل إلى السواحل القريبة للهند الحقيقية ، ورسا أسطوله عند كلكتا ، وكان يظن أن كولومب فى شاطئها الشرق ، ولم تعرف حقيقة الأمر إلا بعد رحلة أمريجو ، ثم كان ماجلان أول عابر للمحيط الهادى[1] وتتابعت رحلات الاستكشاف البحرية ، وكان كل أسطول يحمل معه عدداً من القسس ، وقد أبهج رجال الغرب وخصوصاً رجال الكنيسة أنهم أصابوا المسلمين بضربة اقتصادية ثقيلة ، إذ وجدت أوروبا طريقاً إلى الهند وشرق آسيا غير طريق البحر الأحمر .

وتنافست الدول الأوروبية على هذا العالم الجديد ونشبت بينهم خلافات كان لابد من الرجوع فيها إلى البابا ليفصل بين أسبانيا والبرتغال وليقرر حقوق المستكشفين وليحدد موقف القسس ومدى نفوذهم ، وصدرت قرارت من البابوات كان من بينها أن يعمل الملوك الذين يضعون أيديهم على شىء من الأراضى الجديدة على إخضاع سكانها للعقيدة المسيحية ، وأن يقوم كل حاكم بإرسال عدد من القسس واللاهوتيين ذوى ميزات عقلية وخلقية ومقدرة كلامية ليقنعوا هؤلاء السكان بدين الإنجيل ، وليرشدوا إلى حسن السلوك والعقيد الكاثوليكية . وفرح الملوك بذلك أن وجدوا فى الإرساليات المسيحية سنداً لهم ، فهم يروضون الناس على قبول حكامهم الجدد ويوطدون أقدام المستعمرين فى تلك البلاد ، لذا ساندوا الإرساليات بالمال والجاه وبذلوا لهم كل تقدير .

وفى سنة ١٥٠٠م وصل الملاح كابرال إلى ميناء صغير فى جنوب الهند هو « كارانجاتور » فوجد هناك بعض المسيحيين ، ربما كانوا من مسيحيى العراق جاءوا عن طريق فارس ، ولم يكونوا على صلة بالبابا ، بل كانوا فى عزلة تامة عن الكنيسة ، وكان ماحولهم من سكان البلاد يدينون بالديانات الهندية ، ولكن الإسلام كان قد استقر فى غرب الهند، وتسرب أيضاً إلى البلاد المجاورة،

---

(١) قتل ماجلان فى إحدى جزر الفلبين سنة ١٥٢٢م .

ومع أن الفتوحات الإسلامية كانت قد توقفت منذ بضعة قرون كان الإسلام قد تسرب تلقائياً مع التجار وغير التجار إلى بعض البلاد ، فاعتنقه أفراد وتكونت منهم جماعات ولكنهم كانوا قلة ، وكان ينقصهم العلم الكافى بشعائر الإسلام وأحكامه ، وكانوا فى حاجة إلى دعاة وإلى هيئة إسلامية تشرف على نشر الدعوة ، والهند بلاد تتعدد فيها الأديان واللغات وأيضاً الأجناس ، ويكثر فيها التعصب الدينى ، فكان من الأحداث الشاذة أن يشق الإسلام له طريقاً أو يتسرب له بصيص من الضوء بين كل هذه الجماعات ، وإزاء هذا الموقف المتقارب من المسلمين والمسيحيين المنعزلين ظلت كل ديانة فى حقلها حتى وفد كابرال ومعه مسيحيون مستنيرون مؤهلون لدعوتهم فرجحت كفة الكنيسة وكثر أتباعها ، وعملا بوصية البابا ذهب الدعاة إلى هؤلاء الذين كانوا منقطعين ، وبذلت جهود لتكوين دعاة ورؤساء كنائس من المواطنين ، واصطحب كابرال معه إلى أوروبا بعض المستنيرين ومن لديهم معلومات عن الإنجيل من هؤلاء القوم ، وكان الغرض من كل ذلك هو إيجاد صلة بينهم وبين البابوية ، وبهذه الجهود زاد عدد المسيحيين ، وانحاز إلى الكنيسة أعداد كثيرة من الديانات الأخرى ، وحقا لم يتنصّر مسلم ولم ينقطع دخول الأفراد فى الإسلام ، ولكن الفرق كان واسعاً بين الموقفين .

وهذا الموقف متكرر فى مختلف الأقطار والأزمنة إذ تجد المسيحية تنظيماً ودعاة موفدين من هيئات تبشيرية ، وتجد الكنائس معونات مادية كبيرة ، وتجد حتى فى البلاد الإسلامية – معونات وحماية من سفارات بلادها ومن حكوماتها ومن الكنيسة الأم ....

ولا يجد الإسلام شيئاً من هذا ، وفقط يعتمد على جهود فردية ويتمشى بمبادئه ومافى عقيدته من بساطة ووضوح .

وهذا هو موقف التبشير والإسلام الذى نعرض له فى عدد من الأقطار .

* * *

٥ - النشاط البحرى والتبشير :

كان نجاح الحملات البحرية فى كشف جوانب جديدة من أمريكا وما حولها مما جعل الملك الأسبانى شارل ، يزداد إيماناً بأن الله يمده بعونه لأنه نصر الدين الحق وهو الكاثوليكية فأخذ يعد لرحلات بحرية جديدة .

ومن أشهر هذه الرحلات فى عهده رحلة فرديناند ماجلان قاهر البحار - بأسطول مكون من خمس سفن ، وقد انقطعت أخباره ثلاثة أعوام ، ثم ظهرت السفينة « فكتوريا » بقيادة جون سباستيان دل كاند J. Sepastian del cand فجأة على نهر الوادى وتغيبت الأربع السفن الأخرى ، واعتبر مجيئها نصراً ، لأنها أول سفينة تقطع المحيط الهادى ، بعد أن طافت حول بتاجونيا ، وبعد موت ماجلان فى جزر البهار عبرت السفينة الباقية المحيط الهندى إلى جنوب أفريقية ، ثم عادت إلى أسبانيا[١] .

كذلك أبحر هرناند كورتيز Hernand Cortis من كوبا إلى أمريكا الوسطى ، وكانت كوبا قد دخلت من قبل فى حوزة أسبانيا ، وبهذه الرحلة ضمت إليها أيضاً المكسيك ، وكان يسكنها جنس بدائى عرف باسم الازتك Aztecs وكانوا من أكلة اللحوم البشرية ، وكانوا غاية فى التأخر لا يعرفون عن دواب الحمل ولا عن الأبقار والماعز شيئاً واستطاع كورتز لذلك التغلب عليهم رغم وحشيتهم ، ثم أذاع فيهم أسطورة صدقوها وهى أنه وجماعته أنصاف آلهة تخشى مقاومتهم ، ولم يكن من المقبول ولا من المتوقع - وبين الغزاة مبشرون بالمسيحية - أن يذيعوا بين هؤلاء السذج البدائيين نوعاً جديداً من الوثنية .

وهم وثنيون من قبل .

وامتدت ممتلكات الأسبان فى أراض واسعة فى هذه المناطق البكر ، وهم الذين أسسوا باناما ، وتعددت حملاتهم واستيلاؤهم على ذخائر هذه البلاد .

---

(١) أنظر هذه الأحداث فى دائرة المعارف البريطانية ، ودوائر المعارف الأخرى ، وكانت الجزيرة التى قتل فيها هى جزيرة ماكتان من جزر الفلبين ١٥٢١م .

وقام الملاح بيزارو Pizzaro بحملة على بيرو وجنى منها كميات كبيرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، واعتبرت هذه أثمن ما نال المستكشفون .

كان بيزاروا لقيطاً فقيراً دفعه فقره إلى احتراف الملاحة والمغامرة فى طلب الرزق وفى سنة ١٥٢٢م كان فى باناما معوزا يبحث عما يعيش به ، ومعه بعض رفاقه من البحارة فأخبره بحار أسبانى عن قبيلة الأنكا التى تعيش فى مقاطعة منسية على ساحل المحيط الهادى وحدثه عن ثرائها وكثرة خيراتها ، فأثار أطماعه وأسال لعابه ، إذ كان فى مسيس الحاجة إلى المال وهو لا يبحث عن غيره ، فأسرع بالذهاب إليها فى سفينة واحدة ومائة رجل ، ولم يهتد إلى ما يريد وعاد فاشلاً ولكن أحلامه لم تنقطع، فاستأنف بحثه بعد أربعة أعوام سنة ١٥٢٦م ، وفى هذه المرة وجد ما كان ينشده ، وجد جماعة قطعوا شوطاً فى سلم الحضارة ، وهم قبيلة متماسكة ليس بينها متعطل ، ولهم حقول عامرة بالزراعة ، والشعب كله يتحلى بالذهب واللالىء ، ولهم قصور ومعابد وطرق وقنوات معلقة وأخرى عميقة ، وكانوا من عباد الشمس وأراد رفاقه العودة ، ولكنه خط بسفه خطاً على الرمال وقال على هذا الجانب الشمالى يوجد الفقر والفاقة والجوع والخراب والموت .... وعلى الجانب الآخر توجد الدعة والمسرة والذهب والثروة ، وإنى أختار الذهاب إلى الجنوب وهذا هو الأجدر بكل قشتالى شجاع ، ومع خطبته المثيرة لم يتبعه غير ستة وعشرين من رجال السفينة ، واكتفى بارتياد البلاد ودرس حالها وعاد إلى أسبانيا ، ولم يكن الإمبراطور أقل شرهاً منه ، فأعد له رحلة أخرى سنة ١٥٢٩ ، وخوله سلطة نائب ملك فى البلاد التى يراد ضمها لتاج قشتالة .

هنالك تجلت أخلاق بيزارو الدنيئة ، فاحتال على حاكم البلاد حتى اختطفه بطريقة غادرة ، ثم جرده من ثروته الكبيرة ، ثم أحرقه فى ميدان عاصمته سنة ١٥٣٣ على مشهد من الرهبان والمبشرين الذين باركوا عمله وأعلنوا استحسانه .

وظل تعذيب الأسبان البشع ينصب على كل مستعمراتهم هناك حتى ظهر قس يدعى لاس كازاس Las Casas أزعجته هذه الوحشية ، وساءه سكون إخوانه المبشرين عليها ، فأعلن استنكارها ، ونشأ عن دعوته حركة إنسانية دعت إلى الحد من طغيان الأوروبيين على هؤلاء المساكين[1] ، وكان هذا هو الأسلوب العام لنشر المسيحية .

ونذكر لمحة عن صراع الدينيين فى كل من آسيا وأفريقية .

(١) أصول التاريخ الأوروبى الحديث ١٣٩ - ٤١ - وانظر « أوروبا فى مطلع العصور الحديثة » -د/ عبد العزيز الشناوى ١٣٣ - ١٤٤ .

الفصــل الأول

فى

آســــــيا

أولاً : الهنـــــد

١ - الإسلام والمسيحية فى الهند :

الهند شبه قارة بعيدة الأرجاء ، وكانت فى عهد الفتوح الإسلامية تطلق على كل البلاد التى تلى بلاد الفرس حتى المحيط ، وهى إلى وقت قريب كانت تشمل باكستان وبنجلادش ، وكان المسلمون يسمون الجزء الذى غرب النهر وباكستان الحالية باسم السند، وليس من السهل أن نلم بحديث المسيحية والإسلام فى هذه البلاد بمثل هذا العرض الموجز فكل إقليم من أقاليمها يستدعى حديثاً مطولاً عن أى من الديانتين ، ولكنا ونحن نتحدث عن التبشير وموقف كل من الديانتين يكفى أن نشير إلى بعض الأحداث التاريخية التى تربط موقف الدانتين الآن بماضيهما ، ولعل فى هذا ما يكفى دارس التبشير الحديث ، ولعل فيه أيضاً ما ينير له الطريق لدرس هذا الموضوع - خصوصاً تاريخ الإسلام - درساً أوسع .

والهند من قديم الزمان مجمع أجناس بشرية وفيها كثرة من الديانات وكثرة من اللغات ، وبحكم تباعد أطرافها وتنوع مناخها تختلف تقاليد سكانها وأخلاقهم ، ويصعب أن يجمعوا على طريقة واحدة فى أى من هذه الصفات حتى الذين هم على دين واحد فى جوانب هذه البلاد ويختلفون فى أشياء كثيرة من عاداتهم ومظاهرهم ، وقد بذل الزعيم غاندى جهداً كبيراً فى التقريب بين فصائل هذا الشعب فعز عليه ذلك ولكنه قطع شوطاً مشكوراً .

وفى الحديث عن الإسلام والمسيحية نذكر أولاً : بداية كل منهما فى هذه البلاد ، ثم نعرض لما كان بينهما من تنافس ، وبه نوضح نشاط التبشير حتى الوقت الحاضر .

بداية المسيحية فى الهند :

دخلت المسيحية الهند فى ظروف غامضة ليس من السهل تحديد تاريخها بدقة ولكن يغلب على الظن أنها دخلت فى القرن الثالث الميلادى ، وأن دخولها

كان عن طريق بلاد فارس ، وبنشاط الكنيسة السريانية الشرقية[١] التى كانت قد استقرت فى العراق وتسرب بصيص منها إلى الهند ، ولكنّ الإرساليات التبشيرية لم تدخل الهند إلا فى القرن الخامس أو أواخر القرن الرابع من هذه الكنيسة ، وقامت لها كنائس فى سيلان وعلى ساحل الهند الغربى ، وفى القرن الثامن والتاسع وفد على نصارى الهند وفود من العراق وفارس وغيرهما ، وأعمالهم ليست ذات أهمية ، ثم اهتمت الدول الأوروبية بالهند وأنشأ ملك انجلترا سفارة له هناك لتعزيز التبشير المسيحى ، فبثت شيئاً من اليقظة والنشاط ، وكانت قبل ذلك فى حالة ركود ، كما أنها كانت منقطعة عن البابوية فى روما[٢] .

وإذا أردنا أن نتبين صبغة الثقافة المسيحية فى هذا الصقع النائى المنقطع فإننا نميل إلى أنها كانت تحمل عناصر أفلوطينية ، هذا لأن الأفلاطونية الحديثة كانت منذ القرن الثانى قد امتدت من الإسكندرية إلى الرها ، وإلى حران

(١) كانت الكنيسة تسمى النسطورية ، لا لأنها تابعة لنسطور الراهب الصقلى الذى ينسب إليه المذهب النسطورى والذى تقدم ذكره فى الحديث على مجمع افسس فى كتاب «الإرساليات التبشيرية» ، ولكن الكاثوليك كانوا قد أطلقوا عليها هذا الإسم ليصموها بالهرطقة التى رموا بها نسطور - وهى الجمع بين اللاهوتية والناسوتية فى طبيعة المسيح . وإنكار إلهية مريم ، وأطلق عليها أيضاً اسم الكلدانية ، وهذه النزعة التى عيبت بها هى التى هيأت لها انتشارها فى الشرق ، وفى القرن الخامس كانت نامية فى بلاد فارس ، وأعلن أسقف «المدائن» عاصمة الفرس أنه بطريرك الكنيسة الشرقية ، واستمرت مزهرة حتى بعد ظهور الإسلام ، ولما بنى المنصور بغداد ٧٦٢م ، انتقلت البطريركية إليها ، وكان لها كنائس فى مرو ، وهراة ، وسمرقند وغيرها -(انظر تاريخ سوريا جـ١/ ٤١١ ، جـ٢/١٣٥ - ٦ .

(٢) يجب أن تكون على ذكر من أن الكنيسة الشرقية بعد أن انقسمت انقساماتها التى ذكرناها فى كتاب «الإرساليات التبشيرية» ظلت تتشقق أيضاً ، ولم تكن الكنيسة السريانية (النسطورية) إلا فرعاً من هذه الأقسام ، وتقابلها الكنيسة السريانية الغربية أو الفرع الغربى ، ويسمى أتباعها اليعاقبة - نسبة إلى يعقوب البرادعى أسقف الرها ، وهى أيضاً تسمية تهكمية من أعدائهم اليونان الكاثوليك ، ولم يكن لليعاقبة نشاط تبشيرى كالذى كان للنساطرة ولكنها انتشرت فى مصر وسوريا والحبشة ، ودخلها عرب الغساسنة فى جِلّق ، وكانت أيضاً عاملا فعالا فى نشر الفلسفة اليونانية ، وكلتا الفرقتين تركت آثاراً عميقة فى الفكر الإسلامى ، وفى ظل التسامح الإسلامى قام النساطرة بنشاط تبشيرى واسع فى بلاد فارس ، وبنوا كنائس عديدة هناك ، وكان المسلمون أثناء فتحهم بلاد فارس والهند يهدمون المعابد الوثنية ويتركون الكنائس .

وجنديسابور فكانت مدارس المسيحية فى فارس تدرسها ، ولما طرد الإمبراطور جستنيان الفلاسفة اليونانيين من بلاده كان سبعة منهم ، ومن أتباع الأفلاطونية الحديثة قد هاجروا إلى بلاد فارس وآواهم كسرى أنوشروان ، فبثوا هناك فلسفتهم ، وإذ كانت النسطورية كما سميت ، أو السريانية فى فارس هى التى نقلت المسيحية إلى الهند ، فلابد أنها كانت على هذا المذهب .

٢ – دخـول الإسـلام الهنـد :

دخل الإسلام الهند من عدة منافذ ، وبطرق مختلفة بعضها واضح وبعضها يحيطه غموض ، وأوضحها ما كان عن طريق الفتوحات المنظمة فى صدر الإسلام ، وترجع بداية الغزوات الإسلامية إلى عهد الخليفة عمر ابن الخطاب ، وهو لم يعد حملة حربية لهذه البلاد ولكن واليه على البحرين وعمان (وهو عثمان بن أبى العاص الثقفى الذى ولى سنة ١٥ هـ) أرسل من عمان جيشاً إلى نانة وبروص من بلاد السند ، ولم يخبر الخليفة إلا بعد عودته وكان قائد هذا الجيش هو أخاه الحكم بن أبى العاص ، كما وجه أخاه المغيرة إلى أرض الديبل[١] على الشاطىء الغربى ، ومنذ ذلك الوقت حتى القرن الثامن عشر الميلادى ظلت وفود المسلمين تتدفق على هذه البلاد[٢] .

ولم يكن الخليفة راضياً عن هذا الغزو ، وقد كتب إلى عثمان : ياأخا ثقيف ، حملت دودا على عود ، وأنى أحلف بالله أن لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم[٣] .

ولما جاء عثمان بن عفان ولى على العراق عبد الله بن عامر بن كريز ، وأمره أن يوجه إلى ثغر الهند من يعلم علمه ، فوجه حكيم بن جبلة العبدرى[٤] إليها

(١) وهى كراتشى الآن .

(٢) الدعوة إلى الإسلام ٢٨٧ ، وتاريخ الإسلام لحسن إبراهيم ٣١٢/١ .

(٣) البلاذرى بيروت ٤٢٠ .

(٤) ترجمة حكيم فى الاستيعاب رقم ٥٤٠ ص٣٦٦ ق ١ تحقيق البجاوى ، ويقال حكيم وحكيم ، « بوزن قتيل وزبير » وابن جبل وابن جبلة ، كان رجلاً صالحاً مطاعا فى قومه ، وكان يعيب عثمان =

فلما عاد كتب للخليفة وصفاً جاء فيه « .... ماؤها وشل[١] وتمرها دقل (بفتح القاف)[٢] ، ولصها بطل[٣] ، إن قل الجند[٤] فيها ضاعوا ، وإن كثروا جاعوا[٥] فلم يغزها أحد طوال عهد عثمان .

وفى عهد الخليفة الرابع –على بن أبى طالب ، توجه إليها الحارث بن مرة العبدرى سنة ٣٩هـ ، وكان موفقاً فى غزوه ، ويبدو أن نجاحه أغرى بمتابعة الغزو هناك لأنه أصاب مغانم وسبيا حتى أنه قسم فى يوم ألف رأس[٦] ، ثم قتل فى قبقان سنة ٤٢هـ (فى عهد معاوية) وفى سنة ٤٤هـ غزا المهلب بن أبى صفرة (بنة والأهواز) بين كابل والملتان (جنوب البنجاب) . وفى عهد معاوية أيضاً غزيت بلاد القبقان ومكران غير مرة ، وأرسل الحجاج فى عهد عبد الملك عدداً من الحملات ، وأراد ملك جزيرة الياقوت أن يتقرب إليه فبعث إليه بنسوة ولدن فى بلده مسلمات من آباء تجار ماتوا هناك[٧] وهذا يعنى أن ، الإسلام سبق الغزوات الحربية إلى تلك البلاد على أيدى التجار .

وأشهر وأنجح القواد الذين غزوا السند محمد بن القاسم الثقفى –ابن أخى الحجاج– وقتيبة بن مسلم الباهلى ، وكان جيش محمد جراراً به ٦٠٠٠ من أهل الشام ، وقد أخضع مكران وبلوخستان ، ووجد فى الديبل تمثالاً لبوذا

= ابن عفان من أجل عبد الله بن عامر وأمور أخرى ، ولكنه قابل ركب الجمل – السيدة عائشة والزبير وطلحة– وكان معه سبعمائة من عبد القيس وبكر بن وائل ، فالتقوا بالزاب – قرب البصرة – فقتل ، وقيل قطعت رجله يوم الجمل ، فأخذها بيده وزحف إلى الذى ضربه فجعل يضربه بها حتى قتله ، قال أبو عبيد : ولا نعرف أحداً فى جاهلية ولا إسلام فعل فعله ، وفى الإصابة ت ١٩٩٩٤ –حكيم– يضم أوله مصغرا .

(١) قليـــل .

(٢) أردا أنواع التمر .

(٣) يريد أن الأمن مختل فيها .

(٤) رواية ابن عبد البر الجيش .

(٥) الجيش القليل لا يحمى نفسه ، والكثير لا يجد طعاماً يكفيه .

(٦) فتوح البلدان ٤٢١ .

(٧) نفسه ٤٢٣ ، وجزيرة الياقوت فى بحر الهند سميت كذلك لحسن وجوه نسائها .

يبلغ ارتفاعه ٤٠ ذراعاً ، واستولى كذلك على النبرون - (مكان حيدر آباد الآن) - وكان فى ملتان أيضاً مزار لبوذا ، وكان به أثناء فتحه عدد كبير من الحجاج أخذوا أسرى . ومنذ ذلك العهد استقر الإسلام واستقرت اللغة العربية فى إقليم السند ، ومنه امتد الإسلام إلى داخل البلاد بواسطة التجار المتنقلين والدعاة وظلت الغزوات أيضاً بين حين وآخر ، وحدثت غزوات متقطعة خلال العصر العباسى ، وقد حدث أن بعض الملوك ورؤساء القبائل مالوا إلى الإسلام فاعتنقوه واعتنقه معهم أتباعهم ، وبعد تضعضع الدولة العباسية ، ظل للمسلمين غزوات متلاحقة فى الهند ، ومن أشهرها حروب محمود الغزنوى[١] وتيمور لنك وكانت كلها حروباً تتسم بالصفة الدينية والرغبة فى الجهاد للقضاء على الوثنية ونشر الإسلام ، وجاء فى مذكرات تيمور لنك أنه بسبب شنه الحرب على الكفار بارك الله حملته وجعل النصر حليفه ... وأنه لا يحق له أن يخلد إلى الراحة بل عليه أن يشن الحرب على كفار هندستان[٢] .

ومما ربحه الإسلام بالهند أنه كانت تدخله أسر وقبائل كلها دفعة واحدة ، وكان هذا التحول من الوثنية إلى الإسلام هينا إذ كانت الوثنيات قد أتبعت

---

(١) ينسب الغزنيون إلى غزنة عاصمة ملكهم فى بلاد الأفغان ، وكانوا ستة عشر حاكما وشملت دولتهم أفغانستان والبنجاب وبشاور وخراسان فى فارس ، وأشهرهم محمود بن سبكتكين (٣٨٧ - ٤٤٢هـ) الذى قام بنحو سبع عشرة حملة على الهند ضم بها إلى مملكته البنجاب وملتان وجزءاً من السند ، وله الفضل فى تثبيت الإسلام فى البنجاب وأطلق عليه لقب الغازى ، وأخذ أيضاً العراق الفارسى من البويهيين فحوله إلى المذهب السنى ، وضمت دولته أيضاً طخارستان وسجستان ، وجزءاً مما وراء النهر فى الشمال ، ومع هذا النفوذ الواسع اكتفى هو وخلفاؤه بلقب سيد أو أمير يكتبونه على العملة وأبقوا للخليفة النفوذ الأعلى ، وضم بلاطه شعراء وعلماء منهم البيرونى - أبو الريحان - والفردوسى صاحب الشاهنامة ، وهى ملحمة تقع فى ستين ألف بيت ، فكافأه عليها بستين ألف درهم وكان يريدها دنانير فغضب وهجر البلاد وهجا الأمير ، وقد أخذت الدولة فى الضعف بعد هذا الأمير - ومحمود ابن سبكتكين هو أول فاتح للهند الحقيقية .

(٢) الدعوة إلى الإسلام / ٢٨٧ .

أساساً عن تقليد بحت للرؤساء فكان الأتباع يتحولون بتحولهم ، ومن هذا ماحدث لشعب الجكهر Ghakher وهو شعب متبربر كان يسكن المقاطعات الجبلية شمال البنجاب ، وكان خشناً سبب للغزاة الأوائل متاعب كثيرة ، ولكنه تحول كله إخيراً إلى الإسلام[١] وفعلت شعوب وقبائل أخرى مثل هذا الفعل ، فزاد بهم عدد المسلمين وثبتت أقدام الإسلام حتى عز اقتلاعه أو توهينه بعد ذلك وظل رغم قلة دعاته صامداً للتبشير المسيحى .

وخلفت الدولة الغورية فى أفغانستان دولة الغزنويين، واستمر ملكها حقبة قصيرة من سنة ٥٤٣ حتى سنة ٦١٢هـ (١١٦٣ - ١٢٣٢م) فاستولت على الأقاليم التى فتحها الغرب من قبل ، وبسطت نفوذها حتى شمل الهند الشمالية كلها . وأثناء هذا التاريخ وبعده قامت دول إسلامية غير كبيرة ولا واسعة الرقعة عملت على توطيد الإسلام أيضاً - فأسرة الخلجيين Khiljis حكمت من سنة ١٢٩٠ - ١٣٢٠م وأسرة تفلق حكمت من سنة ١٣٢٠ - ١٤١٢م ، وأسرة اللوردين من سنة ١٤٥١ - ١٥٢٦م ، وأسر أخرى لم تكن عظيمة الأهمية ، ولم يكن معظمها ذا روح دينى ولا ذا عناية بالجوانب الروحية ، وإنما كانت تعنى بجمع المال والضرائب ، وفى ظل إغضائها عن الجوانب الدينية استطاع التبشير المسيحى أن يكون له مراكز كان أكثرها لجماعات اليسوعيين والفرنسيسكان والكاثوليك ، واستطاع الإسلام أيضاً أن يأخذ مكاناً تلقائياً بين القبائل العديدة ، ولكن كالمعتاد لم تكن له رابطة جامعة .

وفى القرن العاشر الهجرى - السادس عشر الميلادى - استولى على شمال الهند بابر شاه من سلالة تيمور لنك ، فأقام الدولة المغولية التى أفردنا لها فصلاً خاصاً موجزاً وقد بسطت سلطانها على الهند كله تقريباً ، وكان بها حكام ذو ميول نحو الإسلام أو على الأقل حكام يرغبون فى التعرف على حقيقته ، وامتد

---

(١) يجدر بالدارس أن يرجع إلى كتب تاريخ الهند ، ففى تفاصيلها أحاديث عن الإسلام ونشره ، كما أن فيها أحاديث عن التبشير المسيحى .

عهدها حتى سنة ١٢٧٥هـ (١٨٣٧م) إذ استولى الإنجليز على الهند بالطريقة المعروفة التى بدأت بشركة الهند الشرقية ، وكان آخر ملوك المغول هو بهادر شاه الثانى الذى كانت مدة حكمه نحو ٢٢ سنة وبدخول الهند تحت الحكم الانجليزى بدأت صفحة جديدة للتبشير نذكرها بعد .

٣ - التبشير المسيحى فى الهند :

قصة التبشير فى الهند مما ينبغى أن يعرفه الداعية الإسلامى ، فهى فى واقعها تحمل رداً على المبشرين الذين يحلوا لهم أن يطعنوا الإسلام وأن يكيلوا له التهم بغير حساب ، فالذين يكررون دون سأم أن الإسلام فرض نفسه بحد السيف يجدونه أخذ مكانه تلقائياً فى الهند والجزر التى حولها ، والذين يقولون أن إباحته تعدد الزوجة سهل قبوله لدى الشرقيين يجدون أن الذين تزوجوا بأكثر من واحدة أقل من ٣٠٪[١] وأن المسلمين فى البنغال زادوا فى الثلاثين عاماً الأخيرة من القرن التاسع عشر ثلاثة ملايين بينما زاد الوثنيون مليوناً واحداً[٢] هذا مع أن الوثنيين يتزوجون من زوجات غير محدودات العدد ، وإذا نحن استعرضنا ما بذلت جمعيات التبشير من جهود بالغة فى نشر دعوتهم إزاء انتشار الإسلام من غير دعاة ، وجدنا دعوى الذين يحتجون لقوة المسيحية بأنها أكثر عدداً من الديانات الأخرى دعوى غير مقبولة لأنها كثرة لم تقم على طبيعة الدين وإنما قامت على الإغراءات المادية والدعايات وقوة الحكومات .

أما عن بداية المسيحية فى الهند فقد ذكرنا من قبل أنها تسللت إليها فى ظروف غامضة ، وقد وجد البرتغاليون المستكشفون فى جنوب الهند جماعات مسيحية تنتمى إلى القديس توما ، ولكنها منقطعة تماماً عن البابوية فى روما

---

(١) الغارة على العالم الإسلامى / ٧١ .

(٢) نفســـه .

ولا تعرف عنها شيئاً فأنشأوا لها صلة به[1] وفى القرن السادس عشر - عصر النشاط البحرى والتبشيرى والاستشراق - برز مبشرون كبار إليهم يعزى نشر المسيحية وإبرازها بين أديان الهند .

٤ - كبار ناشرى المسيحية فى الهند :

(أ) فرنسيس زافيير F. Xavier (١٥٠٦ - ٥٢)

من أكبر وأشهر المبشرين فى هذا العهد ، وهو من أصحاب لويولا السبعة الذين كونوا جماعة اليسوعيين ، ومن كبار الذين تزعموا الإرساليات الكاثوليكية فى الهند واليابان والصين . ويمتاز بحدة عاطفته وإخلاصه الشديد للدعوة المسيحية .

دخل الهند سنة ١٥٤٢ ، ودخل اليابان بعد عامين ثم انتقل إلى الصين ومات بها سنة ١٥٥٢ .

كانت بداية نشاطه فى جوا Goa - وهى ميناء على الشاطىء الغربى ، وكانت قرية صغيرة فما لبثت أن نمت وصارت مدينة ذات ثراء وجمال ،

(١) Neil PP 148 — 51 .

ونسبة الدعوة هناك إلى القديس توما نسبة واهية لا يعول عليها - وهو قد مكث هناك مدة طويلة ، ثم انتقل إلى فيشر كوست ويقال مات هناك ، وحيكت حوله أساطير من نسج الخيال ، ولكننا قدمنا ما كان للكنيسة السريانية التى أطلق عليها اسم النسطورية الشرقية ، وسميت أيضاً البروتستانية الشرقية وانظر تاريخ سورية جـ٢/١٣٦ ، وقارنه بما جاء فى كتاب الدعوة إلى الإسلام/ ٢٨٧ - ونضيف أن القديس توما مات بالهند ودفن فى قرية قريبة من مدراس تسمى مايلابور Mylapore وترجع القصة أساساً إلى نشيد سريانى من القرن الثالث ، سمى « أعمال توما » «Acts of Tumas» وفيه قصة تذكر أن المسيح أراد أن يوجه الرسول توما للتبشير فى الهند ، ولكنه لم يقبل واعتذر بأنه عبرانى والهنود لن يقبلوا الحق الذى يأتيهم به ، فدبر له المسيح مكيدة بها بيع لثرى هندى كان قد جاء إلى أورشليم يبحث عن نجار ماهر - فاصطحب معه توما ، وهناك طلب منه الملك أن يبنى له قصراً ، ولكنه صمم أن يبنى له قصراً روحياً فى السماء ، وقال أنه يبنيه من خلال الصدقات التى يوزعها الملك على الفقراء ، ولا يرى هذا القصر فى الدنيا بل بعد رحيله عنها إلى الدار الآخرة فغضب الملك ثم أمر به فسجن - ولكنه أخيراً خرج بأعجوبة ورضى عنه الإمبراطور وتنصر وعمد ، ويأنف بعض المسيحيين من القصة خصوصاً لما بها من إجحاف بالمسيح فهو لم يكن من مدبرى المكايد .

إذ انبعث فيها نشاط تجارى ، ووفد عليها عدد كبير من الأوروبيين ، ملاحين وأصحاب أعمال . وزحف إليها الهنود وغير الهنود لهذا الرواج الذى جد فيها ، وكثرت بها الأديرة والكنائس ، حتى صارت كالمدن الكاثوليكية فى شرق أوروبا .

كان سكان جوا يعرفون بسوء المعاملة وضاعة الأخلاق والعادات ، ويرجع ذلك إلى أن كثرتهم من الأفاقين الفقراء ، وقد اختلطوا بالملاحين الأوروبيين فأشاعوا بينهم الفساد ، كان هؤلاء الملاحون قد غادروا زوجاتهم ، واستباحوا أن يتصلوا بنساء جوا اتصالا غير شريف وبعض منهم تزوجوا وأنجبوا نسلاً ثم عادوا وتركوا زوجاتهم وأولادهم ، وامتاز هذا النسل المهجن بقوة البنية وضعف الأخلاق ، وجمع رذائل الهنود والأوروبيين ، وكان من الصعب لذلك أن يتقبلوا تعاليم المسيحية .

ولم يقم زافيير بهذا الثغر إلا قليلاً ، ثم انحدر إلى الجنوب فوجد هناك قرى مبعثرة تقيم بها أقليات ساذجة ، ووجد جماعة قبلت المسيحية منذ ١٥٣٦م وهم قوم من البارافا (تكتب Paravas أو Bharathes) صيادون يقيمون على الشواطىء فى حالة تأخر حضارى ، ووجد أيضاً جماعات من المهاجرين خوفاً من الغزو المغولى . وقد التجأوا إلى البرتغاليين ليحتموا بهم ، فاشترط هؤلاء فى مقابلة حمايتهم أن يعمدوا ، فتعمدوا ولكنهم تركوا بدون تعليم ولا دراية بالمسيحية ، وبذا وجد زافيير الطريق سهلاً أمامه ، فعمد منهم جميعاً نحو (١٠,٠٠٠) عشرة آلاف شخص فى سنة واحدة ، ولكن لم يستطع أن يبث فيهم تعاليم المسيح ولا تفهيمهم حقيقة المسيحية ، لاختلاف اللغة . وعجزه عن درس التاملية التى كانوا يتكلمون بها . وهى لغة صعبة ، ثم هم لسذاجتهم وعدم ثقافتهم لم يستطيعوا فهم الفلسفة التى تقوم عليها المسيحية ، ولكن زافيير كان ذا طريقة حسنه فى شرحه استطاع بها أن ينقل إليهم ما نقل . وكان ذا مقدرة على اجتذاب الشباب ، فعلمهم ثم جعلهم معلمين للآخرين ، وسهل انقيادهم إليه أنهم لم يكونوا يعرفون ديانتهم الأصلية .

وكان هناك قبله إرسالية يسوعية برتغالية ولكن الأهلين كانوا يكرهون البرتغاليين ، ويرونهم مستعمرين غاصبين ، فكان قصارى ماعملت إرساليتهم أن هيأت الأذهان ، فكان لدى الشعب قابلية للسماع ، فأقبلوا على زافيير ، وأهم ما ساعده هو تعلمه عدداً من لغاتهم ، فسمع منهم وخاطبهم بها وترجم إليها بقدر المستطاع .

ترجم لهم بعض الصلوات والأدعية ، كما ترجم الوصايا العشر ترجمة ناقصة هزيلة .

وأهم ماعلمهم فى هذا الوقت أنه منعهم من الصيد يوم السبت وأحضرهم إلى الكنيسة ليرتلوا ماترجم لهم من الأناجيل بلغتهم فكانوا يفرحون بذلك . وفرض عليهم أن يدفعوا للكنيسة مقداراً من صيدهم فى يوم الجمعة ولكنه لم يحدده .

وبوجه عام استطاع أن يوقظ الكنيسة هناك وأن يبعث فيها نشاطاً ، فكان على الشاطىء ١٦ قرية فى كل منها آب جزويتى . وبذا تفوّقوا على البرتغاليين الذين أنف الناس معاملتهم الخشنة . وقد ترك فى مذكراته وصفاً للهنود قريباً من الوصف الذى تحدث به حكيم بن جبلة إلى عثمان بن عفان ، إذ وصفهم بالخشونة والجهل والتأخر .

كان الغزو المغولى قد سبق زافيير إلى الهند بنحو ستّة أعوام ١٥٢٦ ، ولم يصل إلى هذه السواحل ، واستمر المغول حتى سنة ١٨٥٨ ، وكانوا حجر عثرة أمام المسيحية حال دون امتدادها إلى الداخل لأن المغول اندمجوا بالأهلين أكثر من الأوروبيين وأكثر من الإنجليز . وعلى أى حال كان زافيير رائداً للتبشير المسيحى قام بعمل كبيرا ، وقد مهد به للذين جاءوا بعده . وانتقل إلى اليابان فدخلها سنة ١٥٤ – فإقامته بالهند كانت نحو عامين[1] .

(١) أنظر Neil فى صفحات ١٤٨ وما بعدها .

(ب) متى الكاسترو Methow de Castro :

وهو شيخ عجيب كان يتسم بشدة التعصب المذهبى بين قواد الإرسالية المسيحية وهو هندى برهمى النحلة وبلدته قزيب من « جوا » دخل المسيحية ، وأراد أن يحصل على اعتماد من أسقف « جوا » فلم ينله ، وقيل أن سبب رفضه هو أن البرتغاليين يكرهون البراهمة ، فذهب إلى روما حيث أمضى عدة أعوام فى الدراسة واعتمد داعية برتبة قسيس فى سنة ١٦٣٠م وأرسل إلى الهند ليكون مبشراً بين قومه ، ولكن هذا لم يكن ميسراً له أيضاً ، إذ أقام اليسوعيون البرتغاليون أمامه عقبات عجز عن تذليلها ، فرجع إلى روما سنة ١٦٣٦م وأبدى من الإخلاص والتوسلات ماأمكن به أن يعين أسقفاً بطريقة سرية ، وتقرر إرساله داعية فى اليابان ليعلم الهنود الذين هناك إذا قبلت اليابان ، ولكن أسقف « جوا » مرة ثانية رفض قبوله أو الاعتراف بتعيينه ، واضطر مرة أخرى أن يرجع إلى روما ليشرح موقفه للبابا بنفسه ، فأرسله إلى الحبشة ، وفى سنة ١٦٥١م عاد إلى الهند يثير العداء السافر والوعيد للبرتغاليين جميعاً ولجميع اليسوعيين الذين أخذوا بدورهم يثيرون المنفرات منه ، بل ويكيلون له الشتائم الوقحة حتى وصفوه بأنه خنزير برى ، وتوالت الشكاوى ضده إلى روما ، وكانت النتيجة أن جرد من لقبه نهائياً ، ومات سنة ١٦٧٧م ولا يزال مقدرا من رفاقه القسس منكوراً من الآخرين .

وإزاء هذا الموقف يثار التساؤل عن اختياره أسقفاً يحمل الروح المقدس ثم انتزاع اللقب والروح منه لمجرد غضبة أسقف آخر أو جماعة عليه . كأن القداسة حلة يكسى بها الشخص حينا ثم تنزع منه ، ونذكر بجانب ذلك من أوائل المسلمين سلمان الفارسى الذى كان مجوسياً أول أمره ، واعتنق المسيحية حينا ثم دخل الإسلام فكان – بعد الذى قاساه فى سبيل الإسلام – سيداً من سادات المسلمين وإماماً ، لم نحُل مجوسيته أو مسيحيته دون سيادته ، ونذكر كلا من بلال وصهيب ، وكان عمر يصف بلالا بالسيادة فيقول : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا .

(جـ) روبرت النوبيــلى (R. Nobily) :

والشخصية الثالثة التى نذكرها هى شخصية روبرن النوبيلى (R. Nobily) (١٥٧٧ — ١٦٥٦م) وهو يسوعى إيطالى ، أرسل إلى الهند فى سنة ١٦٠٥م فنزل أولاً فى فيشر كوست Fisher Coast فعمل على أن يتعلم اللغة التاملية فأجادها فى شهور قليلة ، ثم أرسل إلى مقاطعة مَادوراى Madorai حيث أنفق نحو خمسين عاماً دلت أعماله خلالها على أنه أول رائد ذى مهارة فى قدرته على نشر المسيحية بين الهنود ولكن طريقته لم تكن مرضية ، لأنها قامت على شيء من الخديعة ، رأى أن الهنود يكرهون الأوروبيين ، ويعتبرونهم مستعمرين مستغلين ، وكان فى مادوراى إرسالية برتغالية تحت رئاسة قس يدعى فرناندز البرتغالى ، وكان بغيضاً أو غير مقبول لأنه أراد الهنود أن يكونوا برتغاليين ، لا مسيحيين فقط ، وقد استجاب له بعض من المهاجرين من « فيشر كوست » ويظهر أن ذلك كان من آثار زافيير ، أما نوبيلى فاستفاد من طريقة زافيير الذى درس التاملية إلى قدر لا بأس به ، فدرسها هو درساً كافياً ساعده على درس فروع أخرى من المجموعة الدارفيدية ، والتاملية أقدمها وتمتاز بأن لها أدبا كلاسيكياً ، وأجرومية خاصة ، ولكنها تحوى كلمات كثيرة من السنسكريتية.

كان سكان جنوب الهند الذى بشر فيه فى هذا الوقت ذوى ميل إلى السماع والتلقى ، وكان الذين تحولوا إلى المسيحية ، ولم يجدوا لدى فرناندز ما يشبع رغبتهم بحاجة إلى أن يسمعوا جديداً يهتدون به ، ووجدوه فى نوبيلى ، وكذلك كان المهاجرون من فيشر كوست .

والوسيلة التى اختارها نوبيلى أو على الأصح الخديعة التى لجأ إليها هى أنه تظاهر بمظهر البراهمة ، فحرم أكل لحوم الحيوانات ، ولبس الأحذية الجلدية احتراماً للحيوانات — كما يفعل البراهمة ، ولم يطلب من الذين يدخلون المسيحية منهم أن يتخلوا عن مظاهرهم أو حتى يتركوا عباداتهم ، وقد حلق رأسه وأبقى به قنزعة فى أعلاه ، وربطها بخيط ينسدل على ظهره كما يفعلون . وفتن الناس به ، وأقبلوا عليه ليسمعوا تعاليم المسيح . وأحياناً كان يجرى على طريقة

سقراط ، فيعقد مناقشات مع الناس فى الطريق فلا يلبثون أن يلتفوا حوله ، وقد استطاع أن ينَصّر عشرة من الشبان خلال عامين من إقامته .

وأخيراً وشى به أنه برتغالى يخدع الناس ، وكان البرتغاليون والفرنسيون يُسمَّوْنَ الفرنجة ، فبدأ الناس ينفضون من حوله ويضايقونه ، ولكنه أخذ يبرىء نفسه ، وكتب تَبْرِئَته على قطعة من الخشب ثبتها على شجرة أمام بيته[1] أعلن فيها أنه من روما ومن أسرة ذات ثراء –وكان كذلك حقاً– فكان الناس يقرأون اللوحة ويناقشونه ، فيؤكد لهم أنه ليس من الفرنجة .

وقامت عليه غضبة أخرى من الكنيسة فى روما . إذ رأى رجال الكهنوت أنه حرف المسيحية ، وأدخل فيها هرطقته ، وأنه جنح إلى البرهمية أكثر مما جنح إلى المسيحية .

وعلى أى حال نوبيلى مقدَّرٌ لجهوده الكبير الذى بذله ، فهو أول فرد يدرس اللغات الهندية القديمة ، وقد أتقن التاملية والتلوجية Telugu – إلى جانب السنسكريتية ، وعلى معرفة اللغات الهندية قام مجد ماكس موللر Max Mullar – فى العصر الحديث[2] .

قطع نوبيلى نفسه للتعليم ، وابتعد نهائياً عن الكنيسة ليقنع سامعيه أنه ليس من الفرنجة وأنه معلم يدعو للإصلاح – ودارت تعاليمه ومحاوراته حول وحدانية الإله . ومصدر الخلق ، وقد اجتذب إلى المسيحية أو إلى العقيدة التى يدعو إليها جماعات من مختلف الطبقات ولكن الذين دخلوا من الطبقة الدنيا كانوا أكثر . وكل أولئك بعد هذا المجهود لم يعرفوا المسيحية على حقيقتها ، بل حصلوا على معلومات عنها ، وحيث أنه لم يقطعهم عن عبادتهم القديمة ولا عن معابدهم فمسيحيتهم ليست مسيحية ، ثم إن كل أعماله كانت عرضة للضياع حين وشى به بعض الصيادين أنه برتغالى متنكر .

---

(١) لم يكن الورق معروفاً لدى هؤلاء القوم ، وكانوا يكتبون على الأحجار وقطع الخشب والعظام كما كان يفعل العرب القدامى .

(٢) قال ماكس موللر عنه إنه أستاذه .

وفى سنة ١٦٤٥ دعته الكنيسة فى روما لتناقشه فى أعماله ، ولكنها أخيراً وافقت على طريقته إذا لم يكن لدى المتنصر نزعة وثنية ، وهو نفسه كان يجرى على هذا المبدأ . ورجع إلى الهند يواصل عمله ، ومنذ سنة ١٦١٠ كان يعانى ضعف الجسم ، وشدة الفاقة ، ومات على هذه الحال ومهما يكن من أمره فهو مثل جيد لطول المثابرة وشدة الإخلاص وبذل الجهد[1] .

٥ – فى عهـــد الحـــكم الانجـــليزى :

تسلل الإنجليز إلى الهند عن طريق « شركة الهند الشرقية » وكانت لهم أصابع فى سياستها أواخر العهد المغولى ، ثم ثبتت أقدامهم بها سنة ١٨٣٧م ، وكان الشائع المعروف –ولعل ذلك كان فى عزم الانجليز أيضاً– أن يبقوا بها بقاءهم فى الجزر البريطانية وخضعت طوائف الهند العديدة لهذه القوة الغاشمة عدا المسلمين ، فهم يرون أن الإسلام دين الناس كافة ، وأن عليهم نشره والتعريف به ، وأن لله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ، وبهذه المشاعر الإسلامية كانوا يترقبون خروج الإنجليز من الهند قريباً أو بعيداً . وكان الإنجليز يدركون آثار هذه العاطفة ويخشون ماينجم عنها من متاعب لهم ، فعملوا على إضعاف الإسلام كما عملوا على تنشيط حركة التبشير وقد تحدث كبار السادة الانجليز عن خطر الإسلام إزاء موقفهم الاستعمارى فى الهند وفى غير الهند ، وأثرت لهم عبارات تنم عن الغيظ ، وأمسك وزير الخارجية يوماً بالمصحف فى يده أمام أعضاء البرلمان ، وقال : لا بقاء لنا فى الشرق مادام هذا الكتاب يتلى بين المسلمين ، وقال أحد اللوردات فى المجلس : ليس فى وسعى أن أغمض عينى عن اليقين بأن هذا العنصر الإسلامى عدو أصيل العداوة لنا ، وأن سياستنا الحقة ينبغى أن تتجه إلى تقريب الهنديين[2] ، ونادى غير واحد من الإنجليز بوجوب التفرقة بين المسلمين والهنود فى إدارة البلاد .

---

(١) مستخلص من Neill ص ١٨٣ – ٨٧ .

(٢) الإسلام فى القرن العشرين / ٦٩ .

وظهرت هذه العزلة تدريجياً فى صور وأعمال مختلفة ، منها عدم تولية المسلمين وظائف عالية فى البلاد ومنها حرمانهم من ملكية الأراضى الزراعية ، ومنها ترك المدارس الحديثة للإرساليات التبشيرية ، وكان هذا ينتج عملين مختلفين فى وقت واحد ، إذ بينما حرم المسلمون من مناهج التعليم الحديث لأنهم لا يسمحون لأولادهم بدخول مدارس التبشير ، زادت الدعاية من هذه المدارس ، وكثر فيها الطعن على الإسلام وفقاً لما تقوم عليه مناهجها ودراساتها اللاهوتية ، وهذا فى الواقع ما جعل المسلمين يحذرون دخول هذه المدارس .

وإزاء ضيق الهنود بالاحتلال الانجليزى ، ورغبتهم فى تحرير بلادهم فشت بينهم فكرة التخلص من كل ما هو دخيل عليهم واعتبروا اللغة العربية والأوردية من اللغات الأجنبية ولكن هذه الفكرة لم تستطع الحد من اللغة الانجليزية لأنها اللغة الرسمية المستعملة فى مكاتب الحكومة وأعمالها ، وعملت الحكومة الانجليزية على تشجيع الكنائس الإنجليكانية وإن لم تقف فى سبيل الكنائس الأخرى ، ويعتبر هذا العصر بحق عصر سيادة المسيحية ونشاطها فى الهند ، ولكنه مما خيب آمال الدعاة أن عملهم كان للمهاجرين أكثر مما كان للوطنيين ، وأن دخول الهنديين فى المسيحية أقل بكثير مما توقعوا .

وكانت الكنائس البروتستانتية أيضاً ذات انتشار وسعة ، وكانت الكاثوليكية البرتغالية فى وضع إستاتيكى شديد الركود ، فظلت كنيسة روما أكثر من قرن لا تستطيع أن تتخذ لها مكاناً بين الكنائس الأخرى ، وكان بينها وبين كنيسة البرتغال مضاربة ، وبين الإرساليات جميعاً تنافر غير منقطع ، والهنود معروفون بشدة جمودهم على دياناتهم ، وقد نال البراهمة كثيراً من المحاباة والامتيازات فى العهد الانجليزى بما وضع فى أيديهم من الأراضى الزراعية بينما حرم منها المسلمون ، ومع ذلك لم يقبلوا على المسيحية .

وفى حكم الإنجليز الطويل الأمد لم تحدث وحدة كالتى حدثت فى عهد المغول ، بل عمل الإنجليز على شيوع التفرقة العنصرية وإذكاء التناحر الدينى ، ولكن اللغة الإنجليزية شملت الهند كله ومع ذلك ، ظلت الإرساليات المسيحية

تعانى الغربة وقلة الإقبال من الأهلين لأنهم اعتبروا الإرساليات أعواناً لحكومتهم المستعمرة ، وليسوا مساعدين للشعب فى شيء .

وفى سنة ١٩٤٧ قسمت الهند واستقلت باكستان دولة مسلمة ، وكانت المذابح فى هذا الوقت عنيفة ومستمرة بين الطوائف الدينية حتى أنه فى خلال مدة أقل من شهر قتل نحو ثلاثة أرباع مليون شخص ، وبينهم مسلمون ومسيحيون ، واستقدمت إرسالية لندن المسيحية أطباء وممرضات وأدوية ومساعدات اجتماعية أخرى ، ومع أنها جاءت أساساً من أجل المسيحيين كانت تقدمها للآخرين أيضاً ، فكانت هذه أول فرصة ظهرت بها المسيحية خادماً للإنسانية ، واستطاعت أن تتقرب بعض التقرب من الشعب ، وبعد أن تم التقسيم كان عدد المسيحيين فى باكستان ضئيلاً جداً ، وكان فى الهند كنائسها وبينها كنائس كاثوليكية رومانية ولكن زيادة المسيحيين ظلت نادرة .

وعندما استقلت الهند أعلنت أنها دولة لا دينية ، ولكنها لم تأمر بإغلاق المعابد فظلت فرصة الدعوة متاحة للإرساليات ، ونقل المسلمون إلى باكستان ، وبقيت قلة مِنهم لتعانى ضغطاً وضيقاً ، وكان أول رئيس للوزراء فى الهند هو « جواهر لال نهرو » ، هذا الفيلسوف الذى لا يؤمن بدين ، فأعلن فى خطبة له أن الدين لم يعمل شيئاً لبلاده غير أنه آذاها وشوه تاريخها بين بلاد العالم ، وأنه يتحتم اختفاؤه نهائياً بكل سرور . وكان أول وزير للصحة سيدة مسيحية معروفة بتعصبها وهى السيدة راج كومار Raj Kumare ولكن وضع المسيحية لم ينل تقدماً أيضاً ، وظلت الإرساليات تواصل أعمالها معتمدة على المغريات المادية ، متظاهرة بأنها تعمل بدافع الرحمة الإنسانية ولكن كان الهنود يذهبون إلى مستشفياتهم ويسمعون عظاتهم ولا ينضمون إليهم ، وأنجح ماعملت الإرساليات أنها كانت تلتقط الأطفال الذين نالت منهم الفاقة والفقر فتضمهم إلى مدارسها وملاجئها ثم تنشئهم على المسيحية .

أما باكستان فكان المسيحيون بها يمثلون نحو ١٪ أو أقل قليلاً ، وبلغ عددهم فى القطر كله ¾ مليون شخص تقريباً ، بينما هم فى الهند كلها نحو ٣٪ .

٦ - مــوقف الإســـلام :

لم يذبل الإسلام أو يقض عليه نهائياً خلال هذا العهد ، بل قام له دعاة متفرقون عملوا جهدهم على حفظه ، ورغم كل المضايقات التى واجهته اكتسب أنصاراً وزاد عدداً أكثر من المسيحية وكان هذا مما يضايق الحكام الانجليز ويدفعهم إلى خلق عقبات فى طريقه ، ولم يكن ماأصاب المسلمين هو الضغط الانجليزى أو العداء الطائفى فقط ، بل الذى منوا به أكثر – منذ زمن طويل– هو العزلة الفكرية بجانب تقدم الآخرين عقلياً بانتمائهم إلى المدارس الحديثة ، وكان التزمت وتحريم الكثير من المباحات مما ضيق آفاقهم العقلية ، وظهرت دعوة المصلح الكبير أحمد خان (١٨١٧ - ٩٨)[١] رد فعل لهذه الحالة ، فدعا المسلمين أن ينهلوا من ثقافة الغرب ، وأن يتشبعوا بالعلوم الحديثة ، وبين أن هذه الثقافة تخدم الإسلام ولا تضره ، ودعا إلى ترجمة الكتب الإنجليزية إلى الأوردية ، وأنشأ جامعة عليكرة على نظام حديث يعنى بالتربية الإسلامية والأخلاقية وحاكى فيها جهده جامعات انجلترا ، وأنشأ صحيفة تهذيب الأخلاق ، فكان عمله فى جملته تطويراً للفكر الإسلامى وتوسعة لآفاق العقلية الهندية المسلمة ، وعاصره سيد أمير على وكان له اتجاه إصلاحى آخر ، وقد ألف بالإنجليزية « تاريخ العرب » و « روح الإسلام » ولقى كل من الرجلين متاعب كثيرة لأن عملهما كان أدنى إلى الوثبة ، ولكنهما أفادا الحركة الإسلامية فائدة تقابل حركات المبشرين .

ولم يكن مسلمو الهند رغم قيود الإنجليز وسدودهم – منبتين عن حركات الإصلاح فى الشرق الأدنى ، بل استفادوا من دعوة محمد بن عبد الوهاب ، ولعلها صادفت قبولاً لديهم أكثر لما تحرمه من مظاهر الوثنية أيا كانت ، فوجدوا بها مايشجعهم أمام البوذية والوثنيات الأخرى ، واستفادوا أيضاً من الدعوة السنوسية ، لأن السنوسية مستفيدة من الوهابية ، وامتدت إليهم دعوة الشيخ محمد عبده فى مصر ، ثم قامت لهم مراكز لدرس الدين الإسلامى تختلف درجاتها فيما تدرس منه .

واشتهر فى الهند جماعة الندويين ، ومركزها هو ندوة العلماء فى لكهنو ،

---

(١) راجع ماكتبه عنه المرحوم أحمد أمين فى كتاب زعماء الإصلاح .

وفى باكستان جماعة العلماء المسلمين ، وفى كلا الإقليمين مدارس لتعليم اللغة العربية وهناك مطابع أخرجت بعض الكتب العربية والانجليزية ، ولا يدرس الدين الإسلامى فى الهند إلا فى مدارس قليلة يدرس ضمن الديانات الأخرى . وجامعات الهند كلها عدا جامعة عليكرة جامعات علمانية .

ولا تزال اللغة العربية ضعيفة قليلة الانتشار حتى فى باكستان وبنجلاديش ، وهذا طبيعى مادامت اللغة الرسمية هى الانجليزية ، ومتكلمو العربية والمسلمون قلة ، ومنذ قسمت البلاد ظلت كشمير موضع نزاع ، والمسلمون بها كثرة وبها مساجد عظيمة ذات روعة ولكن الفكرة الإسلامية لا تزال ضعيفة لضعف اللغة العربية ، وقد آذى الانجليز مسلميها كثيراً . وعملوا على تشجيع الدعوة القاديانية لأنها فى حقيقتها هدم للإسلام .

وإذا وازنا أخيراً بين نشاط المبشرين المسيحيين ونشاط المبشرين المسلمين وجدنا أن ما يبذله المسلمون ضئيل جداً ، فعقب وصول الإرسالية التى بعثت بها جمعية لندن ، وعلى رأسها المبشر الكبير كارى تتابعت إرساليات أمريكية واسكوتلاندية وهولندية ونرويجية وألمانية ... وغيرها ، عدا بعثات الكاثوليك من إيطاليا والبرتغال[١] وكلها من زمن غير قريب اهتدت لمنهج تجرى عليه الآن جميع الإرساليات فى شتى البلاد ، وهو التقاط الأطفال الفقراء ، الذين يسهل أن يجذبهم رغيف العيش فينشئونهم على طريقتهم الخاصة ، إذ يلقنونهم مبادىء المسيحية وحب المسيح وكراهة الإسلام .

والميزة الحقة للاسلام أنه انتشر أولاً فى الهند بسبب مبادئه وصفاته الإنسانية ، ثم أنه ثبت بعد ذهاب حكوماته ، وقد مر على الهند أجناس عديدون ملكوها وسيطروا عليها زمناً ثم ذابوا ولم يبق لهم أثر ، أما الإسلام فذهبت حكومته وبقيت فكرته واستمر أتباعه لا تستطيع الهند ولا مستعمروها تحديد أفكارهم أو زحزحتهم عنه ، وكما لم تتخلص أسبانيا من المسلمين إلا بطردهم من البلاد لا يتخلص المبشرون منهم إلا بتكوين جيل جديد من الفقراء الأطفال ، وصغار الدهماء الذين لا يعرفون للدين معنى ، وبوجه عام يشترون هؤلاء المعدمين برغيف الخبز .

---

(١) أنظر الغارة على العالم الإسلامى ص١٣ .

ثانيـاً : فى عهد الدولة المغولية

١ - مقدمة تاريخية عن الإسلام والمسيحية فى الدولة المنغولية :

يقتضى الحديث عن لقاء الإسلام والمسيحية فى الجانب الشرق من الدولة الإسلامية أن نلم إلمامة عابرة بتاريخ الدولة المغولية ومواقفها أزاء الديانات الكبرى هناك ، وليس هذا لمجرد إطلاع الداعية الإسلامى أو القارىء أيا كان على هذه الأحداث ، ولكنى رأيت غير واحد ممن كتبوا عن تاريخ التبشير الإسلامى والمسيحى أغضوا عن بعض المواقف التى تهم الداعية الإسلامى والتى تدل تلقائياً على قوة هذا الدين الذاتية وقدرته على الصمود بما يمتاز به من منطق ووضوح وقد تحاشى العالم الكبير بروكلمان أن يذكر الفظائع التى عملها جنكيز خان[(١)] وقال : أن حفيده هولاكو أبقى على بغداد ، وحين تحدث ستيفن نيل عن نشر المسيحية فى الهند والصين وما حول هذه الجهات تحاشى وهو مبشر مسيحى كبير - أن يذكر أى شىء من حسنات الإسلام ، وعزا إلى الملك أكبر المغولى جمود العقل وتحجر العقيدة ، ولا يتضح الحديث عن هذه الدولة إلا بذكر لمحة من تاريخها .

كانت قبائل المغول -وقد تسمى التتار[(٢)]- تنقسم إلى وحدتين من البدو والرعاة ألفت إحداهما التنقل حول الإمبراطورية الصينية غرباً ، وتقيم الثانية فى الشمال وتعتمد فى معاشها على قنص الحيوانات وصيد الأسماك إلى جانب ما لها من ماشية ، وعرف الجنس كله بالشراسة والعنف وكانت جماعاتهم تمتد من سيبريا إلى منغوليا الحالية ، وكانت ديانتهم هى الديانة الشامانية ، وهى ديانة تؤمن بوجود إله أعلى ، ولكنها لا تتجه إليه فى عبادتها ، وإنما تتجه إلى عبادة آلهة عديدة دونه ومنها آلهة الشر لأنها بعبادتهم إياها لا تنالهم بسوء وقد تنال به

---

(١) أنظر تاريخ الشعوب الإسلامية ٣٨١ وما بعدها .

(٢) ربما كان اسم التتار أسبق من إسم المغول ، إذ لم يتم هذا إلا فى القرن العاشر ، واسم المغول والمنغول جاء من سكناهم منغوليا ، وأطلق الصينيون عليهم اسم التتار -وهو اسم مذكور فى نقش أرخون العريق فى القدم (بروكلمان/ ١٣٨١ .

أعداءهم ، وشأن الديانات البدائية كانت تدين بالطوطميات وعبادة الأسلاف ، واتصل دعاة النسطورية ببعض هذه الجماعات فنصرت قبيلة كانت تسمى « الكرابت » فنبتت بينهم فكرة الديانة المسيحية بوجه ما .

ومن القبائل التى تعيش على الصيد جاء جنكيز خان (١١٥٥ – ١٢٥٧م) واسمه الأصلى تموجين ، ولكنه بسبب انتصاراته وشجاعته لقبة أحد الكهنة الشامانيين بهذا الإسم .

كان هذا الشاب بما أوتى من صفات المغامرة والشجاعة ذا قدرة على جمع الأتباع حوله . فحارب بهم فروع القبيلة الأخرى لأسباب تذرع بها ، واستطاع أن يخضع قبيلة كبيرة من المتنصرة فخلع عليه الكاهن الشامانى هذا اللقب سنة ١٢٠٦ ومن ثم كون له مملكة واختار جنداً دربهم بنفسه بلغوا عشرة آلاف من الأشداء الأقوياء ، وحارب بهم الصين عدة مرات ثم فتح بكين وفى العام التالى وجه ابنه لفتح بلاد فارس فاحتك بشاه خوارزم ، وظل الموقف بين الطرفين يتأزم مرة ويلين أخرى حتى صمم جنكيز جان على غزو الدولة الإسلامية[١] .

كانت الدولة الإسلامية تحت حكم الخليفة الناصر – آخر الخلفاء ذوى الذكاء والتدبير ، وكانت حكمته قد خانته إذ أغرى حاكم خوارزم بطغرل بك آخر السلاجقة فقضى عليه حقاً ولكنه أراد أن يستبد بالملك ويقضى على الخليفة نهائياً ، وخلفه ابنه علاء الدين محمود فصمم على إقامة خلافة علوية مكان الخلافة العباسية ، ولم يعقه عن الهجوم على الخليفة إلا برد الشتاء فتريث بجيشه إلى العام المقبل فكان هجوم المغول عليه[٢] وكان قد حدث من قبل أن تبادل الطرفان المراسلة فأرسل خوارزم شاه بعثة إلى الخان يريد بها أن يستطلع

---

(١) أنظر «المغول فى التاريخ» للدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد – جـ١/ ١١١ – ١٣٨ .

(٢) لم تكن كلمة « المغول » لقباً لقبيلة جنكيز خان ولكن الصين كانوا قد قتلوا جماعة لهم هذا الإسم فذهب لينتقم لهم ، فحملت جماعته اسمهم .

موارده ، فحور أعداء الخليفة نبأها وقالوا أن الخليفة هو الذى بعث بها إلى جنكيز خان يستنجده[١] ، وكانت الظروف كلها مهيئة لهذا الغزو .

انصب هؤلاء القوم كالسيل المتدفق بخيولهم السريعة ومهارتهم الحربية ووحشيتهم البدوية فكانوا يخربون ويحطمون كل مايقابلهم ، فاكتسحوا المراكز الإسلامية وأفسدوا نفائسها بالإتلاف والإحراق ، وداسوا المصاحف والكتب وخربوا القصور وأفسدوا حدائقها ، واتخذوا المساجد اصطبلات لخيولهم ، وقد وصف ابن الأثير هذه الحوادث وصفاً محزناً وتمنى لو أنه كان قد مات ولم يرها[٢] .

وبعد أن فرغ جنكيز خان من هذه التخريبات استراح قليلاً فى البوادى التى أخضعها ثم كان يتهيأ لغزو مملكة « التنكت » بين الصين الشمالية والجنوبية فمات قبل أن يصل إليها وكان له أولاد أربعة أكبرهم جوجى الذى كان وجهه لمحاربة خوارزم شاه محمد- ثم جغطاى ، ثم اجتاى ، ورابعهم تولوى . وطبقاً لعادتهم قسم مملكته بينهم قبل موته[٣] فآثر الابن الثالث أجتاى Ugu Tay بالجزء الشرقى من الإمبراطورية ، وأعطى ابنه الأكبر باتوين جوجى الجزء الغربى ، فسمى نفسه خان القبيلة الذهبية ، وكان يريد أن يستقل به عن أبيه لكنه مات قبله وبقى القسم لأولاده ، وملك الابن الثانى جغطاى الجزء الأوسط ، وحكم الرابع بلاد فارس ، ولكل منهم موقف من المسلمين[٤] وبعد أن استقر القوم وفرغوا من حروبهم وجدوا أنفسهم أمام مدنيات قديمة وديانات راقية ، وكان أوسعها انتشاراً هى البوذية والمسيحية والإسلام ، ولانت عريكة جنكيز وعامل رؤساء الأديان معاملة حسنة ، فأعفاهم من الضرائب

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ٣٨٤ .

(٢) راجع حوادث سنة ٦١٧هـ فى ابن الأثير وانظر النجوم الزاهرة جـ٦/ ٢٤٨ .

(٣) كانت هذه عادة شائعة فى العصر الوسيط بين ملوك الغرب ، بينما كان الفرس يعينون ولياً للعهد .

(٤) راجع The cutline of History. by S. H. Weats. V2p 573. — 81.

ومنحهم الحرية فى إقامة شعائرهم ، وطمع رؤساء هذه الديانات كل فى جذبه إلى دينه ، وكان يسمح بإقامة المناظرات بين بعضهم وبعض وبينهم وبين قسس الشامانيين ويستمع إليهم .

وتنافست الديانات الثلاث فى التقريب لهذا العاتى الجبار آملة كسبه ولكنه مات على وثنيته ، وفى عهد حفيده قوبيلاى (١٢٥٧ — ٩٤) غزت البوذية بلاد الصين ، وخلال قرنين كانت قد استقرت نهائياً وصارت ديانة الغالبية فى الجزء الشرقى من الإمبراطورية المغولية .

أما المسيحية فإن النساطرة كانوا قد نقلوها إلى تلك البلاد منذ القرن السابع ثم ارتبطوا بجنكيز خان وبعض أبنائه برابطة المصاهرة ، وكانت قبيلة القرايت Kara'its التتارية التى تعيش جنوب بحيرة بيكال قد تنصرت من قبل ، فلما غزاها جنكيز خان تزوج بنت رئيسها ، وتزوج ابنه اجتاى منها أيضاً ، وكان كيوك ابن اجتاى ذا عطف على القسس وكان رئيس وزرائه وبعض كتابه من المسيحيين ، وقد كانت الظروف المحيطة برؤساء المغول تهيىء لقبول المسيحية ونشرها بينهم وكان ملك أرمينية مسيحياً مقرباً لدى حفيدة جنكيز خان ، وكان له أصبع أو كل الأصابع فى توجيه هولاكو (١٢٥٦ — ٦٥) بحملته العنيفة التى دمر بها بغداد سنة ١٢٥٨م (٦٥٦هـ) وكانت زوجة هولاكو مسيحية نسطورية وكانت ذات سلطان على قلبه ، وبتأثيرها كان يعطف على المسيحيين . وبعثت هذه الحال فى نفوس مسيحيى أرمينيا أملاً كبيراً فى تنصير المغول ، وكان رئيس قبيلة القرايت يدعى القديس يو حنا ، وقد أحيط اسمه بكثير من المبالغات والأساطير ، وتطايرت أحاديثه إلى الأوروبيين ، وأشيع لديهم أن أمراء المغول تنصروا ، فأرسل البابا أنوسنت الرابع (Inno cent IV) وفداً من القسس إلى كيوك بن اجتاى ، كما أرسل القديس لويس وفداً أيضاً لاستحثاث الخان الأعظم على نشر المسيحية ، وكانت هذه الوفود كلها ذات آمال عريضة فى قضاء المغول على الإسلام لكنهم أصيبوا بخيبة الأمل عندما رأوا أن الذين اعتنقوا المسيحية قليلون ، وأن أمراء المغول لم يتنصروا كما كان يشاع لديهم .

مع كل هذا كانت الفرصة سانحة لأن تحرز المسيحية كسباً كبيراً وخصوصاً أن عدداً من المغول كانوا قد تزوجوا من مسيحيات ، ولهن عليهم تأثير لكن رسل المسيحية كانوا من جماعات شتى مختلفة متناحرة فنزعوا ثقة الناس منهم وفشلت إرسالياتهم ، وأفسح إخفاقها الطريق للديانتين الأخريين النوذية والإسلام ، وفوق كل ذلك كان القسس النسطوريون يتسمون بالجهل الفاضح وسوء السيرة والانغماس فى اللذات الجسدية والجشع المادى ، وهكذا خسرت المسيحية موقفها فى الجزء الشرقى من المملكة المغولية .

وأما فى الجانب الغربى فإن المسيحيين كانوا قد ابتهجوا وتفاءلوا بما أصاب المسلمين من هجمات المغول فعقدوا حلفاً مع ايلخانات[١] فارس أملوا به أن يزيلوا المسلمين من الأراضى المقدسة فى الشام ، ولكنه كان حلفاً قصير الأمد ، فإن الظاهر بيبرس السلطان المملوكى فى مصر تحالف مع رئيس القبيلة الذهبية « بركة خان » ، فحال ذلك دون المساعدة المأمولة ، ثم أن المغول الذين جاءوا إلى سوريا ساءهم مارأوا من سلوك المسيحيين فلم يروهم أهلاً للمساعدة .

وخلاصة الموقف المسيحى مع المغول أنه برغم مابذل المسيحيون من جهد واهتمام كانوا هم سبب الفشل الذى أصابهم بجهلهم بشئون دينهم وبسوء سلوكهم وانحطاط أخلاقهم . وقد ذكرنا فى حديثنا عن الغزوات الصليبية شيئاً من سوء سيرتهم وهمجيتهم ، وقد كان الظاهر بيبرس هو الذى قضى على الصليبيين وعلى هذه المؤامرة[٢] .

وسنجد فى حديثنا عن التبشير أن القرن الثالث عشر أصاب المسيحية بصدمة لم تكن تتوقعها ، وأن الإسلام فجأة ظهر وفشا بينهم .

---

(١) ايلخان تتكون من أيل بمعنى (قبيلة) وخان بمعنى رئيس أو ملك . فهى تعنى رئيس القبيلة ، وأول من تسمى بهذا الإسم هولاكو ، وانتقل بعده إلى الفرس .

(٢) راجع حديث الصليبيين فى كتاب « الإرساليات التبشيرية » .

خلافات أسرة جنكيز خان :

قدمنا أن هذا السفاح قسم مملكته بين أولاده الأربعة ، وقد أراد ابنه الأكبر جوجى أن يستقل بنصيبه وبما زاد فيه من فتوح ، وفكر أبوه فى حربه وإخضاعه بالقوة لكنه مات قبل أبيه بشهور فورثه أخوه جغطاى الذى كان مع ذكائه وفهمه طيعاً ، فساء ذلك أبناء جوجى ، كما أستاء الآخرون من تولية أجتاى على الجزء الشرقى ، وهذا أيضاً مات سنة ١٢٤١ وربما أول ١٢٤٢ فنشب بموته خلاف بين الورثة .

ومن قبل ذلك فى سنة ١٢٣٥ كان باتوا الإبن الثانى لجوجى قد كلف بحرب أوروبا الشرقية وإخضاعها للحكم المغولى ورافقه أولاد جغتاى وأوجتاى وتولوى الابن الأصغر لجنكيز ، فقاموا بحملة طويلة غزت روسيا وبولندة والمجر ... ونشب بينهم خلاف كبير ، وشق الابن الأكبر عصا الطاعة على ابن عمه باتوا ، ولما مات أبوه أراد أن يكون الخان الأعظم فاستجاب له بعض من الأسرة وأعرض الآخرون ، ثم نصب الخان الأعظم سنة ١٢٤٦ ، ومات بعد عامين ، وأراد باتوا أن يخلفه فعارضه أخوه بركة ، ونادى بتنصيب « مانكو » الابن الأكبر لتولوى خاناً أعظم ، فاستجاب القوم عدا أبناء جغتاى وأوكتاى ، ثم أذعنوا للأمر الواقع وذهبوا ليقسموا يمين الطاعة فقتلوا جميعاً لما يحوطهم من الريبة فى إخلاصهم ، وانشطرت الإمبراطورية الكبيرة شطرين وحكم أعقاب « باتوا » أوروبا الشرقية — وكانوا يسمون « القبيلة الذهبية »[1] وقام هولاكو أخو مانكو بالاستيلاء على الشرق الأدنى ، ودخل أمراء فارس فى طاعته حتى الباطنية الحشاشين فى أنوت أذعنوا له ، وكان حاكمهم إذ ذاك هو ركن الدين الذى قدم ولاءه لهولاكو لكنه لم يقبله وقتله ، وكانت خطة

---

(١) الاسم مأخوذ من الكلمة التركية « زور أوردو » بمعنى الخيمة الحمراء ، فأطلق الإسم على القبيلة التى كانت خيامها حمراء ، ولمعرفة تاريخ هذه الجماعة أنظر تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ٤٨٦ ، وانظر بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ٣٨٦ وما بعدها .

هولاكو هى أن يؤسس لنفسه دولة فى الغرب ولا يزاحم أخاه فاتجه بحملاته إلى بغداد[١] .

٢ - الهجـوم عـلى بغـداد :

خرج هولاكو من منغوليا على رأس جيش جرار يريد أن يقضى على الباطنية الحشاشين فى ألموت وعلى الخلافة فى بغداد ، وكانت حال المسلمين يرثى لها لما كان بين الشيعة والسنيين من خلافات ، وبعد أن قضى هولاكو على « الإمارات الصغيرة » التى كانت مكان إمبراطورية خوارزم شاه ، واستسلم له الحشاشون اتجه إلى بغداد ، وكانت أعماله الرهيبة من قتله النساء والأطفال وتخريبه المنازل والمدن قد بث الرعب فى نفوس الناس ، وكان الخليفة المستعصم كأسلافه ضعيفاً خائراً وكان وزيره ابن العلقمى الشيعى على عداء للسنية فلم يتورع عن الخيانة ، وقد بعث هولاكو أولاً إلى الخليفة أن يدمر أسوار بغداد ويسلمها له ، وفى يناير ١٢٥٨م (٦٥٦هـ) حاصرها وصدع سورها وأخذ أبراجها بمجانيقه ، فخرج إليه الجاثليق[٢] النسطورى وابن العلقمى لطلب الصلح فلم يقبل ، وظل يحاصر المدينة حتى سقطت فى ١٠ فبراير ، وخرج الخليفة المسكين ومعه ثلاثون من موظفيه الكبار وقضاته يطلبون تسليم المدينة سالمة ، فقتلهم جميعاً وانتهب جنوده المدينة ثم أشعلوا فيها النار ، ولكنهم أبقوا على شيء منها ولم يفعلوا بها ما فعلوا بالمدن الأخرى لأن هولاكو كان يريد أن يتخذها عاصمة له ، ولم تهدم كل المساجد ، وعندما أراد جنوده أن يعبروا نهر دجلة اتخذوا من الكتب الإسلامية جسراً عبروا عليه ، وقد ترك المداد الذى أذيب منها ماء النهر أسود ملوثاً لمدة من الزمن ، أما الجاثليق النسطورى فإنه استقبل بحفاوة كبيرة وتكريم ، ولم يكن هولاكو مسيحياً بل عاش ومات على وثنيته ، ولكن زوجته كانت مسيحية ، وكان لها تأثير عليه ، وبسببها كان رفيقاً بالمسيحيين[٣] .

---

(١) وقد قضى هولاكو على حصن ألموت وخلفاء ابن الصباح ولكن الدعوة ظهرت فى الهند وفى فارس بأسماء أخرى .

(٢) الجاثليق معربة عن الكاثوليكى بمعنى بطريق أو رئيس دينى .

(٣) قدمنا أن ملك أرمينيا المسيحى حرضه على هذا الفتح .

واتجه هولاكو إلى الشمال فهدد شمال سوريا فقتل فى حلب نحو خمسين ألفاً وحاصر دمشق ولكن القائد المملوكى بيبرس –قائد الملك قطز– تصدى لجيشه فحطمه فى عين جالوت –قرب الناصرة– سنة ١٢٦٠ ، ثم حرر منه سوريا كلها ، وبذلك انحصر المد المغولى ، وحاول هولاكو أن يتحالف مع الفرنجة ضد المماليك فلم يفلح ، ومات هو سنة ١٢٦٥ . (٦٧٣هـ)[١] وترك من ورائه امبراطورية تمتد من نهر جيحون إلى البحر الأبيض ومن قفقاسيا إلى المحيط الهندى وكان الإسلام هو الدين المحارب فيها ، واستمرت نحو قرن من الزمان ، وسيم المسلمون فيه أسوء الهوان وحوربوا فى شعائرهم الدينية فى كل جوانب الإمبراطورية ومن مختلف فروعها وليس فى مملكة هولاكو وحدها ، ففى بعض المدن كان الذى يعتنق الإسلام يعذب ويقتل ، وبعض الذين أظهروا تسامحاً دينياً لم يخفوا كراهتهم للإسلام ، حتى جنكيز خان الذى كان يطيب له أن يسمع المناظرات الدينية كان يأمر بقتل من يذبح الحيوانات على الطريقة الإسلامية ، وغلا حفيده قوبيلاى فعين جواسيس على الذين يذبحون ، وأعلن مكافآت لمن يرشد عمن يذبح حيواناً ، واشتد اضطهاده المسلمين طوال سبعة أعوام مما أدى إلى امتناع المسلمين من زيارة بلاطه وأصيبت التجارة بكساد[٢] إذ قل شراء المسلمين للحيوانات فاضطر إلى رفع هذا القانون ، وفى عهد أكيوك من حفدة أجتاى[٣] أيضاً (٦٤٧ – ٦٤٩هـ) (١٢٤٦–١٢٤٨) كان بلاطه مليئاً بالرهبان المسيحيين وكان له وزيران مسيحيان .

وهكذا عانى المسلمون طوال نصف قرن ضروباً قاسية من الهوان بينما لقى كل من الدينين الآخرين مساعدة وتشجيعاً . وعلى الأقل فى بعض الأحيان حيادا .

---

(١) جرياً على العادات المغولية دفن معه حظاياه الجميلات أحياء .

(٢) انظر الدعوة إلى الإسلام ٢٥٦

(٣) لم يعتل عرشهم من أسرة اجتاى سواه .

حرج الإسلام واستفاقته :

بدأ الإسلام فى أوائل القرن الثالث عشر المسيحى وهو محاصر يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة اختناقاً ، فمن الجانب الشرقى حاصره هؤلاء التتار وضيقوا عليه الخناق ومن الغرب كان الصليبيون يحتلون جزءاً كبيراً وهاماً من أراضيه وهم يريدون القضاء عليه ، ولكن ماكاد هذا القرن يقترب من نهايته حتى كان الإسلام سيد الموقف ، وظفر بالتفوق على خصميه جميعا .

ولا تمدنا مصادر التاريخ بالمعلومات الدقيقة عن تدرج هذا التحول وبداياته ، ولكن الذى يبدو مما جاء فيها أنَّ بعض الحكام اقتنع بدعوة الإسلام فقبله هو وقومه ، كما يبدو أن كثيرين قد أحبوا الإسلام واعتنقوه سراً ، ولم يجرأوا على إعلانه ، ثم أعلنوه أخيراً ، ولعل صمود المسلمين أمام الاضطهادات والمهانات وجه فكر الناس إلى هذا الدين . وأيضاً لابد أنه كان هناك دعاة سريون أو معروفون بالإسلام .

والذى يستحق التسجيل ونحن بإزاء الحديث عن التبشير وأباطيل المبشرين ، أن المسيحية فى هذه البلاد لم تأخذ مكانها إلا بقوة الحكام ، وأن الإسلام شق طريقه إلى قلوب الناس بالمنطق والدليل ، ولم تكن له أية قوة أو سلاح .

أول حاكم مغولى يقبل الإسلام :

إذا نحن أغضينا عن إسلام بعض الأفراد البوذيين ، فإن أول حاكم مغولى قبل الإسلام هو « بركة خان » الذى كان رئيس القبيلة الذهبية بين سنتى (١٢٥٦ و ١٢٦٧) ولا تتفق الروايات التاريخية على الطريقة التى أسلم بها[1] وهى لا تخلو من مبالغات ، فقد قيل أن كل جيشه كان مسلماً ومع كل فرد منه سجادة للصلاة ، وأنهم يقطعون أعمالهم متى حان وقت الصلاة لأدائها .

---

(١) قيل أن بعض العلماء بعث إليه برسالة فيها صفات الإسلام فأحبه ، وقيل أن بعض التجار حدثه عنه ، وقيل كان مسلماً منذ طفولته ، وكان يحفظ القرآن وهذا مستبعد جداً .

ولكن مما لا مبالغة فيه أن الجيش كان نظيفاً من المسكرات نهائياً مع ما كان شائعاً بين المغول من الشرب المسرف ، وكان بلاطه يضم عدداً من كبار العلماء المسلمين ، وكان لديه عدد كبير من كتب الدين الإسلامى ، وكان سنياً محافظاً وكان مجلسه يعمر بالمناظرات والمباحثات ، ومعظمها فى المناظرات الدينية .

وكان يعاصره الأمير أننداAnenda – حفيد قوبلاى ، وحاكم «كانسون» وكان أيضاً مسلماً ذا حماس للإسلام ، ودعا إليه جماعة من جنوده وأتباعه ولم يكرههم عليه .

أمّا فى فارس فكان أحد أبناء هولاكو –أباقان– زوجاً لابنة إمبراطور القسطنطينية وكانت ذات سلطان على قلبه ، ولكن مع ثباته على وثنيته كان بلاطه مليئاً بالقسس ، وكان على صلة بالقديس لويس الصليبى المعروف ، وعلى صلة أيضاً بملوك آخرين ، وأرسل سفراء إلى مجمع ليون عمد بعضهم هناك . وكان أخوه تيكودار مسلماً ، وهو أول الايلخانات المغول حكم سنة ١٢٦٢ – ١٢٧٤م ، وعمل على جذب التتار للإسلام واستجاب له كثيرون ، وكان يمنح المؤلفة قلوبهم من العطايا ما يستميلهم به ، وكما كان بركة على صلة بالظاهر بيبرس كان هو على صلة بقلاوون ، وبينهما رسائل متبادلة نجد فيها وصفاً لأخلاقه الإسلامية[1] .

وأعظم الايلخانات شأناً فى تشجيع الإسلام هو الأمير عازان (١٢٩٥ – ١٣٠٤) وهو سابعهم فى ترتيب الحكم . وكان أول نشأته بوذياً أحب بوذا وبنى له عدداً من المعابد ، وكان ميالاً للعلم والبحث ، وقد درس الأديان التى كانت شائعة فى عهده فهداه درسه ومناظراته رجال الأديان إلى أن الإسلام هو الدين الحق فأسلم وتحمس لهذه الديانة ودعا لها ، وشجع علماء المسلمين

(١) انظر فى صبح الأعشى ٦٥/١ ، ٢٣٧/٧ – ٢٤٢ . رسالة من الناصر قلاوون إلى السلطان أحمد القان بايان – رداً على رسالة منه يذكر أنه أسلم وأنه أول من أسلم من ملوكهم ، وفى ص٢٥٣ رسالة إلى بهادر خان آخر الملوك من بنى هولاكو .

وأسلم معه جنوده وتلاه أخوه الذى تبوأ العرش بعده وتسمى باسم محمد وبذا ساد الإسلام فى بلاد فارس المغولية(١) .

والحديث عن أعمال هذا الجيش ونشر الإسلام على يديه فى آسيا وأوربا يطول ، وفى رحلة ابن بطوطة أحاديث شائقة ومستفيضة عنه(٢) .

والذى أردناه من سرد هذه الوقائع هو أن نضع أمام بعض المبشرين المحدثين صورة تاريخية مسلماً بها عن انتشار الإسلام فى هذه البقعة النائية ، وهى تهيب بهم أن الإسلام لم ينتشر بالسيف بل انتشر رغم مقاومته من أعدائه بالسيف وبما هو أقوى من السيف .

وتاريخ المغول لا يختلف عن تاريخ السلاجقة ولا يختلف تاريخهم فى هذه الأقاليم عن تاريخهم فى الهند بدأوا أعداء للإسلام وبين أعدائه الكثيرين وانتهوا محبين له مدافعين عنه .

وفى حديثنا هذا نقدر ما كان للمماليك من أثر طيب فى إزاحة الصليبيين وصد المغول كما تقدر ما لمصر من مكانة فى حفظ الإسلام .

٣ - التبشير فى الدولة المغولية :

تاريخ التبشير والإسلام فى هذه الدولة يعكس صورة عجيبة لكلتا الديانتين ، إذ نجد قصوراً أو خموداً من جانب الدعوة الإسلامية ، يقابله نشاط متكرر لا يمل من جانب التبشير المسيحى وبعد هذا كله انتصر الإسلام وأخذ مكانه بين هؤلاء الوثنيين .

وحديثنا عن المغوليين لا ينبغى أن يقف عند الفرع الذى حكم الهند.

---

(١) اعتنق عازان المذهب السنى قبل ارتقائه العرش . وقدم للفرس خدمات كثيرة ، ولكنه كان مدمن خمر ، وظلت دولته سنية حتى خلفه أخوه «ألجاتيو خوابنده ١٣٠٩م» فتحول إلى المذهب الشيعى فشجعه وأصّله فى بلاد فارس (بروكلمان/ ٣٩٢) .

(٢) انظر جـ١ / ١٤٣ ، جـ٣ / ٤٠ - ٤٧ .

بل يجب أن يشمل القبيلة كلها وهى قد حكمت لمدة من الزمن هذا الجانب الشرق الآسيوى . فشمل شرق روسيا والصين والهند ، ورغم تفرع القبيلة وتشتت فروعها كان يربطها رابط العنصر والدم ، وكانت محاولات التبشير توجه إليها جميعاً .

أما روسيا فإنها لم تدخل فى دائرة المسيحية إلا أواخر القرن العاشر الميلادى ، ففى سنة ٩٨٨م تنصر أمير كيف Kiev — وعمد فى مدينة كاثوليكية أغريقية ، وكان هذا بداية دخول الدولة فى دائرة الكاثوليكية وبداية ربطها بالامبراطورية الرومانية[1] .

وعندما شن جنكيز خان حملاته المدمرة ، لم تكن روسيا دولة واحدة ، بل كان بها عديد من الإمارات تشبه القبائل المتفرقة ، وكان من السهل أن يقضى عليها جميعاً ، ولكنه كان متجهاً إلى البلاد التركستانية حول بحر قزوين ، ولم تكن مدته طويلة لأنه ظهر فى روسيا سنة ١٢١١م ، فخرب بها ما خرب ثم اتجه إلى الجنوب والشرق فاستولى على هذه المساحات الواسعة ومات سنة ١٢٢٧ ، فالمدة كلها لا تتجاوز ستة عشر عاما .

وفى سنة ١٢٢٢ هوجمت البلاد الروسية وجيرانها من الجنوب بجماعات (الكيوّمن Cumans) جماعة غير معروفة الأصل ، قادمون من هذا الخزان البشرى الكبير — وسط آسيا — ولم يكونوا يختلفون عن الجماعات السابقة فى طباعهم الخشنة ووحشيتهم الغاشمة ، وقال رجال الدين أنهم نقمة سلطتها السماء عليهم بسبب آثامهم ، ووصفهم أحد القسس بأنهم قوم لا تعرف لهم لغة ولا دين ولا أصل ، ولكنهم اختفوا سريعاً ، وفى سنة (١٢٣٦ — ٣٧) عادوا إلى الظهور ، وكان قائدهم فى هذا الزحف هو باتو Batu أحد حفدة جنكيز خان ، وعرف القوم باسم التتار ، وكانت أعمالهم أشد عنفاً وأكثر توسعاً ، أخذوا يغيرون على البلاد الروسية واحدة بعد الأخرى مسرفين كل

---

(١) كتبنا طرفا من تاريخ المغوليين فى روسيا ، ودولتهم التى استمرت نحو ٢٥٠ عاماً فى كتاب (الشيوعية والشيوعيون) .

الإسراف فى سفك الدماء حتى قال أحد المؤرخين لهذا العهد أنه لم تبق عين تبكى على الهلكى[1] ، وامتد هذا الغزو سريعاً إلى بولندا ودخل سيلسيا الحالية وهزم الألمان هزيمة منكرة ، ثم بعد يومين حطم الجيش الهنغارى فى موقعة قريبة من بودابست ، فباتت البلاد الأوروبية كلها فى ذعر وفزع ، وبات غرب أوروبا مفتوحاً أمام هذا الجراد المنتشر ، وبعد عام واحد كان أحد جناحيه قد وصل إلى رأس البحر الادرياتيكى بينما كان الجناح الآخر قد دخل النمسا ، مما جعل الدولة الكاثوليكية تتوقع إمحاءها بين وقت وآخر ، ولكن الأقدار تدخلت فمات إمبراطور الجماعة الكبير خان أوجداى Mgedey Ogdai ووقع الاضطراب بين الجيش الغازى حتى حارب بعضه بعضا ثم انسحب ونجت أوروبا ولم يقض على المملكة الكاثوليكية .

وتاريخ هذه الدولة مما لا حاجة لنا به هنا ، وقد كان من آثار ديانتهم الشامانية إيمانهم بأن الخير والشر إنما يأتيان من الأرواح ، وهى تخضع لشامان القبيلة أو كاهنها ، وقد وصفه الشاعر الانجليزى كوليريدج بأنه صانع الشر ، وقد كان جنكيز خان وقبيلته يؤمنون بضرورة الدين للأمة ويرون أن كل رجل دين به روح يجب أن تقدر ، وأن كل الأديان يجب أن تحترم ، وكل رجال الدين يجب أن يولوا تقدير وتبجيلا .

ويوصف ذوو خان الكبار من هذه القبيلة بأنهم كانوا ذوى استنارة عقلية تميزهم على الحكام الغربيين ، وكان للكثير منهم نساء مسيحيات إن لم يكن نجحن فى تنصيرهم فقد كان لهن أثر واضح فى جعلهم أكثر رقة وتعاطفاً مع المسيحيين ، وبهذا أمن الأوربيون جانبهم بعد الذى حدث ، ولم يبق أمامهم عدو إلا المسلمين ، إذ رأوا فيهم العقبة الوحيدة أمام انتشار المسيحية ، وكان البابوات والقسس شديدى الطمع فى إدخال الخانات المسيحية ، ولهذا تعددت السفارات بينهم ، وقد أشرنا لذلك فيما سبق ونذكر بعضا من هذه السفارات أو الإرساليات التى كان غرضها الأول هو التعاون معهم على القضاء على الإسلام .

---

(١) أنظر 20 — Neill PP 113 يريد أن الناس جميعاً فنوا – وقال ابن الأثير أنها أعظم كارثة أصابت الإنسانية .

كانت أول إرسالية بقيادة رجل من الفرنسيسكان وهو جون البلانوى الكاربينى John of Plano Carpini – كان معروفاً بحماسه ونشاطه فى نشر المسيحية وتعاليم جماعته ، قام فى أول سنة ١٢٤٦ من كيف فجال فى آسيا الوسطى ، وسمح له بذلك لأنه يحمل رسالات إلى الخان الكبير من البابا أنوسنت الرابع ، وكان هذا الخان هو جويوك Güyük ، وكان باتو حاكما على الجزء الأدنى من نهر الفلجا ، فامدّ جون وأعوانه بالخيول السريعة والمؤن ليصلوا إلى الخان بسرعة[١] ، وكانت رسائل البابا تحمل احتجاجاً على ضغط المغول وإساءتهم المسيحيين ثم شرحاً للأسس المسيحية ، وأخيراً لدعوة الخان وأتباعه إلى دخول المسيحية وعبادتهم المسيح الابن الحق لله الذى يستحق العبادة ..... إلخ[٢] .

استقبل الخان ورجاله بعثة جون بكثير من الاحترام ، وكان بمجلسه أعضاء مسيحيون ، وكان مباحاً لهم أن يمارسوا طقوسهم فى حرية مما لا يدع مجالاً لاحتجاج البابا ، وأكثر من هذا أن المسيحيين الذين فى بلاطه ذكروا لرجال البعثة أنهم يأملون أن يدخل الخان الأكبر المسيحية ، لأنه يسهل لهم أعمالهم الدينية ويمدهم بإمدادات كثيرة ، وكان أمام خيمته مصلى صغير وقومه يرتلون أناشيد دينية فى الصباح ، وأخلاقه هى أخلاق المسيحية .. ولكن الخان الكبير خيب آمالهم ، فكتب إلى البابا أنه يرفض التعميد الذى عرضه عليه ، وعلى العكس طلب منه أن يتبعه هو والأمراء الذين معه ، وطلب أن يرسل إليه بما يفيده أنهم يعبدونه هو بوصفه حاكماً منتخباً ، وأنه يترقب حضورهم ليقدموا له الطاعة والخضوع وحينئذ يعترف بهم اتباعا ..

---

(١) كتب جون وصفاً لهذه الرحلة ، وقال أنه ورفاقه بدأوا رحلتهم من الفجر وظلوا يوالون السير حتى المساء من غير أن يتناولوا طعاماً عدة أيام ، وربما وصلوا متأخرين فأرهقهم السير فناموا دون أن يطعموا وفى الصباح كان طعامهم هو طعام اليوم السابق وبدأت الرحلة فى فبراير ١٢٤٦ من كيف وعادت إليها فى يونية ١٢٤٧ .

(٢) انظر تاريخ الحروب الصليبية رانسيمان – ص٤٤٧ وما بعدها .

كانت هذه الإجابة صدمة للجميع ، ولكن البابا لم ييأس وظل يترقب فرصة أخرى .

وأرسلت بعثة ثانية بقيادة أحد الدومينكانيين ولكنها كانت أكثر فشلا من الأولى .

أما البعثة الثالثة فهى مما يستحق أن يثير السخرية والأسى ، قادها فلمش وليام الروبروكى : Flemish Wlliam of Rubruck ، وسببها أن نبأ غير حقيقى قد انتهى إلى القديس لويس ملك فرنسا ، قيل له إن الأمير سورتاك Sortack ابن باتو قد تنصر ، وأنه سيؤدى طقوس المسيحية بين قومه .

ابتهج الملك وأعد هذه الرحلة ، وكان هدفها أن تنشىء صلة مع المسيحيين فى أواسط آسيا وأن تشجعهم على مسيحيتهم ، وأن تقوم هناك إرسالية ثابتة تقاوم الإسلام أو تقضى عليه وقامت البعثة من القسطنطينية فى عام ١٢٥٣ ، فاتخذت طريقها إلى مخيمات باتو ، ثم أرسلت إلى الخان الأكبر فى منغوليا ، كما حدث لبعثة جون الكاربينى من قبل ، ولم تكن الإجابة التى تلقتها خيراً من الأولين ، وصدم وليام إذ تبين أن سورتاك ليس مسيحياً بل عارض المسيحيين فى غير موقف ونفر من أرائهم ، ولكن وليام قابل سيدة روسية كانت قد أخذت أسيرة فى منغوليا ثم تزوجت من شاب تترى وأنجبت منه فأصبحت ذات مكانة ما ، وكانت مسيحية ، وكان الكبار من رجال الدولة تزوجوا من مسيحيات ، فعرفته بجماعة مسيحيين بينهم قسس نسطوريون ، وهم يؤدون طقوساً مسيحية ولكنهم منغمسون فى رذائل السكر والعربدة .

لم يكن الخان الأكبر فى ذلك الوقت هو كويوك السابق ، ولكنه مونجكا Mongka الذى اغتصب السلطة ، وقابله وليام عدة مرات على غير طائل ، ثم عاد بخطاب ملىء بعبارات التهديد[١] فى سنة ١٢٥٥ .

---

(١) جاء فيه : إذا أنت لم تعر عقيدتنا اهتماما عندما تسمعها وتفهمها وهى عقيدة الإله الخالق قائلاً بلادنا بعيدة وجبالنا عالية وبحرنا واسع ثم أردت أن تحضر جيشاً ليحاربنا فإننا نعرف ماذا نفعل فإن الله الخالد الأبدى الذى جعل لنا الصعب سهلا والبعيد قريباً يعلم ما يصيبكم .

لم تعد السفارات الثلاث بفائدة ذات قيمة ، ولكنها صادفت الوقت الذى كان المغول يتأهبون فيه لغزو العالم الإسلامى ، فإن بغداد - كما سبق غزيت وحطمت ١٢٥٨م ، وابتهج العالم الأوروبى بهذا الموقف وذهب رجال الدين يقتبسون عبارات من العهد القديم توحى بأن الله انتقم من بغداد تلك المدينة الظالمة التى عاقت سير المسيحية بل وحولت أراضى واسعة منها إلى بلاد إسلامية .

والواقع أن هذا الموقف ليس إلا واحداً من المواقف العديدة التى تعكس الفرق البعيد بين المسيحية والإسلام ، فما كان ينبغى لرجال المسيحية أن يبدوا كل هذه البهجة أو هذه الشماتة إزاء انتصار الوثنية على دين سماوى ، ويوم أن انتصر الفرس على الروم -قبل الهجرة النبوية- حزن المسلمون وعيرهم مشركو مكة ، لأن الرومان أهل كتاب والفرس مجوس من عباد النار ، حتى بشرهم القرآن الكريم بأنهم ﴿من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين﴾[1] .

ومهما يكن من شيء ، فإن الكنيسة النسطورية أدركت حظاً من النجاح فى الشرق ، ولكن لم يكن من الممكن ربط علاقة أو إقامة وحدة بين الكنيسة الشرقية والغربية إذ كان الغرب مفككاً لا رابطة بين أبنائه . ولم يكن بين ملوك الغرب من هو متيقظ لهذه الفرصة غير ملك انجلترا إدوارد الأول ، وكان الخان الثانى فى تبريز - من بلاد فارس - قد أرسل إلى المجلس الذى عقد فى ليون سنة ١٢٧٤م بعثة لمحاولة إحياء وحدة بين الكنيستين ، فتجدد الآن أمل فى هذه الوحدة ، وأبرزت المقادير أشخاصاً وأحداثاً لم تكن متوقعة .

كان وليم الروبروكى Wlliam of Rubruck الذى سمى فيما بعد .. الربانى سوما Rabban Souma وصديق له يدعى مارك . قررا القيام برحلة إلى الأراضى المقدسة فلما كانا فقط فى بغداد مات البطريرك ، واختير مارك خليفة له باسم « ماريابالا الثالث »[2] .

(١) أول سورة الروم .

(٢) انظر Neil 124 .

وعرض للخان الثانى أن يجدد بعثته إلى الكنيسة الغربية فاختار الربانى سوما الذى وصل روما سنة ١٢٨٧ فتصادف أن مات البابا فى هذا الوقت ، ولكن الكاردينالات استقبلوا سوما بحرارة واقتنعوا بكفايته الدينية ، وحققت الرحلة شيئاً من النجاح فى ناحيتها الدينية ، أما من الناحية السياسية وإقامة وحدة بين النساطرة والكاثوليك تقضى على المسلمين فلم تتم ، ولم يكن غير إدوارد الأول من يعنى بهذا الجانب السياسى . وبذا ظل الأمل فى تحالف ضد المسلمين معلقاً .

وتتدخل الأقدار أحياناً فى الوقت المناسب فتأتى بما لا يتوقعه الناس ، وهذا ما حدث فى هذا الوقت إذ مات الخان الثانى أرجون ، وتولى منصبه ابنه نيقولا Nickolas – وهو اسم عمد به من الربانى سوما ، ولكنه فجأة أعلن أنه تخلى عن المسيحية واتخذ الإسلام ديناً ، وطبعاً تلاه أتباعه الكثيرون وفى سنة ١٢٩٤ مات الربانى سوما أيضاً فخسرت المسيحية داعية نشيطاً فى الشرق وسرعان ما تفشت بين المغوليين على طول امتدادهم فى روسيا وبلاد التركستان وفارس تعاليم وأفكار إسلامية ، وبدلاً من أن يقوم حلف بين الأتراك والكنيسة الغربية ضد الإسلام والمسلمين صار الأتراك خطراً على المسيحية وفقد الأمل فى معونة المغول جميعا .

وإزاء هذا الانقلاب الذى خيب آمال الغرب ، وإزاء التعليلات التى يذكرها مؤرخو المسيحية يبدو أمران يستحقان الذكر .

فمن وجهة نظرنا نحن المسلمين ، يبدو ما حدث فى غير موقف من مواجهة المسيحية والإسلام فى غير مكان ، مايمتاز به الإسلام من بساطة ووضوح ومنطق إزاء ما فى المسيحية من غموض وتعقيد وبعد عن المنطق السليم ، وقد شرح هذا سير توماس آرنولد –فى حديثه– عن الديانتين فى سوريا ومصر وأفريقيا– بما لا مزيد عليه[1] .

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ١٢٥ وما بعدها .

ومن وجهة نظر المؤرخ المسيحى أن هذا يرجع إلى إهمال الكنيسة الغربية ، فقد جاء فى رحلات ماركوبولو (١٢٦٦) ، أنه ومن معه أحضروا للبابا خطابا من قوبلاى خان يطلب إرسال مائة من علماء المسيحية الأتقياء ليشرحوا لعلماء بلاده صحة المسيحية وأنها وحدها الدين الخليق بالاتباع ، ولكن هذا الطلب لم ينل اهتماماً ، ومر عشرون عاماً حتى جاء البابا نيقولا الرابع فقرر فى سنة ١٢٨٩م إرسال رجلين اثنين ، فمات أحدهما فى الطريق غرقاً ، واختير يوحنا الكورفينى John of Mont Cervino لهذه الرسالة ، من جماعة الفرنسيسكان لأن له خبرة بالشرق ، فسافر بحراً حتى وصل إلى الهند ، فأمضى ثلاثة عشر شهراً ، وقابل عدداً من النسطوريين خصوصاً فى جبل القديس توما .. قريباً من مدراس ثم ذهب إلى بكين ، وكان قبلاى قد مات ، فقابل خليفته وعرض عليه الدين المسيحى ، ولكنه لم يقبله وسمح ليوحنا أن يؤسس كنيسة هناك كانت ذات أثر فى نشر المسيحية فى الصين[1] فيما بعد .

وتجددت هذه المحاولة أيضاً فى عهد الخان توقتاى ، الذى نصب خاناً للقبيلة الذهبية سنة ١٢٩٠م وكان حاكم المنطقة كلها - جنوب روسيا ووسط وشرق آسيا وكان قد تنصر على يد بعض الدعاة الفرنسيسكان سنة ١٣١١م ، بعد تنصيبه خاناً بنحو عشرين عاماً ، وعمد هو وزوجه وأبناؤه الثلاثة وعدد من كبار الرؤساء فى دولته ، ولكنه لم يعش بعد تنصره إلا عاماً واحداً ، ومات سنة ١٣١٢م فما لبث ولداه الكبيران أن أعلنا إسلامهما ، وخلفهما الخان أزبك Azbeg (١٣١٢ - ٤٠) فكان مسلماً مخلصاً فى إسلامه ، وكان أيضاً يتحلى بتسامح الإسلام فلم يبد عداء أو مضايقة للإرسالية ، وأقبل أفراد الأسرة الذهبية ومن معهم على الإسلام حتى بدت المنطقة وقد خرجت نهائياً من أيدى المسيحيين ، وانخفضت الهيئة التبشيرية إلى مجرد كنيسة .

كان هذا الموقف شاقاً أليماً على مشاعر البابوات ورؤساء الإرساليات ،

---

(١) Neil 124 .

لأنهم كانوا ذوى آمال كبيرة فى الاستعانة بخانات المغول على محو الإسلام والقضاء عليه ، فإذا الإسلام هو الذى يقضى عليهم .

وليس فى المراجع التاريخية مايوجه نحو بداية الفكرة أو الدعوة الإسلامية ، ولا كيف اهتدى هؤلاء القوم إلى الإسلام وكان المتوقع المألوف أن يكون أبناء أوقتاى على دين أبيهم ، وأن يكون رجاله وخليفته على الدين الذى اعتنقه . فمن الذى شرح لهم الإسلام واستمالهم إليه ؟ ليس للدعوة الإسلامية تاريخ مفصل فى هذه البلاد ، ولكن يبدو أن القلة القليلة التى كانت هناك من المسلمين اجتذبت إلى الإسلام بحسن سلوكها وحسن معاملاتها ، ثم طبيعة الإسلام ووضوح عقيدته.

صادف اتجاه البرتغاليين إلى الهند نمواً جديداً لقوى المغول الذين كانوا فى أفغانستان، ففى سنة ١٥٠٥م كان القائد التركمانى « بابور Babur Or Baber » من حفدة تيمور لانك – وجنكيز خان – بعد إحرازه نجاحاً فى حروبه مندفعاً إلى التوسع ، فاستولى على سمرقند ، ثم اتجه إلى أفغانستان ونصب نفسه زعيماً لمدينة كابل ، ثم أعلن غزو البنجاب متذرعاً لذلك بأن تيمور لانك كان قد غزاها ولكنه مد نفوذه إلى ما وراءها ، وكانت الهند مقسمة تغرى بالغزو ، وفى سنة ١٢٢٥م استولى على دلهى ، فترك لقبه « سلطان » كابل ليتسمى باسم « امبراطور هندوستان » ، وجاء فى مذكراته أن الهند تختلف عن أفغانستان ومدح أراضيها – ومات سنة ١٥٣٠م وظلت فتوحات المغول بعده تتوالى على مدى ربع قرن[١] .

ومن أشهر حفدته الملك أكبر (١٥٥٦ – ١٦٠٥م) .

وبوجه عام حكم المغول الهند نحو ستة قرون شمل البلاد خلالها وحدة وسادت فيها حضارة متنوعة المظاهر ، واكتسبت عظمة وقوة ولم يتشرق عليها إلى الآن فجر حضارة تضارع ماكان فى هذا العهد[٢] وانتهى عهد المغول

(١) Wells P 576 .

(٢) Ibid P & Neil P 151 — 3 .

كما ذكرنا قبل ١٨٥٨ ، وتجلى فى عهدهم التسامح الدينى فى وضوح لا لبس فيه ولم يكن الأمر كذلك فى عهد الانجليز .

كان الملك أكبر عظيماً فى مختلف تصرفاته ، وكان يتصف بالذكاء والعلم ، وله ولع بالاطلاع على الأديان والمذاهب ، وكان سنى المذهب ولم يعارض الشيعة فى مملكته بشىء ، ونبت فى ذهنه أن يتعرف على المسيحية ، فبعث برسالة إلى كنيسة « جوا » يدعو بعض الآباء اليسوعيين إليه ليتعرف منهم على المسيحية ، وابتهج القوم بهذه الدعوة وأرسلوا إلى رئيس الجماعة فى أوروبا يخبرونه فشملت الفرحة الأوروبيين وطمعوا فى دخول أكبر وحاشيته ثم الهند كلها فى المسيحية .

فكونوا بعثة جعلوا على رأسها الآب رودولف أكوافيفا Rudolf Aquaviva فوصل بلاط أكبر سنة ١٥٨٠م واستقبل الملك الوفد استقبالاً حسناً ، وجمع له عدداً من رجال الدين لعقد مناظرة ، واحتشد لسماع المناظرة جمهور كبير من رجل الشارع إلى أستاذ الجامعة ومن رجال القصور وحريم الملك إلى السوقة الذين يرغبون فى حضور هذا الحفل . وترقب الجميع مايقول المدعوون ومايقول الملك . أما اليسوعيون فقد أملوا أن يصلوا فى جنوب القارة إلى مالم يصل إليه الفرنسيسكان فى شمالها . وأبدى أكبر غاية التسامح إذ كان فى الحفل الذى أقامه نار القرابين الهندية ونار المجوس وصلبان المسيحيين وصلوات المسلمين ، وشرح اليسوعيين مذهبهم ، ولم يتأثر به أحد ولم يدخل أحد المسيحية ، ولكن الإرسالية ظلت تتمتع بعطف الملك ، وظل اليسوعيون بعد ذلك على صلة بالملك أكبر وأتباعه ، ولا يستريح المبشرون المحدثون إلى تصرفات هذا الملك برغم كل هذا التسامح ويتهمه استيفن نيل بضيق العقل والتفكير[١] ذلك أنه حين شرح المرسلون أصول ديانتهم ، اعترض عليها وأخذ يوجه أسئلة تتعلق بطبيعة المسيح ، وبعقيدة الصلب والفداء ، ولم يجد لديهم إجابة مقنعة ،

---

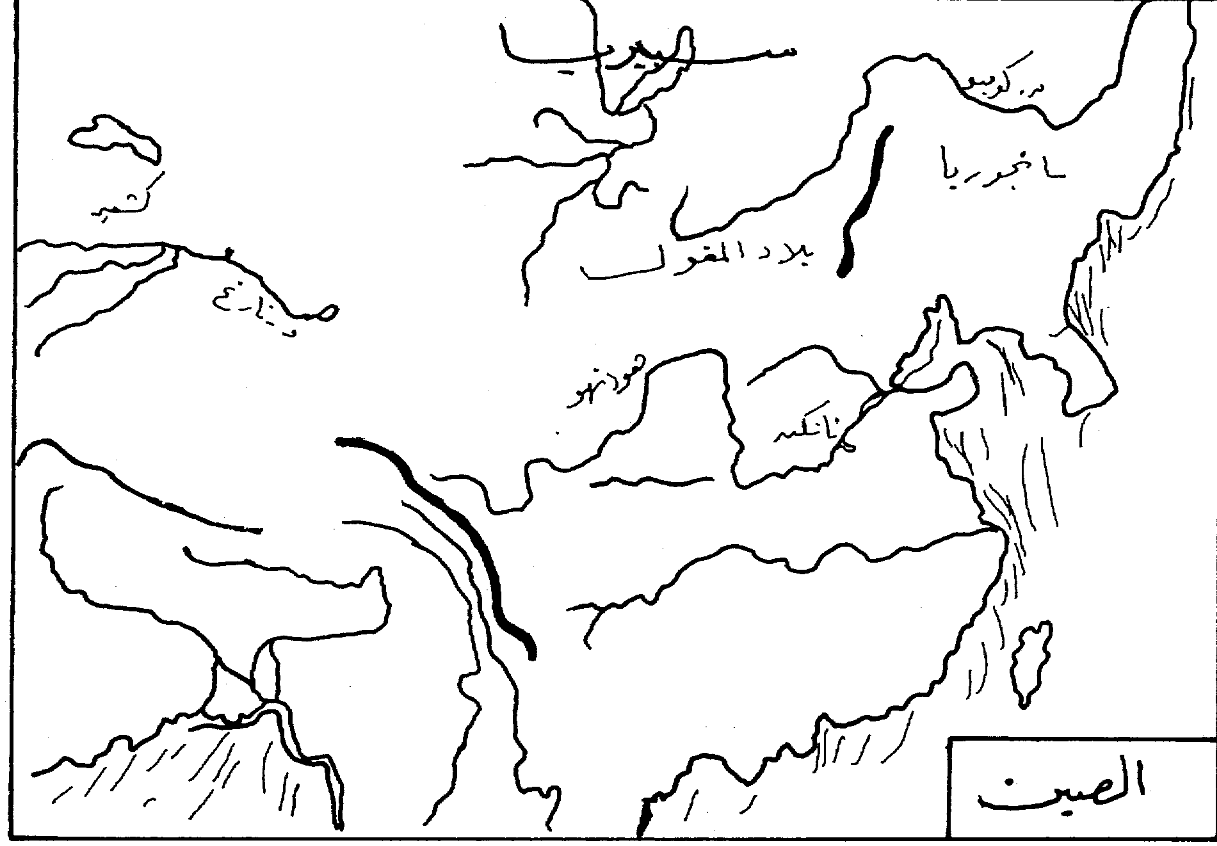
(١) أنظر A. History of Christion Missions .

وظل فى نقاشه واعتراضه حتى وجد الوفد نفسه فى حرج فانفض ، ولم تقم مناظرة بينه وبين ذوى الديانات الأخرى ، وكان الحادث ذا أثر كبير على سير التبشير المسيحى ، والكتاب المحدثون يرون أنه فلسفة لم يستطع أكبر أن يفهمها ، وأكبر كان ذا ثقافة وعلم ، ومهما يكن من شأنه فلم يكن أقل علماً ممن استجابوا للسيد المسيح ولا أضعف تفكيراً . ويكفى للدلالة على سعة عقله هذا التسامح الكبير ومنح الديانات الأخرى حرية كافية ، وفى ظل هذا التسامح طمح زافيير إلى إدخال المسيحية اليابان ، وقام ببعثة إليها .

للمعلومات التاريخيـــة :

هولاكو حفيد لجنكيز خان من قبل بناته . وهو أول من تسمى الخان الأكبر سنة ١٣٦٩م ، وكانت سمرقند عاصمته ، ولكنه كان رحالا وحشى العادات – أسس إمبراطورية تمتد من شمال الهند حتى الشام ، وأحدث تخريبات واسعة ، وأخذ الجزية من مصر ، وخرب البنجاب واستولى على دلهى وأحدث بها مذبحة رهيبة ومات سنة ١٤٠٥ – أما تيمور لنك فجاء بعده بنحو ٥٠٠ سنة[١] .

(١) أنظر : The outline of History. by H. g. Wells.



سيبيريا
بلاد المغول
الصين

ثالثاً : فى الصين

الصين كما هو معروف بلاد واسعة تمتد على ساحل المحيط الهادى ، وفى العرف القديم كانت تشمل الهند الصينية ، وهى بلاد ذات حضارة قديمة لا تزال أساطيرها تروى ، وكان بها ألوان من الوثنية منها الطوطميات وعبادة الأسلاف ، وأوسع دياناتها انتشاراً هى الكونفوشية - ديانة كونفوشيوس - ثم دخلتها البوذية فزاحمت سابقتها ، ثم دخلها الإسلام ولم تسبقه المسيحية إليها إلا أن يكون ثم أفراد من الوافدين الذين لا تأثير كبيراً لهم . ولم يظهر نشاط التبشير إلا فى وقت متأخر ، وليس من موضوعنا أن نتحدث إلا عن الديانتين السمويتين المسيحية والإسلام .

١ - لمحة تاريخية :

يمتاز تاريخ الصين بالمحافظة والجمود ، فهو نمط واحد وتيار مستمر لم يتغير طابعه ومظهره إلا فى العصر الحديث فى القرن التاسع عشر فقط ، ولم تدخل الصين فى تيار السياسة العالمية إلا بعد الحرب العالمية الثانية .

وفى تاريخها القديم كانت تقوم على حكمها أسر متتالية يطول عهد الواحدة منها أو يقصر ولكنها فى جملتها تجرى على نسق واحد فى حكمها ، وقد حكمتها أسر من داخلها كما حكمتها أسر من خارجها وفى كل عهودها كانت تقوم فيها الثورات ، وكان للفلاحين بها أكبر الآثار فى تولية أسرة وتنحية أخرى لأنها بلاد زراعية وبها مساحات واسعة للمراعى وتربية الماشية وهذه يقوم عليها الفلاحون أيضاً ، فكان بأيديهم جانب هام من ثروة البلاد واقتصاديتها ، وآخر أسرة تولت الحكم بها هى أسرة المانشو التى انتهى عهدها سنة ١٩١٢م . وكل الأسر التى سبقتها من عهد السادة الخمسة إلى هذه الأسرة تبلغ عشرين أسرة ، والصينيون جميعاً من أصل مغولى ، وبعض حكامهم من الصين وبعضهم من المغول الذين جاءوا من الشمال ، ولم تكن الصين دولة واحدة ، بل كانت

دولاً ، وكانت الصين الجنوبية تقوم بالحروب وتدبير الثورات ضد حكومات الشمال ، وربما حدث العكس ، ولكنهم فى هذه العزلة كان بأسهم بينهم ، ولا صلة لهم بما وراء حدودهم إلا بقدر ماتقتضى المصالح العارضة .

وكانت أسرة شو -وهى الأسرة الرابعة فى القرن الثالث عشر ق.م (١٢٥٥ - ١١٢٢) -هى الأسرة الوحيدة التى حكمت الصين كلها[1] وتلتها أسرة شين ، وهى جديرة بالذكر لأن عاهلها الأول أراد أن يحصن بلاده ، من الأعداء فبنى حول البلاد صور الصين الشهير الذى يعد من عجائب التاريخ وكانت أسرة متعصبة عملت على محو آثار سابقتها حتى أنها أحرقت الكتب ، فجنت على البلاد جناية فكرية وتاريخية .

ومن الأسر التى لا يهمل ذكرها أسرة -تاى تسنج- Tai - Tsung التى يبدأ عهدها بسنة ٦٢٧م وقد تسمى أسرة تسنج وقد مدت حدود الصين فى عهدها وشملت الصين الجنوبية ثم كمبوديا ، وكان بنو الصين الشمالية يعتزون بالانتساب إليها فيقولون نحن أبناء تاى- كما يقول الجنوبيون وانهم أبناء هُنْ Hun ومآثر هذه الأسرة كبيرة . والذى يعنينا مما حدث فى عهدها هو الأحداث الدينية .

ففى سنة ٦٢٨م -أى فى عهد النبى محمد -ﷺ- نفسه وصلت سفن تجارية إليها من ينبع -(وكانت السفن التجارية تأتى من قبل)- وقدم رجال هذه السفن إلى العاهل الصينى أول ملك فى هذه الأسرة -مبادىء الإسلام ودعوه إلى قبوله . ويتوقع ويلز H. G. Wells[3] أنها رسالة من النبى محمد -ﷺ- كتلك الرسائل التى بعث بها إلى هرقل والمقوقس وكسرى وغيرهم فى هذا العام . والواقع أننا لانجد فى المصادر الإسلامية شيئاً عن هذه الرسالة -وإذا صحت فقد تكون عملاً خاصاً من هؤلاء التجار ، ويقول ويلز أن

---

(١) سن ياتسن (عباس العقاد ص١٢) .
(٢) Wells 464 .
(٣) المصدر السابق .

الملك الصينى لم يهمل الرسالة كما فعل هرقل ، ولم يهن الرسالة كما فعل كسرى ، بل أكرم القوم وساعدهم على بناء مسجد للتجار المسلمين فى - كانتون - فيما ذكر - وهذا المسجد لا يزال قائماً وهو أقدم مسجد فى شرق آسيا - وليس فى العالم كله - كما يقول ويلز ، وهو يضيف أن الملك أولى رسالتهم ودينهم الذى رشحوه له اهتماماً .

وبعد ذلك بسبعة أعوام ٦٣٥م وصل إلى الملك نفسه سفير من بيزنطة وبعثة نسطورية من بلاد فارس لدعوته إلى قبول المسيحية ، وقد استقبلهم الملك بتجلة واهتمام أيضاً واستمع إليهم ليشرحوا مبادئهم الدينية ، وأمر أن تترجم قصصهم الدينية إلى اللغة الصينية كى يدرسها ويتفهمها على مهل ، وبعد ثلاثة أعوام سنة ٦٣٨م أعلن أنه وجد الدين الجديد المقنع وأباح التبشير به فى أنحاء الجمهورية كلها ، كما سمح ببناء الكنائس والأديرة وكشف فى العصر الحديث عن حجر مكتوب عليه .. التذكار النسطورى وعليه تاريخ ٧٨١م . فهذه إذن بداية التبشير المسيحى فى الصين . وبداية أخذ الدولة بالمسيحية ونمضى قليلاً مع اللمحات التاريخية ، فنذكر أنه مع الذبذبات الكثيرة التى حدثت فى هذه البلاد . مع اتصالها مرة وانفصالها أخرى ، ومع حكومات وطنية وأخرى وافدة كانت آخر حكومة وطنية هى أسرة منج فى بكين من سنة ١٣٦٨ - ١٦٤٤[1] وتلتها أسرة المانشو الأجنبية التى حكمت من سنة ١٦٤٤ حتى ١٩١٢م حيث قامت الجمهورية .

ومن المعروف فى تاريخ الصين حتى العهد الحديث أن العقائد الدينية تلعب دوراً هاماً فى تاريخها السياسى ، ربما أكبر من دور الشعور الوطنى ، وكان ذوو المشاعر الوطنية يستثيرون الناس ببواعث الدين .

من ذلك أن أسرة يوان التى سبقت حكومة مينج كانت أسرة مغولية من أرض الشمال ، ولم يكن الجنوبيون راضين عنها فتكونت جماعة سرية لحربها

---

(١) هذا ماذكره ويلز فى غير موضع ، وفى كتاب سن ياتسن أنها بدأت سنة ١٤٠٣م .

-كانت تسمى- « جماعة البشنين الأبيض » ولكنها التحفت ثوباً دينياً ، وكانت على الديانة البوذية ، وأعلن زعيمها أنه تلقى وحياً بأن بوذا عائد بنفسه إلى الدنيا ليقتلع جذور الأجنبى الغاصب[١] .

ولما جاءت دولة المانشو كان من أعمالها أنه مع ما استفادته من كتب الجنوبيين وثقافتهم لم تولهم أى احترام ، بل حرمت على أبناء الشمال أن يتزوجوا من بناتهم أو يزوجوهم من بناتهم وفرضت عليهم إرسال ضفائر شعرهم من خلفهم كما يفعل المغوليون فظلت هذه عادة متبعة طوال ما حكمت هذه الأسرة ، ولما قامت الجمهورية تركت هذه العادة ولكنها زالت الآن نهائياً .

ولكراهة الجنوبيين هذه الأسرة قامت جماعة البشنين الأبيض من جديد واتخذت لها سناداً من الدين ، وكانت المسيحية قد ظهرت فى البلاد منذ وفود الإرسالية النسطورية فاتخذ زعيم الجماعة الجديد -هونج- صبغة مسيحية جديدة ، وقال أنه أخو المسيح وأعلن تعاليم كثيرة صالحة منها أنه حرم الأفيون وكان شائعاً جداً فى الصين -كما حرم الخمر وجعل عقوبة الزنا هى الموت ، وعرفت دعوته باسم « مملكة السلام السماوية » -ولكن هذه الدعوة لم ترج- فقد نفر منها الصينيون لأنها عابت ديانتهم وعاداتهم ، وعاداها المسيحيون الغربيون واعتبروها هرطقة ، ثم ساعدت انجلترا وأمريكا حكومة البلاد ضد هذه الثورة وقضت عليها .. وكانت هذه فى الواقع نكسة فى حضارة البلاد وفى تفكيرها[٢] .

ودخلت المسيحية البلاد أربع مرات : من النسطوريين فى القرن السادس ، ومن الفرنسيسكان فى القرن الثالث عشر ثم مع الإنجيليين فى القرن التاسع عشر ، وكان المبشر الكبير مانيو ريتشى قد اتخذ لنشر المسيحية طريقة

---

(١) سن باتسن ص١٣ .

(٢) لم تكن الصين موطن الأفيون ، ولكن الانجليز جلبوه إليها من الهند ، ووجدوا فى تجارته ربحاً كثيراً ، ومن أجل هذا الربح عادت مملكة السماء ، وألبت عليها الآخرين .

حكيمة ناجحة إذ اتخذ مظهراً صينياً فى كل شيء من الملابس والعادات حتى تسمى باسم صينى هو .. « لى هى ثاى » – وحذق اللغة الصينية وترجم إليها العلوم الكثيرة من الجغرافيا والفلك والرياضيات ، وأباح لهم الطوطميات التى درجوا عليها ، ولم يقل أنه مسيحى ولا مبشر ولكنه غذى عقولهم بالفكر المسيحى ، فتبعه الكثيرون ، حتى قدم الدومينكان أواخر القرن السابع عشر فأنكروا هذه الطريقة ونشب الخلاف بين الجماعتين وأرسلت الكنيسة رسلا لإصلاح الموقف ، ولكن الإمبراطور – ابن السماء – غضب عليهم جميعاً ، ولم تندثر طريقة ريتشى ولم تبق على ما قام به ، فإن الذين جاءوا بعده عملوا على الاندماج بالصينيين وتبنى عاداتهم وتعلم لغتهم فنجحوا أيضاً .

٢ – الإســـلام فى الصـــين[1] :

رأينا من قبل أن صلات تجارية حدثت بين الصين والعرب ، والمعرف الشائع أن بضائع الصين كانت تأتى إلى جزيرة سيلان ، وأن تجار العرب كانوا يذهبون إليها وأنها كانت مركز تلاق للتجار من هنا ومن هناك ، وهذا لا ينافى عزلة الصين ، وقد أثار ويلز حول هذه العزلة تساؤلات – ونقولا مطولة .

جاء فيما نقله أن نقشاً قديماً من نقوش البوشمان مرسوماً على صخرة يفهم أن سفن الصيد الصينية التجارية وصلت إلى جنوب أفريقية فى تاريخ غير معلوم ، ونقل أيضاً أن هناك نقوشاً أخرى صينية وجدت فى نيوزيلاند وفى

---

(١) عن هذا الموضوع تجد تفصيلات واسعة فى أمهات التاريخ العربية ، وعلى الأخص الطبرى وابن الأثير واليعقوبى . وفى الكتابات الحديثة : الدعوة إلى الإسلام والإسلام فى القرن العشرين وفى الكتابات الانجليزية كراسة جب .

Bulleten of the school of Oriental studies by. H.A.R.Gibbe

وموسوعة برومهول : الإسلام فى الصين — Broomhol: Islam in China

ومن كتب التبشير : كتاب استيفن نيل الذى نرجع إليه فى أكثر أحاديثنا .

– وانظر أوروبا العصور الوسطى للدكتور الباز والآخر للدكتور سعيد عاشور والفصل الأول والثانى من كتاب تسن ياتسن للعقاد .

نيوكاليفورنيا إلى جهات أخرى نائية جداً[1] والذى يعنينا فقط هو صلتهم بالعرب ، ومن المعروف أيضاً أن قوافل التجارة البرية تمر ببلادالعرب إلى الهند والصين ، وبها يحدث تعرف أو صلات . وفى القرن السابع الميلادى كانت مدينة سيراف – على الخليج الفارسى مركزاً هاماً للتجارة ، كانت بها بضائع هندية وصينية ، وكان تجار العرب يذهبون إليها وإذا لم تكن قصة الرسالة التى بعث بها النبى إلى الملك الصينى صحيحة فهى تدل على اتصال وتعارف .

٣ – الفتـــوحات الإســـلامية :

فى بداية الفتوحات الإسلامية عندما اجتازت جيوش المسلمين حدود الدولتين الكبيرتين فارس والروم ارتاع كل من كسرى وقيصر ، واستعان كل منهما بملك الصين ، وكانت الأسرة الحاكمة إذ ذاك هى أسرة تانج التى امتد حكمها نحو ثلاثة قرون (٦١٨ – ٩٠٧م) – وقد بالغ كل من العاهلين فى وصف قوى المسلمين وأخطارهم أملاً فى استفزاز العاهل الصينى لحربهم فجاء تهويلهما بعكس ماأراداه إذ رأى الحاكم الصينى أن من الحكمة أن يتجنب الاشتباك مع قوم لهم كل هذا البأس ، وأن ينشىء معهم صلات ودية .

وكان هذا فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وكان الجيش الإسلامى منذ عهد أبى بكر قد دخل العراق وانتهى إلى الحيرة ، وفى عهد عمر دخل البلاد الفارسية واستولى على مدائن كسرى وإيوانه ، ومات يزدجرد الثالث آخر ملوك الساسانيين فى عهد عثمان ، وأقيم ابنه فيروز مقامه ، وكان فى موقف ضعيف مهدد ، وتملكه الذعر من حرب المسلمين فلجأ إلى ملك الصين فلم يجد لديه حماية وعونا .

وكانت جيوش المسلمين من الجانب الآخر قد أجلت الروم من سوريا وفتحت مصر ، وظلت تناوش – الإمبراطورية الرومانية فى غير ميدان ، حتى

(١) Wells P. 465 .

جزر البحر الأبيض استولت على بعضها كليا وعلى بعضها جزئياً ، فخطر لعاهل الروم ما خطر لعاهل الفرس ، فأرسلا الرسائل التى ذكرنا ورأى ملك الصين أن يبدأ هو بإرسال وفد للخليفة للتفاوض فى علاقات الدولتين ، فأحسن الخليفة استقباله وفى عودته أرسل معه بعض قواده ، ليروا الصين وربما ليختبروا حالها ، وسر الملك بالوفد الإسلامى .

وأكرم بدوره وفادته ، وربما كان الغرض من كل من الرحلتين أن تستطلع كل دولة حال الدولة الأخرى ، لكننا لا نعرف شيئاً عن التقارير التى كتبت أو ذكرت ، هذه الأوصاف .

وفى العصر الأموى تاخم الغزاة المسلمون حدود الصين ، وأثارت انتصاراتهم طموح الحجاج بن يوسف الثقفى إلى فتح الصين فأخذ يغرى الشابين المظفرين – محمد بن القاسم – ابن أخيه – وقتيبة بن مسلم بغزوها على أن تكون حكومتها لمن يفتحها ، ولكن ذلك لم يتم ، – وكان بين قتيبة وملك الصين مفاوضات لم تؤد إلى فتح الصين[١] ثم مات الوليد وقتل قتيبة ومحمد ابن القاسم فى تاريخ معروف .

---

(١) تذكر الروايات التاريخية أن ملك الصين طلب من قتيبة بن مسلم أن يبعث إليه ببعض رجاله فأرسل إليه وفداً اختاره وجعل عليه هبيرة بن مشمرج الكلابى ، فقابلوا الملك ثلاثة أيام كل يوم فى زى ، وفى اليوم الثالث كانوا مسلحين ، وقالوا جئنا فى أول يوم مطيبين فى غلائل بيضاء – وهذا ما نلبسه فى بيوتنا وبين أهلينا ، وجئنا فى اليوم الثانى فى الوشى وعمائم الخز ، وهذا ما نلبسه فى مجالس أمرائنا ، وجئنا اليوم فى الملابس التى نقابل بها أعداءنا ثم قالوا له أن أميرنا قد أقسم ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم وتعطوه الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وعرضوا عليه عروض المسلمين الثلاثة الإسلام أو الجزية أو الحرب ، واحتال الملك حيلة ذكية تهون من ذله وخوفه ، وقال نبعث إليه بتراب من أرضنا يطؤه ، وبعض أبنائنا يختمهم ، ونعطيه الجزية التى يريد – والختم عادة قديمة فى العرب ، وتعنى وضع علامة قد تكون كياً يبقى على جسم الأسير الذى يطلق فتنم عن ذلته وعن الذى ختمه عليه وقبل هبيرة ما عرضه الملك ورجع بهدايا ثمينة إلى قتيبة ، – وكان الملك إذ ذاك هو سوانج تسنج Suen Tsung الذى عاصر الوليد وسليمان وهشاماً ، وكان قد علم بحدوث اضطرابات فى الدولة فجرد حملة لزحزحة قتيبة عن حدود بلاده وأظهر فى أول أمره تكبراً على وفد المسلمين وطلب ما كان يطلبه من كل الوفود أن ينحنوا راكعين أمامه فأبى الوفد الإسلامى أن يفعل ، وواجههم بالتهديد والإنذار ، ثم كان انتقام سليمان=

وفى عهد هشام بن عبد الملك تجددت صلة الصين بالمسلمين بطريقة ودية وأرسل هشام وفداً آخر إلى ملك الصين .

وفى سنة ٧٥١م كانت هناك معركة كبيرة على نهر طليس فى بلاد التركستان ، قضى فيها المسلمون على أكفأ قائد حربى لأسرة تانج ، وعادوا منها بآلاف من الأسرى ، وبذا وقفوا زحف الصين فى أواسط آسيا ولكنهم لم يروا أن يتوغلوا فى الشرق الأوسط[١] .

وفى سنة (٧٥٦م) (١٣٣هـ) نحى ملك الصين الذى فاوض هشاما عن عرشه وتولى مكانه ابنه سوتسونج Su Tsung ، وكان الثوار قد انتزعوا من أبيه عاصمتيه (سنيفو – وهوننعو) ، فرأى أن يستعين بالخليفة العباسى المنصور ، فأمده بجيش أعاد إليه ما فقد وثبت عرشه ولكن هذا الجيش لم يعد بل بقى بالصين ، وتناسل هناك ، وتذكر الروايات لعدم عودتهم أقاصيص يبدو أنها من نسج الخيال[٢] لكن الحادث نفسه مما لا مراء فيه ، وبقى المسلمون فى بلاد الصين قلة متماسكة ذات بأس مرهوب حتى جاء العصر المغولى فكثر عددهم . وكان هؤلاء السابقون قد نزلوا بجوار قبيلة تدعى هوى شوى ، فقبلت الإسلام واندمجت بهم فصاروا يسمون هوى هوى Hui Hui .

٤ – آثار المسلمين الأوائل :

عندما دخل المسلمون بلاد السند والتركستان المجاورة للصين وجدوا تماثيل بوذا ، ووجدوا الناس يسجدون لها ويتهيبونها ، ويعتقدون أن من يمسها بسوء تعاجله النقمة وينزل به عقاب لا يستطيع دفعه ، لكن المسلمين حطموا هذه الأوثان

= من القائدين الكبيرين لموالاتهما لأخيه الوليد ، كتنكيله بموسى بن نصير مما أطفأ حمية الجيش المحارب ووقف سير الفتح الإسلامى فى الشرق والغرب راجع الطبرى جـ ٨/ ١٠٠ وما بعدها .

(١) تاريخ أوروبا العصور الوسطى (د . الباز العرينى ص٢١٣) .

(٢) قيل أنهم عادوا فردهم المسلمون لأنهم أكلوا لحم الخنزير ، وقيل عيروا بأكله هناك فخافوا شناعة هذه التهمة وبقوا ، وقيل أن الملك هو الذى استبقاهم للاحتماء بهم وهذا أقرب إلى التعقل .

فى غير مهابة ، وعجب الناس أنها لم تنلهم بسوء ، – وكان هذا مما زعزع عقائد الوثنيين . وعندا وصلوا إلى ممالك أنام Annam وكمبوديا Cambodia ومدينا والبلاد الأخرى التى حولها وكلها تتصل بالهند وتجاور الصين – فعلوا مثل ذلك وأثاروا دهشة الناس أيضاً ، وامتازت عاداتهم بالنظافة وطيب الخلق وحسن المعاملة ، وكان الجانب البارز فى دينهم هو إخلاص العبادة لله وأن معابدهم تخلو من التماثيل والصور ، وأنهم لا يشربون خمرا ولا يأكلون لحم الخنزير ، وبدا تفوقهم الفنى فى عماراتهم أو بيوتهم التى بنوها ، وقد أذن لهم الملك مضطراً أن يقيموا فى « كنتن » فاختاروا لهم أميراً وبنوا أبنية تختلف عما ألف الصينيون ، وبدا لهم شىء من القوة ولكنهم كانوا مسالمين لا يعنيهم أكثر من حماية أنفسهم ، وعندما أراد أحد الحكام إخراجهم ثاروا به حتى اضطر إلى مسالمتهم[١] .

وكانت أسرة (تانج) تمنح المسلمين الذين أوفدهم المنصور وأقاموا فى « سيانغ » معونة سنوية سخية قيل أنها تبلغ ٥٠٠,٠٠٠ خمسمائة ألف أوقية من الفضة ، وذلك جزاء ماقدموا للملك من معونة . ولم يبق المسلمون محصورين فى حيز محدود ، وعدد معين بل اندمجوا بمن جاوروهم وأحسن كل إلى الآخر فنما عددهم ، وانساح بعض تجارهم إلى داخل البلاد ، ونزح آخرون مع القبائل الرحل ، كما وفد تجار آخرون بطريق البحر والبر فكانت أقاليم الصين على طول امتدادها تعرف شيئاً عن الإسلام ويوجد بها بعض المسلمين ، وأطلقت عليهم أسماء عديدة بحسب القبائل التى خالطوها . فسموا فى بعض الأماكن بالتنجان ومعناها المتجولون إلى الدين الجديد ، وأطلق عليهم فى أماكن أخرى اسم الترك نسبة لقبائل التركستان التى جاءوا منها ، وفى جهة ثالثة يسمون بالنبشاى ، وكل هؤلاء من أجناس غير عربية – صينية وغير صينية – آثرت الإسلام وهيأت له استقراراً وتكاثراً بوجه ما ، ولكن المسلمين ظلوا

---

(١) أراد حاكم كنتل إجلاءهم فأحدثوا ثورة كادت تذهب به . ثم أذن لهم الملك بالإقامة فأقاموا فى مدن متعددة وخصصت لهم دور وأراض استقروا بها وانضم إليهم من تأثروا بهم وتزاوجوا فكثروا .

قلة فى هذه البلاد التى يكون سكانها ربع العالم ، وتكثر فيها الديانات والأجناس واللغات .

أساطير حول بداية الإسلام فى الصين :

يحاط دخول الإسلام الصين بأساطير ومبالغات كثيرة ، ويخيل إلينا أنها من صنع المسلمين أنفسهم أرادوا بها أن يحيطوا تاريخهم بهالة من القداسة ، وأن يربطوه بنبى الإسلام أو أقاربه الأدنين . فقد كان فى كنتن قبر يعظم لأنه قبر أحد أخوال النبى قيل أنه أول من بشر بالإسلام هناك ، وهى أسطورة أوضح من أن تناقش ، وادعت عشائر الجام فى كامبوديا أن أحد أعمام النبى هو الذى نقل الإسلام إليهم ، وقال أهل خستان أن الإسلام نقل إليهم بواسطة جعفر ابن أبى طالب[1] ، هذا إلى أساطير أخرى لا نرى ما يدعو لعرضها ومما هو مؤكد وطبيعى أن دعاية هؤلاء المسلمين لدينهم كانت ضئيلة أو منعدمة ، وأن اللغة كانت حائلاً قوياً دون نشاط الدعوة للإسلام ، وأن الإسلام هناك دخله كثير من أفكار بيئته ولست أظن أن القرآن الكريم ترجم هناك فى هذا الوقت إلا أن تكون آيات أو فقرات للعبادة ، ويكفى أن يظل الإسلام محتفظاً بوجوده خمسة قرون أو أكثر حتى جاء المغول فأعطوه دفعة قوية أظهرت قوته وأكثرت أتباعه .

٥ - الفتـــح المغـــــولى :

كان الهجوم المغولى على هذا الجانب من القارة الآسيوية مثار اضطراب وذعر لما كان فى طباعهم من وحشية وعنف ، وامتد هذا الهجوم إلى الصين سنة ١٢١٥م فكان ذا أثر فعال فى تاريخ الإسلام والثقافة العربية فى الصين فأثناء هجومهم على الهند هاجر الكثيرون من عرب وفرس وأتراك وغيرهم إلى الامبراطورية الصينية ، ثم أن الصينيين هاجروا أيضاً إلى نحو الغرب فى البلاد

---

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام ٣٣٤ وبالهامش نقل عن راهب صينى تجول فى آسيا بين سنتى ١٢٢١ ، ١٢٢٤ حتى انتهى إلى فارس .

التى فتحها الإسلام وبهذا أخذت غارات المغول مزجاً بين الصينيين والمسلمين من مختلف الأجناس ، وظلت رحلات التجار والملاحين متلاحقة إلى سواحل كانتون ، ومنهم من آثر الإقامة هناك ، وانضم إليهم الجنود المحاربون والأسرى ، واندمجوا فى الصينيين بالتزاوج فتكونت منهم طائفة فقدت خصائصها الجنسية الأولى ، وأصبحت فى مجموعتها جماعة صينية ، وانضم إليها من دخلوا الإسلام من سكان البلاد ، ومنهم عدد كبير اشتراه المسلمون من أطفال الصينيين الذين كان يبيعهم آباؤهم بسبب الفقر والمجاعة ، فنشأوهم على الإسلام ، وتكون من هذا الخليط المتعدد الجنسيات طائفة مزدهرة لها صفتها الخلقية ، ويبدو أن جيرانهم أعجبوا بهم وبتعاليم دينهم فانضموا إليهم وأولى المغول هذه الطائفة عطفهم إلى جانب ما تمتعوا به من معونة من أسرة تانج جزاء ما عاونوا الإمبراطور « سوتسنج »[1] .

وخلال القرن الثالث عشر تقلد بعض المسلمين مناصب عالية فى الدولة المغولية ، ومن أشهر هؤلاء شخص كان يسمى عبد الرحمن أختير سنة ١٢٤٤م رئيساً على بيت المال وأعطى حق تقدير الضرائب ، وعاصره عمر شمس الدين الذى اشتهر بلقب السيد الأجل وهو من أهالى بخارى الذين نزحوا إلى الصين ، وكان مدير بيت المال العام سنة ١٢٥٩م ، ولما فتحت يونان Yonnan وضمت إلى إمبراطورية الصين كان هو الحاكم عليها فأظهر تسامحاً كبيراً جعل الشعب يتشبث به ويحبه ، وكان يبنى من معابد كونفوشوس بقدر ما يبنى من المساجد ، ومات سنة ١٢٧٠م ، وظلت دعوته باقية فى عقبه ، فحصل أحد حفدته سنة ١٣٣٥م على اعتراف من الإمبراطور بأن الإسلام هو الدين الحق الخالص ، وحصل حفيد آخر سنة ١٤٢٠م على إذن ببناء مساجد فى العاصمتين سنجافو Si ngan fo ونانكن Nan-Kin وكان للسيد الأجل وما تمتع به من حظوة فى الدولة أثر كبير فى جذب الهجرات العديدة إلى الصين[2] .

---

(١) الإسلام فى القرن العشرين ٧٨ وتقدم حديثه .

وانتهت دوبة المغول وحلت محلها دولة منج سنة ١٣٦٨ – ١٦٤٤م ، فصادف عهدها استحكام العزلة التى انتهجتها الصين ، وبها أغلقت أبوابها دون الأجانب ، وكان فى استطاعة المسلمين أن يدخلوها باسم التجارة ، ولكنه كان دخولاً محدوداً ، وأدى ذلك أيضاً إلى عزلة المسلمين فى منج فقل فى هذا العهد دخول الصينيين فى الإسلام ولكن المسلمين اندمجوا فى مجتمعهم أكثر بالتزاوج وتبنوا عادات الصينيين التى قد تكون فيها منافاة للإسلام ، واشتد اتصالهم بالمسلمين المجاورين وجاءت دولة منشو سنة ١٦٤٤م فلم يلق المسلمون فى ظلها ماكانوا يلقون قبلها من طمأنينة ، وكانوا قد أصبحوا قوة ، ونفس الأهلون عليهم تميزهم بلغتهم وعاداتهم فضايقوهم ، وقام المسلمون فى ولاية كنسو بثورة مسلحة سنة ١٤٦٨م ، وأشفقت الحكومة من ثورتهم لما كان لهم من صلات بالدولة السابقة فهادنتهم ولكنها لجأت إلى حرب باردة أرادت بها أن توقع بينهم وبين الأهليين من الوثنيين والبوذيين ، فحرمت ذبح الأبقار إرضاء للبوذيين وعباد البقر ، ولإلجاء المسلمين لأكل لحوم الخنازير إرضاء لتجارها الصينيين فلم تتحقق الغاية المرجوة ولم تنقطع ثورات المسلمين(١) وهزمت جيوش الحكومة فى عدة معارك فاضطرت إلى مهادنتهم وتهدئة الشعب معهم ، فأرسل الإمبراطور ينج تشن إلى كل الولايات منشوراً سنة ١٧٣١م أبدى فيه عطفه على المسلمين ووصفهم بأنه أبناؤه لا يفرق بينهم وبين سائر رعاياه ، وأثنى على أخلاقهم وأوصى بإعطائهم الحرية فى دينهم(٢) وربما كان الغرض من هذا المنشور تهدئة المسلمين أكثر من تهدئة الصينيين ، لأنه فى هذا العام نفسه كان قد حرم لحوم البقر ، وفى سنة ١٨٦٣ حدثت أشنع معركة بين المسلمين والصينيين ، وفيها انتصر المسلمون وقتلوا ألفين منهم ثم ظلت ثوراتهم تنشب بين حين وحين وعاصرتها ثورة التركستان بقيادة التنجانى يعقوب حتى قضى على هذه الدولة ، وجاءت بعدها الحكومة الجمهورية .

---

(١) نفســه ٣٤٥ .

(٢) جاء هذا المنشور بتمامه فى الدعوة إلى الإسلام ص ٣٤٠ .

٦ - أسباب قوة المسلمين وكثرتهم فى هذا العهد :

يتضح من التقارير والتواريخ التى كتبت عن مسلمى الصين أن أهمَّ أسباب قوتهم وزيادة عددهم تنحصر فى الأسباب الآتية .

١ - أنهم التزموا حياة سليمة بعيدة عن مصادمة الآخرين ، وبينما تجنبوا نقد الأديان الوثنية تجنبوا إعلان شعائرهم الإسلامية والدعاية لها ، واكتفوا بالصلاة فى مساجدهم ، وهذا الحياد كان أدنى إلى العزلة والسلبية ، وميزته أنه ضمن لهذه الجماعة حياة هادئة بعيدة عن التعصب وإثارة عداء لهم ، فضمنوا بها فقط بقاءهم ، وكان الصينيون يبدون عداء لليهودية والمسيحية دون الإسلام .

٢ - حرصوا على أن يظهروا بمظاهر الصينيين حتى فى بعض المسائل التى لا يقرها الإسلام فلبسوا ملابس الصينيين ، وكانوا يرتدون العمائم فى المساجد فقط ، وبنوا مساجدهم على طراز صينى ، ولم يبنوا لها مآذن ، وقبلوا أن يضعوا فى كل مسجد لوحة للإمبراطور مكتوباً عليها « عاش الإمبراطور الخالد إلى الأبد » والذين تولوا مناصب عالية تقضى بشعائر وثنية قبلوا أن يؤدوها .... إلى غير ذلك من الأعمال التى لا تثير أى نفور منهم[1] واعتبروا أنفسهم فى هذه العزلة مكرهين على هذه الأعمال ، ورأوا ألا ضرر فية أدائها مادامت عقائدهم إسلامية .

٣ - التزموا فيما بينهم بالمحافظة على حضور المساجد ، وكانوا ينفون من بينهم من لا يذهب إلى المسجد ، وبهذا ضمنوا بقاء دينهم ، واستمرار جذوته حية فى نفوسهم .

٤ - كانوا ربما بسبب تعدد الزوجة أكثر تناسلاً ، فزاد عددهم مع مر السنين .

٥ - ضمنت لهم معاملاتهم الحسنة نجاحاً فى أعمالهم فكانت تجارتهم رابحة جداً وتعاطف الناس معهم وأحبوهم -واحتكروا تجارة البقر فكانوا ذوى ثراء منحهم قوة ورخاء فى حياتهم .

---

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام ص ٣٤٥ .

٦ - كان أهم ما زاد به عددهم شراؤهم الأطفال الوثنيين ، فقد أدت المجاعات في غير موضع أن يبيع الفقراء صغارهم ، وكانوا يؤثرون بيعهم للمسلمين ويرى المسلمون من واجبهم الإسلامى والإنسانى أن يشتروهم ، وكانوا يحسنون تنشئتهم وتربيتهم على مبادىء الإسلام وفى بعض البلاد بلغ عدد هؤلاء الأطفال عشرة آلاف ، وفى بعضها أكثر .

٧ - بعد أن أطفأ الإمبراطور كين لنج Kin Lung ثورة زنجاريا الخطيرة ، وكان المسلمون قد ساعدوه فى إطفائها ، نقل إليها عشرة آلاف من المهاجرين المحاربين وانتقل معهم أهلوهم وأتباع لهم لعمارة هذه البلاد فدخلوا - جميعاً أو معظمهم - فى الدين الإسلامى فزاد عدد المسلمين بهم كثيراً .

٨ - تزوج المسلمون من الصينيات بكثرة وأقبل هؤلاء على الزواج منهم لما ينعمن به لديهم من رفاهية واحترام ، وقد بنوا لهم دورا وقامت بهم قرى إسلامية صغيرة ، وانتمى إليهم كثيرون تأثراً بهم .

ويمكن إجمال الأسباب التى زاد بها عددهم ونمت قوته فى أمرين هما نشاطهم التجارى وأخلاقهم الإسلامية التى جذبت الآخرين إليهم .

الفكرة الإسلامية بينهم :

لا يبدو أن مسلمى الصين كانوا على حظ من الثقافة الإسلامية ، وقد كانت عزلتهم وعدم استطاعتهم الدعاية لدينهم مما حد معارفهم الإسلامية ، ثم كان ضعف اللغة العربية حائلاً دون فهم القرآن والحديث ، والترجمة التى كانت هناك من أعمال التجار الذين عرفوا اللغتين العربية والصينية . وهؤلاء ليسوا ذوى علم كاف فى الإسلام ، واستطاع بعض الصينيين أن يتعلم العربية وأن ينقل إلى لغته بعض كتب التوحيد والعبادات ، ومنها رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ، ومع ظهور صينيين يجيدون العربية وينقلون إلى بلادهم بعض كتبها لا تزال اللغة العربية والمعلومات الإسلامية لديهم ضئيلة ، ووفد على الأزهر أفراد قليلون جداً من الصين .

وحين حرمت دولة المانشو على المسلمين أن يتصلوا بالعالم الخارجى ، ومنعتهم حتى من الحج لجأوا إلى حيلة الإنابة فكان فقراء المسلمين المجاورين لهم يتخذون من هذه الإنابة مصدر رزق ، ومع أن الحج ساقط عنهم فى هذه الحالة لعدم الاستطاعة ظلوا ينيبون ويتسمى من ينيب عنه شخصاً آخر باسم الحاج .

وبسبب هذا التشديد الذى فرضته هذه الأسرة لجأوا إلى دراسات دينية وعربية أكثر ، وحاولوا حفظ الكثير من القرآن ، وظلوا كذلك حتى قامت جمهورية الصين فرفعت عنهم هذا الحظر لكن النظام الشيوعى عاجل الدولة وضايق الإسلام كثيراً .

هذا مجمل حديث الإسلام فى الصين .

المسلمون هناك الآن قلة ، ومعرفتهم بالإسلام ضئيلة ، وقد طلبوا غير مرة من الأزهر أن -يمدهم بمعلمين يجيدون الانجليزية فلم يستطع ، ويقدر عددهم الآن بنحو ستين مليونا .

٧ - المسيحيـــة فى الصـــين :

دخلت المسيحية الصين فى القرن السابع الميلادى ، وكان دخولها بواسطة النساطرة الذين كانوا بالعراق ، وبفارس ، وكان وجودهم فى بلاد الفرس قلقاً قبل أن يفتحها المسلمون لما كان بين الروم والفرس من العداء ، فلما استقر الحكم للمسلمين استقر المسيحيون آمنين ونمت كنائسهم ، وفى العصر العباسى نالوا تقدماً أوسع حتى استطاعوا أن يخترقوا حدود الصين ، وقد كشف حديثاً عن آثار مسيحية يرجع تاريخ أقدمها إلى سنة ٦٨٣م[1] وهى تنص على

(١) هى كتابات صينية بها أناشيد للثالوث المقدس، وقائمة بأسماء كتب مسيحية كشف عنها فى سنة ١٩٠٨م فى كهوف بمدينة تون هوانج Tun Huang - فى شمال غرب الصين ، ومن خلال الإشارات إلى النساطرة وإلى منشورات ملكية تشير إلى سنوات ٦٨٣ ، ٨٤٥ تبددت الشكوك التى كانت تحوم حول بداية المسيحية فى الصين ، وتذكاريات النساطرة تشير إلى سنة ٧٨١م أى العصر العباسى الأول . وانظر إلى تاريخ سورية جـ١/١١١ . وهذا يعنى أن أول دخول المسيحية كان فى خلافة يزيد بن معاوية الذى توفى سنة ٦٨٣م .

بداية المسيحية إذ تذكر أنه فى سنة ٦٣٥م وصل إلى عاصمة تاى تسنج Tai Tsung وفدٌ يحل معه دين سوريا « Tarchin » وقد استقبله الإمبراطور بترحاب ، ثم درس الدين الذى جاء به ووافق عليه ، وعارض البوذيون هذا الدين وحاربوه ولكن الكنيسة استمرت طوال قرنين بعد ذلك وحول سنة ٨٢٣ عمد مطران للصين ، وبعد ذلك بنحو عشرين عاماً . (٨٤٥) . جاء الإمبراطور وو– تسنج Ww Tsung – وكان يدين بالتاوية التى تقوم على تعدد الآلهة ، وكان شديد الحماس لها ، يكره الأديان التى تجعل الآلهة إلهاً واحداً ، فأمر بإزالة البوذية والمسيحية معاً ، وطرد الرهبان من بلاده ، فأزيلت المسيحية حتى أنه فى سنة ٩٨٧م –أرسلت الكنيسة الكاثوليكية بعثة لاستطلاع بقايا المسيحية فى الصين ، فعادت تقرر أنه « لا يوجد كنيسة واحدة فى الإمبراطورية » ولا يعرف بالدقة أين ذهب رجال الكهنوت الذين كانوا هناك ولعلهم رجعوا إلى أرض الرافدين وفارس[١] .

وقد ذكرنا محاولات المسيحية لتثبيت نفسها وللقضاء على الإسلام فى العصر المغولى ، وفيه قامت كنائس ودعوة دينية للمسيحية ، ولكن الرغبة فى القضاء على الإسلام وفشل المحاولات لهذه الرغبة ظلت تتكرر فى ظروف وأوقات مختلفة .

رأينا من قبل رحلة يوحنا المونتكارفينى John of Montcarvine . وكان وصوله إلى بكين حول سنة ١٢٩٤م ، وكان قوبلاى خان حفيد جنكيز ، قد مات وخلفه تيمور Timur فاستقبل جون استقبالاً حسناً ، ولكنه لم يقبل الدعوة المسيحية ، ولم يمنعه من تأسيس كنيسة ، وبها ثبت نفسه فى مواجهة الوثنية ، ووفد دعاة النسطوريين ورجال من أوروبا إلى بكين ، وبهم زاد عدد المسيحيين المتنصرين حتى أنهم كانوا نحو ٦٠,٠٠٠ فى سنة ١٣٠٥م ، وجمع جون نحو ١٥٠ناشئاً علمهم الإغريقية واللاتينية ودربهم على ترتيل الأناشيد الدينية على الطريقة الغربية .

---

(١) Neil P 97.

وابتهج البابا كليمنت الرابع فقرر أن يؤسس فى الصين وحدة أو أوبروشية كاثوليكية وأن يكون جون هو الأسقف الأكبر The Arshpishop - ولأنه لا يستطيع الحضور إلى روما كى يتلقى تنصيبه من البابا .

ولذلك اختار البابا سبعة من جماعة. الفرنسيسكان ذوى حماسة وعلم بالكتب المقدسة فنصبهم قسسا ، وفوضهم نواباً عنه فى تنصيب جون ، وجهزهم لهذه الرحلة الطويلة إلى بكين فمرض واحد منهم وعجز عن السفر ، ومات ثلاثة فى الطريق ، ووصل الثلاثة الباقون ونصبوا جون مطراناً ، فكان أول رئيس لكنيسة لاتينية فى الشرق الأقصى بدأ من سنة ١٣١٣م ، وعاش حتى سنة ١٣٢٨م فأحدث موته ضعفاً وتخلفاً فى الكنيسة ، وحاولت روما إنعاشها فأرسلت عدداً من الإرساليات ، ولكن لم تستطع واحدة أن تصل إلى بكين ، وفى سنة ١٣٣٥ وصلت واحدة ، فاستقبلها الخان الأكبر تيمور بحفاوة كالتى استقبلت بها الإرساليات السابقة ولكنها فى الواقع كانت سفارة - لأجل ولم تكن إرسالية دائمة ، وكان رئيسها يسمى جون الما رجنولى فغادر بكين عائداً سنة ١٣٤٦م ، وبقيت الكنيسة فى حالة ضعف .

وفى سنة ١٣٦٢م استرد الصينيون بلادهم من المغول ، فعملوا على نشر وثنيتهم ، فصدر أمر ملكى بطرد الكاثوليك نهائياً من بكين سنة ١٣٦٩م ، وكانت هذه نهاية الإرساليات الغربية بالصين .

وكما ذكرنا من قبل قامت أسرة منج ، وظلت المسيحية طريدة نحو قرنين ، وفى سنة ١٥٥٧م ، تمكن البرتغاليون أن يثبتوا أنفسهم تجاراً فى قرية ماكاوو Macoo ، وأقاموا لهم كنيسة كاثوليكية ، ثم وفدت جماعة أخرى نمت بهم القرية لكنها كانت خليطاً من الشرق والغرب ، وغصت بالأوغاد والسفلة ، ولم تستطيع المسيحية أن تنفذ إلى جوف الصين ، وكان موقف الصينيين جافاً جامداً ، ويئس القسس من قبول الدعوة ومن تنصير فرد واحد ، ثم قدم زفيير وبعض رفاقه فبذلوا جهداً ولكن الوضع لم يتغير إلى أواخر القرن السادس عشر .

وأنجح مبشر هو القس الانجليزى متى ركسى Metthew Ricci[1] الذى بدت فيه مهارة الانجليز وسياستهم ومكث هناك ثمانية عشر عاما (١٥٥٢ - ١٦١٠) أقام فى ماكو زمنا تعلم فيه لغة الصين وعاداتهم ، وكان ماهراً فى صناعة الساعات ، وهو أول من أدخلها الصين ، كما كان ماهراً فى صناعة الخرائط ، وقد استطاع بحذقه ومهارته أن يصل إلى الإمبراطور ليقدم له ساعتين هدية ، ولم يكن الإمبراطور يقابل أحداً غير طواشييه وحريمه ووزرائه ، فبرز للقاء ركسى وأبدى دهشته للساعة ، وأيقن أن هناك حضارة لم تعرفها بلاده .

استقر ركسى فى العاصمة وأنشأ كنيسة بها ، وكسر الجدار الصلب بين المسيحية وبنى الصين ولكن الذين تنصروا كانوا قليلين جداً ، ووفدت إرساليات أخرى سمح لها ببناء كنائس أيضاً ، وحاولت أن تنشر دعوتها فى آسيا الوسطى ، لكنها واجهت مرة ثانية صدمة أكبر وهى الإسلام .

وفى نظرة أوسع نجد إرساليات عديدة من اليسوعيين الفرنسيسكان والدومنكان .. تسابقت إلى منطقة الشرق الأقصى وأواسط آسيا وكانت تمد بمعونات كبيرة ولكنها لم تلق نجاحاً[2] .

كانت البرتغال ودول إيطاليا التجارية وانجلترا وفرنسا تعمل على إنشاء مراكز تجارية لها هناك واتخذت الإرساليات التبشيرية وسيلة لها ، ولجأت إلى إنشاء المدارس والملاجىء والمستشفيات لتقدم لهذه الشعوب خدما تكثر حدة كراهتها وعدائها ، ولكنها فى كل هذه البقاع آسيا الوسطى وجزر الفلبين والصين وغيرها وجدت بذوراً إسلامية ومواطنين دخلوا الإسلام لمجرد تأثرهم وانفعالهم بسلوك التجار المسلمين وحسن معاملتهم وأمانتهم . وليس لدعاة

---

(١) أشهر مبشر كاثوليكى فى الشرق بعد زافيير - واستطاع أن يثبت المسيحية ويمدها أكثر منه والكلمة Ricci إيطالية وتنطق رتشى .

(٢) كانت أوروبا تجهل هذه البقاع ، وقد وفدت فى القرن ١٦م بعثة برتغالية تبحث عن إقليم كاثاى لتنشر المسيحية فيه فلم تجده ثم علمت أخيراً أن كاثاى فى اللغة البرتغالية هى الصين .

المسلمين ولا للدعوة الإسلامية تاريخ نعرف به بالضبط بداية دخولها هذه الجهات ، ولكن هكذا نجدها وجدت هناك قبل المسيحية .

وقبل أن نواصل الحديث عن النشاط التبشيرى فى الصين نلفت أنظار المبشرين والمستشرقين إلى هذا الموقف ، وهو اصطدامهم بالإسلام فى هذه البقاع كلها ، فهنا لا قوة ولا سيف ولا حكومة إسلامية ، أليس فى هذا ما يكفى رداً عليهم فى اتهامهم الإسلام بأنه نشر بالقوة وحد السيف ؟ إن المسيحية هنا هى التى نشرت أو حاولت أن تتخذ لها موقفاً متكئة على قوة الحكومات وأصابع السياسة .

وفى الصين تنتشر ديانات أقرب إلى المسيحية ، وأنأى عن الإسلام ومع هذا نفر الأهلون منها ، ومع اعتمادها على القوى والمعونات التى ذكرنا ظلت مجمدة نحو ثلاثة قرون ، ثم ظهرت بدءاً من القرن التاسع عشر – عصر النشاط والامتداد التبشيرى فى مختلف أنحاء الشرق ، لأنه عصر الاستعمار ، وقد ضمنت الدول الأوروبية المستعمرة حماية الإرساليات وعمدت على تثبيتها فى مستعمراتها لما تجنى من ثمرات أعمالها ، وكانت تستتر دائماً وراء حرية الأديان ، ولكنها من غير أن تثير غضب الآخرين تعمل على تقوية الكنائس والإرساليات ، وفى النصف الثانى من هذا القرن كانت الإرساليات تتسابق على أخذ مكانها فى الدول الشرقية ، وفيه نالت أعظم نجاحها ، ونجاحها فى الصين يستحق أن يراعى ويقدر ، لأن الدعوة المسيحية هناك كانت مجمدة تقريباً ، وكانت الحروب الكثيرة التى نشبت بين الصين وعدد من الدول الأوروبية قد وقفت نشاط الدعاة ، وكان الصينيون يرون فى المبشرين الأوروبيين صورة الأعداء المحاربين ، وفى سنة ١٨٥٨م انتهت الحروب بعقد معاهدات أملت على الصينيين شروطاً قاسية ، واتفقت كلها على السماح للغرباء أن يتنقلوا ما شاءوا فى جوانب الصين ، وأن تكون الديانة المسيحية مصونة لا تمس ، وأن يكون للمبشرين حق مزاولة التبشير فى كل مكان ، ولا يختص هذا الشرط بالإرساليات الوافدة ، بل يشمل المسيحيين الصينيين ، وكان هؤلاء لا يجرؤون

على التجول بالدعوة المسيحية لا لأن الحكومة تمنعهم ولكن لأن الشعب لم يكن يطيقهم ولا يتقبل دعوتهم ، وإذن قد حمت الاتفاقيات الدولية دعاة المسيحية ، وأنالتهم من الحراسة مالم يكن لهم من قبل . فانفتح باب الصين واسعاً أمام الإرساليات الكثيرة المختلفة ، وكانت الإرساليات البروتستانتية أنشط وأكثر من غيرها .

وفى سنة ١٨٥٣ – قبل إنهاء الحرب بنحو خمسة أعوام كان المبشر الانجليزى (الأنجليكانى) جيمس هيدسون تايلور[١] قد وفد على البلاد ، فأقام فى حالة انكماش وعكف على درس اللغة الصينية حتى أجادها ، ثم هيأت له المعاهدات التى أبرمت أن يتنقل فى أرجاء البلاد فى حماية القانون وقد أصبح قديراً على مخاطبة الصينيين بلغتهم وتزوج إحدى الصينيات ، وصادق أحد المتنصرين ، فرأى أن يستقيل من جمعيته الانجليكانية ولعله أحس أن انتماءه إليها مما ينفر منه ، وقد عمل على الاندماج فى الشعب مستعيناً بزوجته وصديقه ، فلبس ملابس الصينيين ، وتبنى عاداتهم ، وبذا استطاع أن يدخل عدداً منهم فى الدين المسيحى خلال رحلاته البعيدة فى البلاد ، ثم عاد إلى انجلترا ، ولكنه لم ينس واجبه نحو الصين . فظل يعمل لنشر المسيحية بها .

ومما يوازن به عمله أنه حتى سنة ١٨٦٥ ، أى بعد وقف الحرب بنحو سبعة أعوام كان بالصين أحدى عشرة مقاطعة . من مقاطعاتها الثمانى عشرة . ليس بها إرسالية واحدة بروتستانتية ، أما السبع الأخرى فقد كانت تحت الاحتلال ، ولم تكن الإرساليات التى بها تجاوز الساحل ، وهذا ما يبين أن عمل تايلور لم يكسب الدعوة انتشاراً ولكنه عرف بها .

عاد إلى انجلترا سنة ١٨٦٠ عليلاً ليس له أمل فى العودة إلى الصين ، ولكن مشاعره كانت مليئة بالتفكير فى المقاطعات غير المحتلة التى ليس بها

(١) لتايلور هذا عدد من التراجم أكبرها ماكتبه دكتور هاوارد تايلور هو وزوجته Mr. & Mrs Haward Taylor .

إرسالية واحدة ، فعمل على تكوين إرسالية كانت إلى مدة طويلة أكبر جماعة تبشيرية فى العالم كله وهى إرسالية الصين الداخلية Inland Missian وامتازت بما وضعه لها من نظم وقوانين هى التى أكسبتها نجاحها وتفوقها ، ومن أهم تعاليمه أن جعلها جماعة مستقلة ، قيادتها من داخلها وتتصرف بوحى من ظروفها ، ولا ترجع إلى الكنيسة الإنجليزية ، وهذا من آثار النزعة البروتستانتية التى خرجت من قبل على الكنيسة الرومانية ، واتخذت هداها من الكتاب المقدس وحده ، ولكنه شدد أن تكون محافظة على تعاليمها الدينية ، وأعطاها حق قبول المسيحيين الذين يريدون أن ينتموا إليها من أى كنيسة إذا تقبلوا تعاليمها ، وهو فى الواقع فتح الباب لقليلى الثقافة أن يتدرجوا إلى المراكز القيادية فى الكنيسة ، وأن يوجد من الصينيين دعاة وقسس كبار ، ومن تعاليمه الهامة أيضاً أن يندمج المرسلون فى الشعب الصينى وأن يلبسوا ملابسهم ويتبنوا عاداتهم ، وبهذا لا يشعر الصينيون بغربة هؤلاء الدعاة عنهم وبذا تزول الفجوة بين الصينى الوطنى والأوروبى الوافد ، وجعل مهمة رجاله أن ينشروا دعوة الإنجيل بين الشعب الصينى وأن يجعلوا هذه الدعوة ذات مكانة أكبر من إلقاء العظات فى الكنائس .

وقد واجه صعوبات كثيرة ، من عدم إقبال الصينيين ومعارضة الحكومة أحياناً ، وقلة الدعاة وقلة ثقافتهم ، وقد آلمه أكثر أنه فقد زوجته سنة ١٨٧٠ ، ولكنه كان يعمل على إيجاد إرساليات فى المقاطعات سواء كان بها أتباع كثيرون أو قلة قليلة ، واستطاع أن ينشئها فى جميع المقاطعات عدا ثلاث منها ، واستطاع أن يجعل لإرسالياته دعاية فى انجلترا حتى أن سبعة أشخاص من المثقفين من كمبردج تطوعوا للعمل فى إرساليته بالصين ، ومهما يكن من شأن إرساليته فقد تناثرت وامتدت رغم قلة الأتباع ، وفى خلال ثلاثين عاماً امتدت غرباً حتى قاربت حدود التبت ، ويعتبر تسامحه إقراراً عملياً على عدم قدرته على منافسة الكاثوليكية ، وفى امتداد دعوته إلى الصين التركستانية واجهت منافساً خطيراً هو الإسلام ، ومع أن المسلمين لم يكن لهم رابطة ولا مركز دعاية كان الإسلام بمبادئه وتعاليمه أكبر عائق تواجهه هذه الإرساليات المنظمة .

وظهر أيضاً فى هذه الظروف سنة ١٨٧٠ داعية مسيحى من جماعة الميثوديزم وهو دافيد هل Favid Hill كان من المحبوبين المقدرين من الإرساليات الأخرى ، ومن مفاخره أنه استطاع أن ينصر أستاذاً جامعياً كان من أتباع الديانة الكونفوشية ، وهو باستورهيزى ، Pastor Hisi وكان من مدمنى الأفيون ، فلما دخل المسيحية أقلع عنه ، ثم قام بعمل جليل هو إنشاء ملاجىء لعلاج ضحايا الأفيون ، فكان هذا مما اجتذب الناس إلى المسيحية ، وكان هيزى ذا نشاط مستقل فى الدعوة المسيحية .

وشخص بريطانى كبير هو تيموثى ريتشارد Timothy Richard الذى دخل الصين سنة ١٨٧٠م أيضاً ، وعمل بها ثلاثين عاماً ، ولم يكن يعنيه أن يسرع الناس إلى المسيحية ولكنه كان يعنيه أن يبث الفكر المسيحى فى أذهان المثقفين ، وله أثر فى بعث المدنية الأوروبية فى الصين ، وأنشأ هناك مجلتين ، هما مجلة الأزمنة ، ومجلة المسيحية – ثم فتحت مدارس لتعليم اللغة الانجليزية ، ثم فتحت جامعات مسيحية وساندتها الولايات المتحدة بالأموال وفتحت جامعة مشيخية Preslay Terian – فى كانتون (١٨٩٣) – وبها نمت المسيحية فى مكان أخذ الإسلام فيه مكانه من قبل ، وظلت الإرساليات فى نمو حتى كانت فى نهاية القرن التاسع عشر نحو ١٥٠٠ إرسالية فى ٥٠٠ مقاطعة .

ولم تكن هذه الإرساليات محبوبة لدى جمهور الصينيين ، لأنها شغلت بلادهم بمظهر استعمارى وعملت على تلوينها بلون غربى ، ونمت فى نفوسهم كراهة هؤلاء الأجانب ، واعتبروا الإرساليات أسساً للاحتلال والاستعمار . فكانوا يعملون على حربهم وإيذائهم واستمر ذلك نحو نصف قرن لم ينج أعضاء الإرساليات خلاله من الموت إلا بأعجوبة ، وفى نهاية القرن وربما بدءاً من سنة ١٨٩٦ عجزت الإرساليات عن حماية نفسها . ومات الكثيرون فى الثورات التى لم تكن تنقطع . والذى أعطى الموقف صورة أشد هو تدخل الامبراطور دواجر Dawager – ذى التمسك الشديد بالبوذية ، فأنشأ حركة الثوار التى سماها الأوروبيون « ثورة الملاكم » سخرية بها وإشارة إلى ما لها من عنف وميل

لاستعمال القوة ، وكان شعار الثورة دائماً .. « حطم الأجنبى » ثم صدر فى أول سنة ١٩٠٠ مرسوم أميرى بقتل الأجانب ، وحاولت الحكومات فى بعض المقاطعات حمايتهم ولكن السفارات فى بكين نفسها حوصرت لمدة تقرب من شهرين ، وقتلت أعداد كبيرة من المسيحيين رجالا ونساء وأطفالا .

ولم تدم هذه المذابح طويلا لأن الدول الأجنبية تدخلت بقوة مشتركة لحماية رعاياها ومفوضاتها السياسية ، فما جاء آخر العام حتى اضطرت الحكومة الصينية أن تخضع للقوة المشتركة ، ولم يقف الأمر عند تخليص الأسرى بل فرضت على الصين غرامة مالية تعويضاً للأرواح والممتلكات ، وكان عليها أن تدفعها أقساطاً ، ولكن رجال الإرساليات أبدوا تعففاً ولم تقبل التعويض ، وقد كانت الإرسالية الداخلية أكثر الإرساليات خسارة لكثرة فروعها فى أنحاء البلاد ، ولكن مؤسسها هدسون تايلر – صمم على رفض أى تعويض ، واعتبر هذا لوناً من الدعاية للمسيحية لأنه أظهر عظمة المسيح وتواضعه ، فحذت حذوه الإرساليات الأخرى وردت أمريكا قسط التعويض الأول ليكون زخيرة لتعليم بنى الصين ، وعادت الإرساليات من جديد لأعمالها وتكاثرت حتى كانت فى آخر هذه المدة نحو ٥,٤٦٢ إرسالية من البروتستانت ، بينهم ١,٦٥٢ زوجة .

ولم تدم حال السلام فى الصين طويلا ، فبعد عشرة أعوام قامت الثورة من جديد وأنزل الإمبراطور من فوق عرشه وقامت الجمهورية ، ونصب سان يت سن Sun-yat Sen رئيساً مؤقتاً للجمهورية ، وكان مسيحياً تلقى تعليمه فى مدرسة إرسالية فى – هونولولو – ولذا فإنه عندما سئل عن أسباب نجاح الثورة أرجعه إلى المسيحية وبركة المسيح .

وبعد كل هذا المجهود ، وبعد الإغراءات المادية والحروب الدامية ظلت المسيحية قلة ضئيلة جداً فى الصين ، وبصعوبة يمكن أن يصل عدد المسيحيين إلى ١٪ من مجموع السكان ، وعندما فرضت الشيوعية وقامت بدعاياتها ضد الأديان دخلها بعض المسيحيين اقتداء بمسيحيى روسيا ، وأصر المسلمون على إسلامهم ولما اختلفت الصين فى شيوعيتها عن روسيا ، وجد المسلمون فى

إباحة الصينيين شيئاً من الملكية مشجعاً على إصرارهم ، ودليلاً على أن مبادىء دينهم مما لا يمكن التخلى عنه .

وموقف القلة القليلة فى الصين من المسلمين الآن هو موقفهم فى مختلف الأنحاء النائية عن العالم الإسلامى من الحاجة إلى الدعاة والمعرفين بالإسلام .

ولا يعانى الداعية الإسلامى ولا المبشر المسيحى فى الصين ماقد يلاقيه الواحد منهم فى روسيا . ويوجد الآن حول الصين جاليات إسلامية ففى اليابان وكوريا وهونج كونج جماعات إسلامية ، ولكنها كلها فى حالة ضعف مذر لقلة المعلومات عن الإسلام وعدم وجود معلمين ، وعدم معرفتهم اللغة العربية وهم مع كل ذلك محاربون .

٨ - محنة الإسلام فى الصين :

مع ماتعرض له المسلمون فى الصين من مواقف كثيرة حرجة تعارض دعوة الإسلام وتعاليمه - لم يواجهوا اضطهاداً وعنفاً كالذى واجهوه على يد الحزب الشيوعى ، وهو فى الواقع اضطهاد يذكر بما أصاب المسلمين فى أسبانيا ، أو هو صورة منه فى كثير من الأعمال ، الخديعة والإبادة وإحراق الكتب الدينية والإكراه على ترك الإسلام .

فعندما عقد الحزب الشيوعى مؤتمره السادس سنة ١٩٤٥ ، أعلن الرئيس ماتسنج أنه بعد تغطية الشيوعية أرض الصين كلها فإن شعوب منغوليا والتبت والتركستان الشرقية لهم حق تقرير مصيرهم ، وأنهم يخيرون بين الاستقلال التام إذا فضلوا ذلك ، أو أن يكونوا جمهورية فيدرالية إذا أراد أن يعيشوا فى إطار الصين الفيدرالية . وكان وعداً مبشراً أشبه بالوعود التى وعدها فرديناند لمسلمى أسبانيا ، فبعد قبضه على زمام الحكم أعلن أن التركستان الشرقية تقف دائماً حجراً صلباً فى طريق وحدة الصين التى لا تقبل التجزئة وأن هذا موقفه حتى قبل تحريرالصين ، ولكن يجب ألا يكون ثمة أدنى شعور أو أمل فى تقسيم الصين إلى ستة جمهوريات فيدرالية ، وكان هذا نكوصاً عما وعد به .

وفى ديسمبر سنة ١٩٦٠ صدرت نشرة تقول أن فى جمهورية الصين الشعبية أقليات وأن حظ الصينيين من مجموع الشعب هو ٩٤٪ ، وأنه يجب أن تصهر هذه الأقليات فى الشعب الصينى حتى تتكون له وحدة خالصة، والسبيل إلى ذلك هو المزيد من الزواج بين الصينيين والأقليات التى بينهم .. وطبقاً لهذه القاعدة شجع ماو السياسة التى تقضى بهضم مسلمى التركستان الشرقية وإذابتهم فى الشعب الصينى ، وبدت سمات ومبادىء هذه الإذابة فى نظم الثقافة والاقتصاد والدين التى مارسها ماو فى التركستان الشرقية ..

وأول خطوة اتخذها إصراره على استئصال الخط العربى الذى كان أبناء هذه البلاد يستعملونه منذ ألف عام أو ما يزيد عليها ، وفرض عليهم استعمال الحروف اللاتينية التى رأى أنها أقرب إلى الصوت الصينى ، ولكى يقطع أبناء التركستان الشرقية عن ثقافتهم القديمة أمر بإتلاف كتبهم بالحرق أو الإغراق ، فأبيد ٣٧٠,٠٠٠ ثلاثمائة وسبعين ألف كتاب عربى ، وبعضها كان ذا قيمة كبيرة جداً . وتعللا بتكوين نظام اقتصادى جديد أجبر التركستان على الانتقال إلى أماكن أخرى كى تمحى الروابط الأسرية من بينهم ، وهذه كانت ذا قداسة لديهم ، وبهذا أيضاً قضى على الروابط والقوميات والعادات الدينية . ولكن حملته ضد الدين كانت أشد وأعنف لأنه كان يريد القضاء على الإسلام بسرعة وألا يبقى له أثراً ، لهذا جمع نسخ القرآن وكتب الحديث وكل الكتب الدينية الإسلامية وأبادها نهائياً ، ثم أمر بإغلاق جميع المساجد وتحويلها إلى مخازن وصالات للحفلات ، واصطبلات للحيوانات أو مذابح ودور للحوم وما إلى ذلك ، فلم يكتف بأن حرم المسلمين من أماكن عبادتهم بل ازدراها أيضاً وأهانها ، وكان دور علماء المسلمين أقسى ، فقد قبض عليهم وأودعوا المعتقلات ، حيث سيموا فيها سوء العذاب ، واستعملوا أيضاً عمالا كالعبيد واختيرت لهم الأعمال المهينة ، بعض كلف بتنظيف المجارى وآبار الفضلات ، وبعض كلف برعاية الخنازير وأجبر على أكل لحومها ، وهكذا اختيرت لهم

.·. ملخص من مجلة Arab — The Islamic world Review Arabia .

الأعمال التى لا تناسب عقيدتهم . — وهم ليسوا مجرد مسلمين بل أئمة يعلمون الإسلام .

والإحصائيات التى ذكرت عن المسلمين تحمل أرقاماً مزعجة ولعلها مع ذلك أقل مما هو حقيقى :

٣٦٠,٠٠٠ قتلوا — بمختلف وسائل القتل .

١٠٠,٠٠٠ فروا هاربين إلى روسيا . باعتبارها أقرب مكان لهم ، وهم طبعاً يائسون من بقائهم على دينهم — إلا ماتكن ضمائرهم .

٥٠٤,٠٠٠ أجبروا على الذهاب إلى خيام الأعمال الشاقة — وهى تسعة عشرة جماعة أو محال مخصصة للأعمال الشاقة المهينة فشغل المسلمون وحدهم عشرة منها وبقى تسع للمجرمين والمسجونين الآخرين .

وإذن فنحو مليون مسلم أصيبوا بما لا يطاق ، وغير القتلى الذين نفذ فيهم الإعدام سقط كثيرون موتى أيضاً تحت وطأة التعذيب .

وبعد موت ماو رأى القادة الذين قبضوا على الحكم بعده أن من الحتم أن يقروا بعض الأعمال التى قام بها ضد المسلمين ، أو على الأصح أن يتمموا أعماله الخسيسة ، وكذلك فعلوا . ففى شهر أكتوبر سنة ١٩٧٨ أعلن أن الأقليات الإسلامية أكرهت على إحراق موتاها ، وأن تأكل لحوم الخنازير وأن يربوها على الرغم منهم ، وأن بعضاً آخر منهم منعوا من مزاولة الأعمال التى يتقدم بها اقتصادهم وحوربوا فى الأوضاع المختلفة ، وأصر هؤلاء الحكام على إفناء كل شىء من ثقافة المسلمين وأفكارهم الدينية ، ولكن الظروف اضطرتهم بعد ذلك أن يقدموا لهم بعض المعونات أو أن يخففوا عنهم وطأة هذا الاضطهاد ، فقد رأوا أنهم بهذه الأعمال أضروا ببلادهم وحرموها من مجهودات نافعة ، كان هؤلاء المسلمون يقومون بها ، ولم تكن مساعداتهم شيئاً ذا بال ، ولكنهم حصروا الضيم الذى يمسهم فى جوانبه المعروفة الثقافة والاقتصاد والدين وبعض الحقوق السياسية فرأوا أن يدخلوا عليها شيئاً من التحسين ، ففى عهد ماو كانوا

مجبرين أن يعيشوا على الشعير ليسدوا به رمق حياتهم وليس لهم أى ممتلكات فسمح هؤلاء لهم بممتلكات صغيرة خاصة يزرعونها ، كما سمحوا لهم بممارسة بعض الأعمال التجارية لترفع مستوى حياتهم المهين - ثم جعلوا أجورهم بدءاً من سنة ١٩٨٠م ٨٠ ين أى مايعادل ٥٠ دولاراً . وكانت أجورهم فى عهد ماو مجمدة ، فأخذ خلفاؤه بمبدأ من يعمل أكثر ينال أجراً أكثر ، وكانت البلاد قد اتجهت إلى التخلص من النظام الشيوعى الذى يحرم الملكية الخاصة ويجعل الممتلكات كلها للدولة ، فأباحت الملكيات الخاصة وأباحت للزراع أن يبيعوا إنتاج مزارعهم للدولة ، وجعلوا الأثمان التى تدفع لهم مقبولة أو معقولة ، ولكن لم يأخذ التركستان حقوقاً كافية ، فهم يطلبون فقط استقلالاً ذاتياً ، ولا يبدو أن هناك اتجاهاً من الدولة أن تمنحهم هذه الحقوق ، وحكومة البلاد فى قبضة رجل شيوعى ماكر .

وأعلنت الدولة حرية الدين ، ولكن تعليم الإسلام فى المدارس محرم ، ومنذ سنة ١٩٥٥ كان يوجد معهد إسلامى لتدريب العلماء - ولكن طلبة هذا المعهد يختارون بدقة بمعرفة الحزب الشيوعى ، هذا مع ملاحظة أن التعليم الإسلامى فى مدارس خاصة أو بواسطة معلمين متطوعين غير مباح .

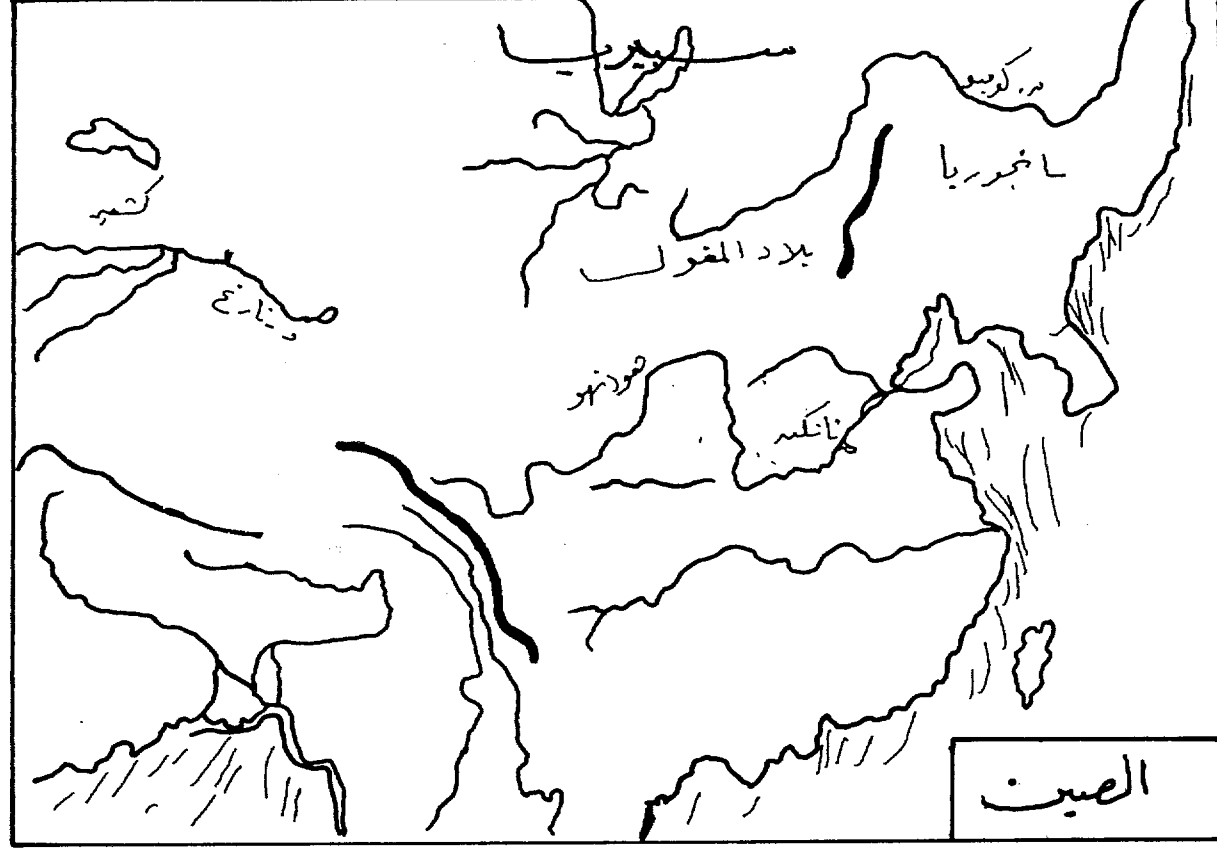
واللغة العربية لا تدرس فى مدارس التركستان ولا تعلم حروفها ، وحتى الذين يستطيعون قراءة الحروف العربية لا يستطيعون أن يفهموا كلماتها ، ولذلك إذا قرأوا القرآن لا يفهمون من معانيه شيئاً ، وقد ترجم القرآن إلى لغتهم -لغة اليوجر Ugur - ونظراً لأنهم هجروا التهجية العربية واستعملوا الحروف اللاتينية منذ ما يزيد على عشرين عاما لا يستطيعون أن يقرأوا أو يفهموا القراءة العربية ولا يحسنون نطقها - ويسمح بقراءة القرآن وحفظ شيء منه فى المسجد حيث تدرس نظريات التكوين الاجتماعى ونظريات الاقتصاد وقواعد الشيوعية ونظرياتها الاقتصادية وعقيدة ماو ، وما إلى ذلك ، فهو لا يقرأ أو يدرس لأجل العبادة وإنما هو عرض لنظريات دراسية .

وعند قيام الشيوعية فى الصين كانت المساجد ٢٩,٠٠٠ مسجد فى التركستان الشرقية ولما نالها من النظام الشيوعى ماذكرنا من تحطيم وتغيير ، بقى إلى الآن نحو ١٤,٠٠٠ من المساجد الصغيرة التى لا يؤبه لها ، ويوجد فى المنطقة كلها الآن نحو ٢٦,٠٠٠ من رجال الدين الإسلامى ، وقبل قيام الثورة الشيوعية كان الأئمة نحو ٥٤,٠٠٠ وهؤلاء الذين أفلتوا – مع ما نالهم من التحسن بعد موت ماوتسنج Mao Tsang يعيشون عيشة متواضعة جداً وفى مستوى ضئيل ، وبلاد التركستان الشرقية إلى جانب ما تغل من محصولات الزراعة والصناعة التى تتسلمها الحكومة بها الآن ثروات طبيعية من البترول واليورانيوم والذهب والفضة .. وهذه كلها تحتكرها الحكومة المركزية ، وليس للمسلمين سكان البلاد الحق فى معرفة شيء عن هذه الثروة التى تستخرجها الحكومة المركزية من بلادهم .

وهناك شيء آخر يضايق التركستان المسلمين من ناحية الاقتصاد والحياة الاجتماعية العامة وذلك أن الحكومة المركزية فى الصين تتخذ التركستان منفى كما تفعل روسيا فى اتخاذها سيبريا منفى للمجرمين وغير المرغوب فى إقامتهم فى مدنها ، والمسجونون المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة يرسلون إلى هذه البلاد ، وهم يضايقون المسلمين فى معيشتهم وفى أوضاعهم الاجتماعية ، إذ هم منحطون أخلاقياً وعادات ، وقبل سنة ١٩٤٩ كان يوجد هناك نحو ٢٠٠,٠٠٠ صينياً ، وهم الآن يزيدون عن خمسة ملايين والذين تنتهى مدة سجنهم لا يعودون إلى مواطنهم إن كانوا مسلمين ، والآخرون لا يسمح لهم أيضاً بالعودة إلا إذا كانوا من منظمة الحزب الشيوعى الوطنى الذى يشبه وحدات الحزب الاشتراكى ومقاره . والكثيرون لذلك بعد قضاء مدة السجن المحكوم عليهم بها يظلون فى خيامهم حتى يموتوا ، ومع تدفق المنفيين والمسجونين أعلن سكرتير الحزب الشيوعى أن البلاد تستطيع أن تستوعب مائتى مليون – وبهذا ضيق على المسلمين فى أراضيهم . والذين لا يسمح لهم بالعودة إلى أهليهم يسمح لأهليهم أن ينتقلوا إليهم .

أما المساواة بين المسلمين والصينيين فهى معدمة نهائياً ، فالمسلمون المسالمون الراضون بوضعهم المحزن لايتولون إلا الوظائف الأقل رتبة وراتباً حتى الدراجات التى يستعملونها لابد أن تكون متواضعة من الدرجة الثانية بينما تخصص الدراجات الممتازة للصينيين .

***



الصين
بلاد المغول
مانجوريا
نانكين

رابعاً : فى أندونسيا والملايو

١ - تعريف وتقديم :

أندونسيا مجموعة من الجزر العديدة[١] تقع فى المنطقة الاستوائية عند التقاء المحيط الهندى والمحيط الهادى بين الجنوب الشرقى لقارة آسيا وشمال قارة استراليا ، وتنحصر بين خطى ١٠ شمال وجنوب خط الاستواء وإلى جانبها الشمالى الشرقى تقع جزر الفلبين ، وكانت المجموعة كلها حتى مابعد الحرب العالمية الثانية تسمى جزر الهند الشرقية ، وهو وصف أضيف إليها تمييزاً لها عن الجزر الأمريكية التى كان يظن كولمبوا وأتباعه أنها من الهند ، فلما تبينوا حقيقتها وصفوها بالغربية وبقى لها اسم الهند كما سمى سكان أمريكا الأصليون بالهنود .

هذه المجموعة من الجزر دائمة الأمطار غنية بالمحصولات الزراعية العديدة ولكنها اشتهرت أكثر بالأباريز ، والتوابل ، والبقول ، وكانت هولندا وقت استعمارها لهذه الجزر تسمى بقال أوروبا لما تحصل عليه من نتاج هذه البلاد وتنقله إلى بلادها وإلى الدول الأوروبية الأخرى .

وأكبر هذه الجزر وأهمها هى جزر سومطرة وجاوة وبورنيو وسلبيس ، تليها جزر سولو ومالقا وفلورس ، وهناك جزر أخرى ليست صغيرة ، وحديث التبشير والإسلام فى هذه المنطقة كلها مما يهم الداعية المسلم ومما تتحتم دراسته ، لأنها الآن ميدان صراع بين الإسلام والمسيحية ويوليها التبشير أهمية لأنها ذات أهمية لدى الأوروبيين ، وكانت هولندا قد أولت التبشير أهمية أكبر فقسمت جاوة إلى مناطق وجعلت فى كل منطقة كنيسة ومدرسة ، وجاء فى تقرير للمبشر « أدوين بلس » أن عدد الذين تنصروا سنة ١٧٤١م بلغ نحو مائة ألف ، بينما كان عدد النصارى فى سيلان سنة ١٧٢٢م وكان أيضاً تحت

---

(١) يزيد عدد الجزر الأندونيسية على ١٣,٠٠٠ جزيرة .

حكم هولندا قد بلغ نحو ٤٢٤,٠٠٠ ، وذكر التقرير أيضاً أن المسلمين كانوا قلة بها فزاد عددهم كثيراً[1] ولكنه لم يذكر عدد المسلمين .

ومن أوائل الستينيات فى هذا القرن وضعت خطة تبشيرية لتنصير اندونيسيا كلها فى نصف قرن أو نحوه ، وقررت البداية تنصير جاكارتا - عاصمة جاوه - فى عشرين عاماً ثم تنصير الجزيرة كلها فى مثل هذا الزمن ثم يكون تنصير سائر الجزر أمراً هينا ، وقد مر على هذه البداية أكثر من عشرين عاماً ولم تتم الخطة ولا جاءت النتيجة المرجوة ، ولكن نال التبشير كسباً واسعاً .

ونرجىء حديث التبشير قليلاً حتى نعرض حديث الإسلام .

٢ - الإســـلام :

وتاريخ دخول الإسلام هناك وانتشاره غامض إذ لم يعن أحد بتدوينه ولا كانت له أحداث ووقائع تهم المؤرخين ، فالغزو الإسلامى كما هو معروف وكما ذكرنا من قبل لم يتجاوز غرب الهند ، والحروب المغولية لم تنحدر إلى الى الجنوب ، ولكن الفكرة الإسلامية حبت تدريجياً إلى تلك البلاد وبواسطة التجار المسلمين عرباً وغير عرب فشملت كل هذه البلاد حتى لا تخلو منها جزيرة من هذه الجزر التى تعد بالمئات والألوف ، والإسلام هو الدين السائد فيها جميعاً ، ولا ينقص الإسلام هناك إلا الثقافة الإسلامية ومعرفة الإسلام معرفة كافية ، وموقف الإسلام فى هذه البقاع كلها يحمل أبلغ رد على المبشرين والمستشرقين الذين يكررون دائماً فرية انتشار الإسلام بحد السيف وقهر الفاتحين ، فهناك لا حرب ولا فتوح ولا فرض لغة ولا دين ، وقد توالت الدول الأوروبية المستعمرة على هذه البلاد منذ عرفوها فى القرن السادس عشر ، قرن الكشوفات ونشر المسيحية فى الشرق ، وكانت هذه الدول كلها تحارب الإسلام وترى فيه عدواً يجب القضاء عليه فقضى عليها هى واحدة بعد الأخرى وبقى الإسلام ، وفى هذا الموقف درس أبلغ للمسلمين الذين اغضوا عن رسالتهم ولم يولوها ما تستحق أن تناله من اهتمام .

---

(١) الغارة على العالم الإسلامى ١٣ .

وقصة الإسلام فى هذه البقعة كلها تدعونا إلى أن نرجع إلى الماضى البعيد لنرى صلة العرب الأقدمين بهذه البلاد وكيف تمت هجرة من هاجر منهم إليها .

فمن قديم جداً كان فى جنوب الجزيرة العربية موانىء ومراكز تجارية ترتبط ببلاد الهند وكانت السفن ترد إليها محملة بالتوابل والسيوف والملابس ، وفى القرن السابع الميلادى قبيل ظهور الإسلام كانت جزيرة سيلان - سيرالانكا - مركزاً تجارياً نشيطاً يتلاقى فيه تجاز العرب والتجار الوافدون من الهند وماوراءها ، ولم يكن ثم - فيما يبدو - تمييز بين أبناء إقليم وآخر ثم امتدت رحلة العرب بعد الإسلام حتى نجدهم فى القرن الثانى الهجرى - الثامن الميلادى - يتجاوزون الهند إلى الصين فيقيمون فى كانتون ويرتبطون بالأهلين هناك ، وظل العرب سادة التجارة ومديريها فى هذا الجانب الشرقى حتى عصر الكشوفات البحرية فى القرن السادس عشر وقد كان الملاح العربى ابن ماجد هو مرشد فاسكودى جاما إلى الهند .

ولعدم وجود مراجع مدونة عن دخول الإسلام هذه الجزر ، ولإحاطته بالغموض كثرت الأساطير والمبالغات من جانب ودس عليه بعض ما يشوهه من جانب آخر ، ولكن الاستنتاج غير شاق ، لأن - الواغلين فى أطراف الهند حين يصلون إلى أرخبيل الملايو لابد أن يتصلوا بهذه الجزر ، وخط السير الذى استقر عليه رأى الباحثين هو أن الإسلام انتقل من الهند إلى جزيرة سومطرة لقربها ثم انتقل منها إلى جاوه ثم إلى الملايو ، ثم إلى الجزر الأخرى[1] .

أما رسل الدعوة فهم التجار أولاً عرباً وهنوداً فقد كونوا لهم مراكز استقروا فيها ، وكانوا مثالاً حسناً للتعامل وحسن السيرة ، وامتازوا بالنظافة ورقى المعيشة ، فاستهووا السكان ، وكانوا دمثى الأخلاق ذوى قابلية للاندماج بالأهلين فأصهروا إليهم ، وأسلم النساء اللائى تزوجن من المسلمين وأنجبن ذرية مسلمة أسهمت فى زيادة عدد المسلمين هناك ، وفعل المسلمون الأوائل ما فعل

(١) وليس هذا ترتيباً زمنياً محدداً .

المسلمون فى غير قطر من شرائهم الأرقاء والأطفال ، وتنشئتهم تنشئة إسلامية ، ثم كانت لهم مساجد وكونوا وحدات إسلامية امتازت بالرقى وحسن التربية ، وبرزت هذه الوحدات فى جزر الفلبين ، حيث تكون حزب إسلامى اختيرت له رياسة متوارثة فى أسرة خاصة ، وساعد ثراؤهم التجارى أن يتدخلوا فى شئون الحكم ، وظلوا على صلة حسنة بالأسر العريقة فى البلاد فجنبهم ذلك الاشتباك معهم والتعرض لعدائهم ، فظل عدد المسلمين فى ازدياد ، ولعل هذا أصدق وأصح ماعرف عن دخول الإسلام هذه البلاد .

ونذكر أن المبشرين المسيحيين الآن يسلكون هذه الطرق من حسن التعامل والاندماج بالأهليين والإصهار إليهم لاجتذابهم إلى المسيحية ، وهم الآن فى هذا أنجح وأرقى من المسلمين .

وبعد أن مهد التجار المسلمون الأوائل لظهور الإسلام والتعرف عليه ، ظهرت وسائل أخرى ذات آثار معروفة ، فهناك جماعة الحجاج ، وهم جماعات أدوا الحج واختلطوا بوفود المسلمين فعادوا مقتنعين بوجوب شيوع الإسلام فى بلادهم ، وعملوا على نشره فى كثير من الجد والإخلاص ثم هناك المعلمون والفقهاء ، وهؤلاء كان أثرهم أكبر لما كانوا يبثونه من ثقافة الإسلام وأحكامه ، ولا يقل عن هؤلاء دعاة الإصلاح من أتباع الدعوة الوهابية والسنوسية بل لعلهم كانوا أكثر فاعلية وتأثيراً .

ولا يزال فى أندونسيا إلى الآن وثنيات ، وهناك أيضاً البوذية ، وهى قوية فى جزيرة بانى وبها المعبد الرئيسى وهى أيضاً فى جب وجاكارتا . وهم يحافظون عليها تراثاً ، ولكن التنافس بين المسيحية والإسلام فقط ، وأكبر الظن أن التجار الهنود هم الذين قادوا الإسلام إليها ، هذا لقدم الصلة بين الهند وهذه الجزر ، وقد كان فى الدكن مركز تجارى للعرب يختلطون فيه بالهنود ، ونقلوا إليه الإسلام ، وكان للهنود صلة أكثر بسومطرة ، وهناك قصة ذكرها -أرنولد- مع شىء من التحفظ تذكر أن داعية يسمى « عبد الله عارف » وفد على هذه الجزيرة منتصف القرن الثانى عشر الميلادى وقام بعده تلميذ له

يدعى برهان الدين بنشر الإسلام على الساحل الغربى ، وفى أوائل القرن الثالث عشر ١٢٠٥م كان ملك سومطرة هو جيهان شاه ، وهو داعية إسلامى قدم إلى الجزيرة فتبعه الكثيرون وأجلسوه وتزوج منهم ، وبلغ من حبهم له أن نصبوه ملكاً عليهم ، فإذا كانت القصة كلها من نسج الخيال فإن لها دلالة على أن هناك قوماً كانوا يحبون هذا الدين ويحبون رجاله ، وقد جاء فيما كتب الرحالة العربى ابن بطوطة والآخر الإيطالى ماركوبولو وصفاً لسكان هذه الجزيرة بالوثنية وتأخر المظهر الحضارى ماعدا جزءاً صغيراً كان يدين بالإسلام ويمتاز أبناؤه بالنظام والنظافة وحسن الأخلاق . وكلا الرجلين زارها فى القرن الثالث عشر وبعده ، وجاء فى كلام « ماركوبولو » إن سكان المدن وحدهم كانوا مسلمين لأن تجار العرب « كما ينبغى أن يعلم » قد بلغ من كثرة ترددهم على هذه المملكة أنهم أدخلوا الأهالى فى شريعة « محمد » وبسبب وفود التجار المسلمين على الموانى الغربية انتشر الإسلام بها بينما تعثر فى الداخل وعلى المرتفعات حيث كان السكان لعزلتهم جامدين على وثنياتهم الموروثة .

وفى القرن الثانى عشر نفسه أرسل شريف مكة بعثة لإرشاد أهل سومطرة إلى الإسلام وكان يقودها إمام يدعى الشيخ إسماعيل فوصلت إلى بلدة باسورى Pasuri فاقتنع السكان بدعوته ثم مضت البعثة شمالا على الساحل حتى الجانب الآخر من الجزيرة ، وقد قابلوا فى شمال جزيرة سمدرة (سومطرة) ملكها فاقتنع بدعوة الإسلام وتسمى باسم الملك الصالح .

وكانت دعوة الشيخ إسماعيل ذات نجاح كبير ، فبسببها انتقل الإسلام من الساحل إلى داخل الجزيرة ، ويصف ابن بطوطة حاكم سمدرة عندما زار هو الجزيرة سنة ١٣٤٥ بأنه كان مسلماً سنياً غيوراً على دينه ، وقد حارب هذا الملك الوثنية وكان بلاطه مأوى الشعراء والفقهاء ، وكان مولعاً بعقد المناظرات بين رجال الدين[١] .

(١) سمدرة هى سومطرة ، وراجع رحلة ابن بطوطة جـ٤/٨٩ وما بعدها وجـ٥/٦٦ وانظر Wells P 183 .

ونظراً لأن البلاد كانت تعيش على نظام قبلى ، وكانت القبيلة القوية تكون مملكة ، فإن أثر هذه القبائل الكبيرة أو الممالك فى نشر الإسلام أو تعويقه كان ذا أثر بالغ . ونذكر من هؤلاء قبيلتين فى سومطرة .

أولهاهما قبيلة منانج كاباو[١] التى امتدت مملكتها على الساحل الغربى بين خطى ٢ شمالاً ، ٢ جنوباً من خط الاستواء ثم توغلت فى الجزيرة حتى وصلت الساحل الشرقى ، وكانت تحارب الإسلام لتأصل الهندوكية فى نفوس حكامها ، ولكن الشعب فى الداخل وعلى السواحل أحب هذا الدين وآمن به فاضطرت الأسرة الحاكمة والدولة كلها إلى اتخاذه ديناً .

والقبيلة الثانية التى لم تسرع إلى الإسلام هى قبيلة البتك[٢] والإقليم أيضاً يسمى باسمها وهو فى شمال الجزيرة ، وقد آثر حاكمها البقاء على وثنيته لكن السكان الذين كانوا يجاورون المسلمين فى اتجية[٣] أحبوا الإسلام واتخذوه دينا ، وفعل فعلهم جماعة آخرون من سكان الجبال وفريق ثالث على الساحل الشرقى ، فظل الإسلام ينمو ويمتد بينهم ، وأغلبيتهم الساحقة الآن مسلمة وبينهم قلة ضئيلة جداً وثنية وقلة أخرى مسيحية ، وبينهم مراكز تبشيرية قوية اكتسبت كثرة من الوثنيين خصوصاً القريبين من جاكارتا .

ويدل كل شىء فى هذه الجزيرة — وهو أمر متبع أيضاً فى غيرها — أن سكانها لا يخضعون إلى العنف ولا يقبلون الدين إلا اقتناعاً وطوعاً ، ففى أوائل القرن الرابع عشر كانت أسرة بدرى Padri المسلمة المتعصبة تحاول فرض الإسلام على البتك ، فحاربوهم وقتلوا منهم كثيرين وخربوا بلادهم فلم يستجب لهم أحد ، ولما جاءت الحكومة الهولاندية ، وقفت هذه الحركة ، فبدأ أبناء البتك يتعرفون على الإسلام وأخذ الإسلام يتسلل بينهم ، واستقدمت الحكومة الهولاندية موظفين من الملايو كانوا مسلمين ، فدعوا إلى الإسلام

---

(١) Minang Kabau .

(٢) Batak .

(٣) Atakeh .

بقولهم وبسلوكهم فامتدت موجته ، وأكثرية القوم الآن كما قلنا مسلمة ، ويبدى آرنولد تعليلات لهذا التغير الكبير ، منها أن الاستعمار الهولاندى أزال نعرتهم القومية ، أى أنهم كانوا يعتبرون فرض الدين عليهم من آل البدرى نوعاً من الإخضاع والإذلال ، وقد ذلوا جميعاً للمستعمر الأوروبى ثن رأوا أن التفهم وبحث الحقائق أولى من الإصرار على الباطل ، ومنها أن الإرساليات المسيحية أشاعت نوعاً من الثقافة به جنح القوم إلى التفكير والبحث المنطقى فآثروا الإسلام عن علم وتفكير ، حتى أن قريتين من البتك كانتا قد هجرتا الوثنية إلى المسيحية فلم تلبثا إلا قليلاً حتى دخلتا الإسلام بأسرهما ، ومنها أن أئمة الإسلام – بما للإسلام من سماحة وحب للمساواة والعدل – اقتربوا من نفوس القوم فجعلوهم يميلون إلى الإسلام ويحبونه ، ولعل هذا أقرب قبولاً ، وأصدق دليلاً .

وهناك أسر كبيرة أخرى لها مثل هذا الموقف ، وتقدم الإسلام على أى حال فى هذه الجزيرة وبقية الجزر لم يأت إلا فى القرن السادس عشر وما بعده ، وقد ظل ينمو ويمتد حتى جاءت الإرساليات التبشيرية بمؤثراتها المادية وأساليبها الحديثة فضارته كثيراً ، وقابل نشاطها فتور من جانب الدعاة المسلمين ، وبدأت أخيراً وفود مسلمة تتجه إلى الأزهر ، وكنا نود أن تجد الغذاء الروحى والدينى الكافى ، ولكن أخذ القليل خير من ترك الكثير .

ودخل الإسلام الجنوب الأقصى للجزيرة ، ومملكة بنتام[1] على الساحل الجنوبى الغربى لجزيرة جاوه عن طريق جزيرة سومطره التى لا يفصلها عن بنتام إلا مضيق ضئيل ، وعلى أى حال كانت الموانى والمراكز التجارية هى الأمهات التى استقر فيها الإسلام ثم انتقل منها إلى ما سواها .

وليس تاريخ الإسلام فى جاوه أقل غموضاً ، ولكن ترجع بدايته فيما يقال إلى نهاية القرن الثانى عشر حيث حاول إبنٌ لأحد الملوك على الشاطىء الغربى

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام ص٤١٠ .

أن يبث الإسلام فى مملكة أبيه فلم يفلح ، فهرب إلى باطن الجزيرة ولم يظهر بعد ، ولكن يبدو أن دعوته تركت أثراً لدى بعض الأفراد .

وفى النصف الأخير من القرن الرابع عشر جدت حركة دينية نالت حظاً من النجاح على يد داعية جديد كان يدعى « مولانا ملك إبراهيم »[١] يرجع نسبه إلى على زين العابدين ، ولعله من شيعة الفرس وقد استطاع أن يضع بذور الفكرة الإسلامية بوجه ما على الساحل الشرقى ، ثم وفد أحد أقربائه وكان يدعى « راجاتشرمن » ومعه بعض أعوان له ، فبذر للإسلام بذوراً أخرى ، وكان يطمع فى أن يستميل للإسلام مملكة هندية تدعى « ماجاباهيت » فلم تنل دعوته لديها نجاحاً ، ولكنها تركت أثراً أكبر فى نفوس الآخرين ، ثم كان توالى التجار ونمو الفكرة يدفع الأهليين إلى الدخول فى الإسلام تدريجياً ، فلم يمض قرن حتى كان عدد المسلمين قد كثر وأصبح لهم تدخل فى شئون البلاد ، لأن هؤلاء الأهلين فى البقعة كلها يربطهم الجنس واللغة ووفد عليهم أيضاً مسلمون من الصين بقصد الاستيطان فكانوا شرياناً ثالثاً – بعد العرب والهنود – لتغذية الدعوة الإسلامية .

ويوجد فى جاوه عدد من مقابر الدعاة الأولين تحمل كتابات عربية ، وأشهرها قبر « إبراهيم »[٢] على الساحل الشرقى من قرية جريسك Grisik وقبور الأولياء التسعة فى « سورابايا » وجنوب جاكارتا .

وحسبنا هذه الصورة عن وفود الإسلام وتأصله فى تلك البلاد .

السياسة ودعـوات الـدين :

عرف الرحالون فى القرن الخامس عشر هذه البلاد ، وكانت البرتغال – أميرة الغزو البحرى – أول من استولى عليها قبل نهاية هذا القرن ، فاستفادوا من خيراتها كثيراً ولم يقدموا لأبنائها خدمة ما ، وأجلاهم الهولانديون بعد

---

(١) له قبر يزار فى مدينة سورابايا Sorabaya .

(٢) أخبرنا بعض الأندونيسيين أن اسمه المشهور بينهم هو سونان جيرى Sunan Geri .

مائة عام تقريباً فرحب أهل البلاد بهم لما كانوا يحملونه للبرتغاليين من بغض وأملوا فى هؤلاء خلاصاً مما عانوا ، ولكن الهولانديين الذين توددوا إلى الأهلين أول ما قدموا مالبثوا أن خضعوا لجشع تجارى أضر بالبلاد ، فكان لهم عديد من الشركات التجارية رأوا أخيراً أن يجعلوها شركة واحدة سموها « شركة الهند الشرقية الهولاندية » على نسق « شركة الهند الشرقية » الانجليزية التى مكنت للاستعمار الانجليزى فى الهند ، وأثناء الحروب الأوروبية على عهد نابليون استولت فرنسا على جزء من أملاك هولاندا ، واستولى الانجليز على جزء آخر ، وكانت هولاندا وانجلترا معاً تتفقان ضد نابليون ، فلما هزموه معاً فى « واترلو » استردت هولاندا أملاكها فى جزر الهند الشرقية ، وبقى للانجليز جزء منها ، وظل الأمر كذلك حتى نالت البلاد استقلالها حين تقلص الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥ .

كان الحكم الهولاندى مسيئاً للأهلين ، بدت فيه دسائس الاستعمار بإثارة التنافس والعداوات بين السكان ، وضرب بعض القبائل ببعض ، وحاربت هولاندا دعوة الإسلام طوال ما حكمت لأنها رأت فيها عدواً يقض مضجعها ، ومع ذلك اتهمها المبشرون بأنها تعين الإسلام ضدهم .

كانت روافد الدعوة الإسلامية تأتى من الحجاج ، وقد عاصر هذا العهد قيام الدعوة الوهابية ، فاقتنع بها حجاج أندونيسيا وعادوا بها إلى بلادهم يحاربون عادات الوثنية الموروثة هناك .

وصادفت دعوتهم قبولاً لدى الكثيرين ، وأعرض عنهم كثيرون أيضاً ، ومن منهجها أنها كانت تدعو إلى التحرير من أى سلطان إلا سلطان الخالق ، وكان هذا المنهج مما يضايق الدولة المحتلة ، وكان عدد الحجاج يزداد عاماً بعد عام ، فلجأت الحكومة الهولاندية إلى الحد منه برفع أجور الحج – وبالحد من التصريحات التى تسمح للحجاج بالخروج ، وبذا قل عدد الحجاج جداً ، ومع مرور الزمن ضعفت الدعوة الوهابية وقل نشاط القائمين بها فلم يعد الحجاج يجدون بمكة هذا الغذاء الثائر الحار الذى كانوا يجدونه من قبل ، وتنشيطاً لحركة الحج تكونت مراكز فى عدد من الجزر تساعد الراغبين فى الحج .

وامتدت إلى أندونيسيا دعوة الإصلاح التى نادت بها مدرسة الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا ، وبها قامت وحدة ثقافية تربط المسلمين برباط فكرى من غير احتكاك بالسياسة ، وكان تفسير المنار وكتب الشيخ رشيد رضا تقرأ هناك ويقبل عليها المثقفون ، ثم أنشأ المسلمون جماعة إصلاحية سموها « شركة إسلام » أى الجماعة الإسلامية ، فما لبث أن نمت وانضمت إليها جماعات أخرى كانت أقل عدداً وسموا أنفسهم « مجلس سجورو مسلمين أوندنيسية Madjlis Sijuro Muslimin Indonesia » « وهو يعنى مجلس شورى مسلمى أندونيسيا » .

وأدى عامل اللغة هناك دوراً آخر فإن الهولانديين جعلوا اللغة الملايوية هى اللغة الرسمية فى البلاد عدا مدينة جاكارتا ، فاحدث هذا وحدة بين الجزر الأندونيسية ، كما ربطها بالملاويين فى ماليزيا والهند الصينية ، كذلك قضى على اللهجات المحلية المتعددة ، إذ كان لكل مجموعة من الجزر أو جزيرة كبيرة نسبياً لغة خاصة ، وكان يوجد بالجزيرة الواحدة الكبيرة عدد من اللغات بحسب القبائل التى بها . وكان المسلمون يعرفون اللغة الملايوية أكثر من غيرهم ، وقد استقدمت الحكومة الهولاندية عديداً منهم للقيام بأعمالها الرسمية فى مختلف الجزر والمدن ، فكانوا دعاة إسلاميين ناجحين ودخل الإسلام بسببهم عديد من أبناء أندونيسيا ، وهذا ما جعل المبشرين يتهمون الحكومة بمساندتها للإسلام .

أما الانجليز فقد فرضوا لغتهم لغة رسمية على الجزر التى كانت تحت أيديهم ولكنهم من جانب آخر عملوا على إحياء اللهجات المحلية وأبجديتها ، ولعل ذلك من أصابع السياية الانجليزية التى ثبتت لغتها من جانب وفرقت بين أبناء البلاد من جانب آخر ، وكان ذلك عائقاً للحركة الإسلامية .

ومنذ القرن التاسع عشر قامت نهضة إسلامية كادت تشمل الجزر كلها ، وبها أخذت اللغة العربية مكاناً وكثرت الأسماء العربية حتى نجد للولد إسماً يختلف فى نطقه العربى عن اسم أبيه الأندونيسى . ويوجد من الأندونيسيين الدارسين الآن طلاب فى العديد من الجامعات والمدارس العربية ، ولكنهم

لا يوازنون بدعاة المسيحية ، لأن معاهدنا الشرقية الآن ضعيفة فى مناهجها وفى تكوينها الدراسى ، ولا يستفيد منها الوافدون لغة عربية قوية ، وقد رأيت الطلبة الذين يدرسون فى الجامعة الأمريكية وفى بعض مدارس الاستشراق يفيدون من اللغة العربية أكثر مما يفيد طلاب المعاهد العربية ، وهذا مؤسف حقاً .

ويوجد فى أندونيسيا الآن جمعيتان إسلاميتان كبيرتان – هما « جماعة نهضة العلماء » أسسها الشيخ هاشم أشعرى سنة ١٩١٢ ، وهى تعنى بتعليم الفقه على الطريقة المذهبية ، والمذهب السائد هو المذهب الشافعى ، والجمعية الثانية هى الجمعية المحمدية أسسها الحاج محمد دحلان سنة ١٩٢٦ ، وتعنى ببث العقيدة السنية وتعاليم المذهب الوهابى ، ولا ترى شدة التمسك بالفقه المذهبى .

وهناك الحزب الإسلامى ، وهو حزب سياسى أعضاؤه من هاتين الجمعيتين ، وهو الذى ورث جماعة ما شومى ، وقام بجانب كبير من أعمالها بعد أن حلها الرئيس سوكارنو سنة ١٩٦٠ ، وكان قيام هذا الحزب فى عهد الرئيس سوهارتو . هذا مجمل مايذكر عن الإسلام فى تلك الجزر ، وموقفها الحالى يدعو إلى الرثاء للإسلام والمسلمين ويهيب بالمسلمين فى كل بلد أن يؤدوا واجب العمل للإسلام هناك .

٣ – نشـــاط التبشـــير :

يبدأ النشاط التبشيرى فى هذه الجزر بالقرن الثامن عشر ، ولم تكن البلاد خالية من المسيحية قبل ذلك ، فقد كانت الحملات الكشفية تصطحب معها القسس ليبشروا بالإنجيل ، ولكن الدعوة لم تحرز تقدماً خلال حكم البرتغاليين ، وأثناء حكم هولاندا فى القرن السابع عشر أرسلت بعثة هولاندية لكل من أندونيسيا وماليزيا ، كان القسس فيها يقومون بأعمال مدنية ، ومهمتهم الأولى هى العناية بالجانب الروحى فى حياة الموظفين الهولانديين ، ولم يعلنوا أنهم مكلفون بتنصير الوثنيين ، ولكن – الحكومة كانت قد خصصت مكافآت سخية يتسلمها كل مبشر فوراً عن كل شخص يدخله المسيحية ، مما

جعل القسس يفتنون فى استمالة الأهلين إليهم وإدخالهم فى حظيرة الإنجيل ، وعومل المسيحيون معاملة ممتازة فى الرواتب وأولية المنفعة واعتبروا طبقة أرقى فكان ذلك حافزاً آخر لدخول المسيحية ، وأولى رجال السياسة أعمال الدين ودعاته رعاية خاصة فكثر الإقبال على هذا الدين حتى أعلنت الحكومة الهولاندية آخر القرن أنه يوجد فى مدينة يافا Java ١٠٠,٠٠٠ مسيحى و ٤٠,٠٠٠ فى مدينة اميون . ولم تكن هولاندا حتى هذا الوقت قد استولت على جميع الجزر وكانت اللغة حاجزاً بين القسس والأندونيسيين .

وفى سنة ١٦٨٨ ترجم العهد الجديد إلى اللغة الملايوية ، وكانت هذه أول ترجمة إلى هذه اللغات الشرقية ، إذ لم يترجم قبلها إلى أى لغة منها ، —وفى سنة ١٧٣٤ أى قبل منتصف القرن الثامن عشر —عصر النهضة التبشيرية— ترجم الكتاب المقدس كله إلى اللغة الملايوية ، وكتب بحروف لاتينية ، ثم كتب بحروف عربية سنة ١٧٥٩م ، وهذا يعنى أن اللغة العربية كان لها كيان فى هذه الجزر لم تستطع اللاتينية أن تحل محله . وفى سنة ١٧٧٦ كان يوجد فى أندونيسيا كلها ٢٢ قسيساً رئيساً Minister بينهم خمسة فقط يعرفون لغة البلاد ، وفى هذا القرن (الثامن عشر) تم استيلاء هولاندا على البلاد كلها ، فازدادت حركة التبشير نشاطاً واتساعاً . وتحاشى الهولانديون أخطاء أسلافهم البرتغاليين ، فقد انهمك هؤلاء فى التجارة ، وظلوا تجاراً غرباء عن البلاد ، ولكن الهولانديين عملوا على تكوين شركة موحدة ، وأنشأوا لها مركزاً أو مراكز مستقرة جعلتهم أصحاب حق فى البلاد وفى الإقامة ، على نحو ما فعل الانجليز فى الهند ، وما اتخذ فى الصين ، وكان التجار المسلمون قد فعلوا ما هو أعمق وأثبت إذ توطنوا فى البلاد .

وفى سنة ١٨١٩م أسس الانجليز مدينة سنغافورة[1] وثبتوا بها نوعاً من سيادتهم فى منطقة الملايو ، وهى منطقة ذات قيمة فى نظر المبشرين لأنها وصلة

(١) جزيرة صغيرة فى الجنوب الغربى وحولها جزر أخرى ، وقد اتخذها الانجليز قاعدة لهم . شبيهة بعدن مستعمرة التاج البريطانى، وسكان سنغافورة الآن يبلغون نحو مليونين ونصف المليون من جنسيات=

إلى الصين ، وحقاً ما كادت الصين تفتح حتى وثبت إليها إرساليات من الملايو فاستقرت فى هونج كونج وسواحل الصين ، والذى يعنينا فى هذا الموقف هو أن التبشير انتقل من سنغافورة إلى جزيرة بورنيو ، ويبرز فى هذا رجلان كبيران من رجال التبشير هما جيمس بروك James Brook ، وتوماس مكدوجل Thomas McDogall أما بروك فكان رجلاً محظوظاً وسياسياً لبقاً استطاع أن يصل إلى منصب ولقب راجا ، وكان يسمى «الراجا الأبيض» لمدينة سرواك[١] فعمل على استقدام إرساليات إلى بورنيو ، واستجابت له جماعة برلين الألمانية فبعثت إرساليتين ، كان مكدوجال على رأس واحدة منهما ، وهو طبيب وقسيس ، وهو من رواد التبشير ذوى الشخصيات القوية ، وكانت هذه البعثة سنة ١٨٤٧ وواجهت صعوبات كثيرة ولم يستجب لدعوتها إلا قليلون جداً ، ولكن بشىء من الجرأة والرغبة فى تثبيت الإنجيل ، وحيث تلقى مدداً جديداً لتقوية دعوته قرر فى سنة ١٨٥١ افتتاح خمس كنائس هى أول ما أسس هناك ودعا المتنصرين الجدد إلى العشاء الربانى ، وأثبتت الإرسالية رغم الصعوبات نجاحاً جعل البابا فى كلكتا يعلن أنه لا يوجد على وجه الأرض إرسالية تعادل إرسالية بورنيو ، ثم عين مكدوجال بابا لمستعمرة بريطانيا فى بورنيو التى سميت بعد باسم سرواك .

ومنذ أوائل القرن التاسع عشر كانت هولاندا بعثت بإرسالية إلى جزيرة سيلبس ، ثم عززتها بعد ذلك إرسالية مشتركة من شرق الأنديز وهولاندا معاً ، وكانت قد صادفت أول أمرها ما تصادفه كل الإرساليات البادئة ، ولكن

= متعددة ، بينهم ٤٠٠ ألف مسلم . وبها نحو ١٠٠ جماعة إسلامية ، ويشرف عليها المجلس الإسلامى السنغافورى – وهو يطالب بحقوق المسلمين لدى الحكومة ، ويشرف على جمع الزكوات وتوزيعها . ويعين رئيس المجلس بقرار جمهورى ويعاونه المفتى و ١٢ عضواً ، ومن وظائف المجلس أن يرد على ما يثيره المبشرون من شبهات ضد الإسلام . وهو يعلن حاجته إلى مدرسين من الأزهر .

الأهرام ١٩٨٣/٦/١٠

(١) Serawak .

عند نهاية القرن كانت أكثرية الجزيرة قد تنصرت ، وسرعان ما صادفت العقبة الكبرى وهى دعوة الإسلام وجماعة المسلمين ، ففى المنطقة الإسلامية عز على المبشر المسيحى أن يكسب ما كسب فى غيرها من الأنصار ، وكان يزيد الدعاة الإسلاميين قوة ما فيهم من دماثة ومسالمة وحسن إخاء ، بينما كان الأهلون يضيقون بدعاة المسيحية ويشعرون دائماً أنهم مستعمرون يريدون أن يتملكوهم وينتزعوا بلادهم منهم .

وفى مستهل القرن العشرين كانت الإرساليات تشغل كل جزيرة لها حجم ، وكانت الأسبقية والأكثرية للبروتستانت بمختلف فروعهم ، وظفر جماعة الميثوديزم بنتيجة أقوى من حيث العدد والمعونات المادية ، وتخلفت الكنيسة الكاثوليكية إذ لم يكن لها فى منتصف القرن التاسع عشر إلا نحو ثلاثين كنيسة ، وكان عملها ضئيل الأهمية لأنه كان مقصوراً على الأوروبيين وفى الجهات التى يكثرون فيها . وأكبر نجاح صادفه التبشير هناك جاء بسبب تعاون الكنائس والأقطار فكما رأينا كانت هولاندا وأمريكا والألمان يساند بعضها بعضا فى إرسال البعثات والإنفاق عليها . وحين اتخذ قرار الستينيات الماضية بتنصير البلاد وضع له برنامج أهم خطوطه هذه الأعمال :

١ - بذل عناية من جانب المرسلين للمسيحيين فهم يقدمون فى المدارس وفى العلاج الطبى ، ولا يحرم الآخرون من هذه المعونات ولكن يؤخرون ويشعرون بتقديم المسيحيين كى يدفعهم ذلك إلى الدخول فى المسيحية .

٢ - الإكثار من المدارس والمستشفيات لهذا الغرض ، ومدارسهم ذات تعليم راق جيد يهيىء لمستقبل حسن ومستشفياتهم أكثر عناية بالمرضى وأوفر آلات وأرق استعداداً .

٣ - الإصهار إلى الأندونيسيين بالزواج منهم وبتزويجهم أوروبيات مسيحيات ، وفى كلتا الحالتين يكون الأولاد مسيحيين ، وقد أقبل الأندونيسيون على الزواج من الأوروبيات ، وهن ينشئن أولادهن تنشئة مسيحية .

وموقف الإسلام إزاء هذا كله هو موقفه فى كل مكان يقبل عليه من يقبل لما له من مبادىء ويعرض عنه من يعرض لعدم المعرفين به ، ودعاة الإسلام مع قلتهم ينقصهم الثقافة .

والمسلمون الآن هم الأكثرية الساحقة ويليهم البوذيون ثم المسيحيون ثم الهندوك ، وتوجد وثنيات أخرى ضئيلة جداً ، وعلى هذا النشاط الهائل والنفقات الطائلة ارتفع عدد المسيحيين الآن إلى نحو أربعة ملايين أو نحو ٥٪ من مجموع السكان ، ولم ينص الدستور الأندونيسى على أنها دولة إسلامية ولا على أن الإسلام هو دينها الرسمى[١] ولكنه نص على حرية الأديان ، وتلعب الأديان دوراً هاماً فى الشئون السياسية ، وتحرص الكنائس العديدة على إبراز المسيحية وترسم فى خططها تدخل المسيحيين فى تيارات السياسة ، وقد اختير بعض منهم فعلاً عضواً فى البرلمان واعتبر هذا نجاحاً كبيراً للديانة بكل كنائسها ، ومع تخلف الخطة التى رسمت من تنصير جاكارتا فى خلال عشرين عاما لم ييئس الدعاة ولم تفتر حركة التبشير وأكثر ماتتميز به هو تفانى المبشرين فى التنصير وقد ترجم الآن الكتاب المقدس كله إلى اللغة الأندونيسية ، واستطاعت بعض الكنائس أن تجند قسساً من الوطنيين ليكونوا أقدر على دعوة إخوانهم ، وهو المنهج الذى تجرى عليه الكنائس المختلفة منذ زمن غير قريب .

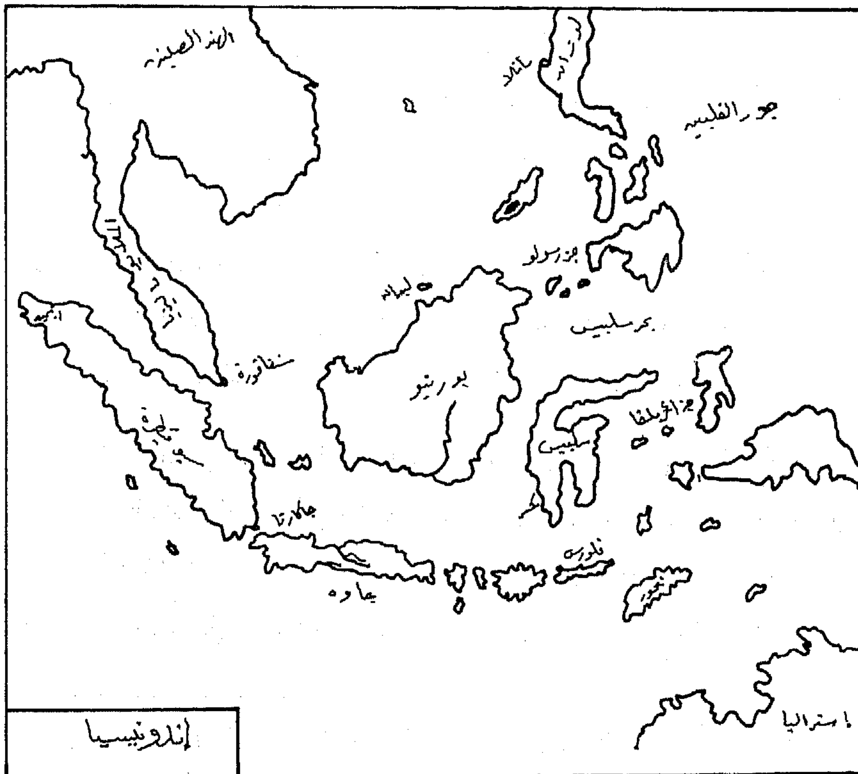
ويقول المبشر البروتستانتى « أدوين » أن عقيدة الإسلام هناك سقيمة لأن أهل هذه البلاد كلها (جزر الملايو وأندونيسيا) لم تسلم على يد علماء ، ولم تعرف الإسلام إلا فى القرن الثالث عشر فمزج أهلوها به شيئاً من عقائدهم ، ثم اقتبسوا شيئاً من الكاثوليكية فى العصر المغولى ، ومن البروتستانت فى العهد

---

(١) كان مفروضاً أن يتم هذا عند إعلان هذا الدستور ، وكانت الجماعة الإسلامية قد عقدت مجلساً اتخذت فيه هذا القرار ، ولما لم يتضمنه الدستور عند إعداده وإعلانه رأوا من الحكمة ألا يثيروا حوله ضجة ، وعملوا من قبلهم على تنشيط الدعوة الإسلامية « وحزب » الماشومى « أى مجلس الشورى الإسلامى » ويسمى بالأندونيسية Party Parsatan Pembany unan Tudonrsia .
أى حزب اتحاد نهضة أندونيسيا .

الهولاندى[1] والمعركة الآن عنيفة بين الديانتين ، ومراكز النشاط التبشيرى فى سرواك وصباح Sabah تعتبر أقوى مراكز التبشير وأكثرها نشاطاً ، وهى تدخل فى المسيحية كثيراً من الوثنيين والمسلمين أيضاً .

وأنجح مايكتسب به التبشير اتباعاً للمسيحية هو المدارس ، فهى تهيىء للوظائف والمستقبل الأوفر جاهاً ومالاً ، وفيها يلقن الناشئون تعاليم المسيحية ومبادئها كما يلقنون الزراية بالإسلام والصد عنه، وقد كان المسلمون أول الأمر يعزفون عن هذه المدارس حين يدعون إليها ، ولكنهم الآن يتهافتون عليها لما بها من مغريات .



(١) الغارة على العالم الإسلامى ١٨ .

خامساً : فى جـزر الفـلبين

١ - تعـريف :

جزر الفلبين مجموعة من الجزر تزيد على سبعة آلاف ومائة جزيرة وأكبرها كما يبدو فى خريطتها جزر لوزان وفيزان ، ومندناو وسولو .

وكان الملاح المخاطر البرتغالى الأسبانى ماجلان أول من عرف هذه الجزر فى رحلته الطويلة المعروفة ، وقتل فى جزيرة ماكتان وجعل لحمه طمة للكلاب ، وعرفت أسبانيا منذئذ هذه الجزر(١) فجردت لها حملات متتالية ارتكبت جرائم فظيعة مع الأهلين ، وأطلق عليها اسم الفليبين نسبة للأمير فيليب الذى كان ولى عهد أسبانيا ثم صار ملكاً لها ، وهو فيليب الثالث الذى قضى على بقايا المسلمين فى أسبانيا ، قتل منهم من قتل ورمى بالآخرين فى البحر ، وسميت أيضاً جزر البهار لما وجد فيها الأوربيون من البهارات والبقول ، ولم تكن كل هذه الجزر مجتمعة تحت وحدة حكومية أو سياسية ، ولكن كان رؤساء القبائل القوية يحكم كل واحد منهم مجموعة صغيرة أو كبيرة من الجزر ، واتصال بعضها ببعض عن طريق القوارب ، وصلة الأهلين هى صلة الجوار وتبادل المنافع ، وكانوا يعيشون حتى وقت الكشوف الحديثة على الزراعة والرى والصيد وهم - شأن البدويين - مهرة فى الرماية ذوو خشونة وعنف تغلب عليهم نزعة الاستقلال ولا يقبلون سيطرة الأجنبى عليهم .

---

(١) كان ماجلان برتغالياً ، ولغضبة الملك مانويل عليه تجنس بالجنسية الأسبانية فى عهد الملك كارلوس الأول سنة ١٥١٤ ، وبعد خمسة أعوام قام بحملة مكونة من خمس سفن و ٢٧٥ بحاراً ليدور حول الأرض ، وهو أول من عبر المحيط الهادى ، وبعد نحو مائة يوم من مغادرة رأس العذراء جنوب أمريكا الجنوبية وصل إلى جزيرة جوارم ، واستقبله سكان الجزر التى مر بها استقبالاً حسناً ، ولما طلب من ملك مقتان تقديم الولاء لملك أسبانيا ودفع جزية له غضب الملك ، وقتله وبعضاً من جنوده - ثم دعا الذين فى السفن للطعام وأخذ مجوهرات وهدايا لملك أسبانيا ، فحضروا عدا اثنين وبعض العمال - وكانت مجرد خدعة إذ قتلوا جميعاً ، وعاد الاثنان الباقيان - بسفينه واحدة وصلت أسبانيا سنة ١٥٢٢ ، وكل الذين بقوا من الرجال كانوا نحو ١٨ رجلاً ، - وأقيم لماجلان تمثال فى مقتان وأطلق اسمه على مضيق ماجلان جنوب أمريكا لأنه أول من كشفه وعلى خليج بجانب مقتان أيضاً .

والسكان ينتمون إلى الفصيلة الملايوية ولم يكونوا حتى عهد كشف بلادهم يُخالطهم أجناس أُخرىٰ إلا أفراداً قلائل من النازحين ، وكانت الجزر الجنوبية - التى أكبرها مندنا وسولو - على اتصال قوى بجزيرة برنيو الأندونيسية وما حولها من الجزر ، وكان هذا الاتصال يقوم على تبادل التجارة والمنافع الأخرى وكانت لهم ديانات وثنية لا تعرف حقيقتها لأنها كانت تختلف بين جزيرة وأخرى ، ولم يعن أحد بتدوينها .

٢ - دخـــول الإســـلام :

تسرب الإسلام إلى الجزر الجنوبية على أيدى التجار الذين كانوا يذهبون إلى الجزر الأندونيسية والملايو ، والمعروف عن هؤلاء التجار أنهم كانوا يتخذون لهم أماكن ومواطن إقامة ، وأنهم كانوا يصهرون إلى الأهلين ، وكانوا فى كل هذه الجهات يستهوون الناس بحسن معاملتهم ، ودماثة أخلاقهم وعفتهم ، وبهذا اجتذبوا الكثيرين إلى الإسلام ، وقد ذكرنا شيئاً عن هؤلاء - التجار فى الحديث عن الهند وجزر أندونيسيا - وهذه التجارة كانت مزدهرة فى هذه الأقاليم الشرقية خلال القرنين الثانى والثالث الهجريين ، وكانت فتوحات المسلمين فى العهد الأموى قد أعطت فكرة عن الإسلام والمسلمين ، وتبع هذا الاتصال التجارى هجرات من العرب ومن غير العرب ، إذ كانت هذه البلاد كثيرة الخيرات قليلة السكان ، كذلك رحل إلى هذه الجزر دعاة متطوعون من محبى الإسلام ومن أرباب الطرق الصوفية ، ووجد فى تاريخ الإسلام هناك أسماء تنتمى إلى الحسن والحسين ابنى على ، وقد يكون ذلك أمراً حقيقياً وقد يكون غير حقيقى على نحو مارأينا فى تاريخ الصين ، ومن الأسماء المشهورة من هؤلاء الشريف إبرهيم الأكبر جمال الدين الحسينى وله الآن هناك مسجد ومزار ، وهو أول من أقام حكومة إسلامية هناك سميت « سلطنة سولو الإسلامية » وسولو جزيرة كبيرة يتبعها عدد من الجزر الصغرى ، وجزر أكبر نسبياً ، منها « مندانا » و « باسيلان » التى بها الآن مقر الجماعة الإسلامية ، وتاوى تاوى ، و « بالاوان » وبورنيو الشمالية ، ونحت السياسيون لهذه المنطقة اسم

« منسوبالا » «Minsupala» بأخذ حرف من أول إسم كل جزيرة كبيرة ، وأرخبيل سولو ملىء بالجزر الصغيرة ويسمى المسلمون أيضاً « مورو » وهى كلمة جاءت من الأسبان تعنى « المسلمون الصغار أو القلائل »[1] .

وواضح أن دخول الشريف إبراهيم كان بعد أن عرف الإسلام واعتنقه الكثيرون ، وكان العامل الروحى والسلوكى وشرف النسب فيه أكبر المؤثرات فى التفاف الناس حوله وحرصهم على تنصيبه ملكاً عليهم ، وبتوليه ملكهم أصبح هناك إقليم يتسم بالإسلام حكومة وديناً ، ولم يشمل كل الجزء الجنوبى ولكنه شمل جزءاً كبيراً ، ولم تكن الأجزاء الشمالية منبته عن الجنوب ولا عن بورنيو ، فمن المعروف أن صلة مصاهرة كانت قائمة بين أمراء مانيلا وأمراء بورنيو فضلاً عن الرابطة العرقية القديمة . .

وفى أوائل القرن الخامس عشر . بسبب ازدهار التبادل التجارى قدم من سومطرة إلى سولو جماعة من التجار المسلمين من الشعب الملايوى ، ويبدو أنهم كانوا ذوى حماس لنشر الإسلام ، وأنهم هم أنفسهم كانوا دعاية طيبة بحسن معاملاتهم وأخلاقهم الإسلامية فكانوا سنداً طيباً للشريف ابرهيم ، ففى هذا القرن وقبل ورود الأسبان بنحو مائة عام . كان الإسلام قد أحرز انتشاراً مرموقاً ، فأقيمت المساجد العديدة ، ودلف إلى جوف الجزر متخطياً المناطق الجبلية ، وكان قبل ذلك مع التجار على السواحل ، كما دخل الجزر الكثيرة ، وأصبحت سولو عاصمة إسلامية قوية ولم يكد القرن الخامس عشر الميلادى

---

(١) كلمة مورو Moro أطلقها الأسبان على المسلمين منهم ، وعلى الشمال الغربى لأفريقية ، وهى تعنى العرب الصغار أو المغاربة الصغار ، والكلمة ذات أصل لاتينى ، إذ كان الرومان يسمون سكان غرب أفريقية مورى Mouri ويسمون الإقليم موريتانيا Mouritania أى الغربى والانجليز يسمون مور Moor من الأصل اللاتينى ، وتطورت الكلمة الأسبانية فصارت إسماً لكل المسلمين هناك وفى الشمال الغربى لإفريقية ، ومن هنا سمى الأسبان مسلمى جزر الفلبين مورو ، وظلت الكلمة تستعمل بعد ذلك ، وتسمت بها الجماعة الإسلامية التى تقوم بالدعوة الآن فى هذه الجزر .

ينصرم حتى كانت الجزر الجنوبية كلها تقريباً تعرف الإسلام وتدين به أغلبية سكانها الساحقة .

والذى لا ينسى لهؤلاء الرواد الإسلاميين أنهم أدخلوا على البلاد نوراً ثقافياً لم يكن بها من قبل، فقد علموا الأهلين القراءة والكتابة ، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عنها ، والتجار العرب كانوا قد فعلوا ذلك من قبل فى أندونيسيا ، فلما رحل تجارها إلى الفلبين كانوا يعرفون الخط العربى ومعهم بعض الكتب العربية ، ومن الدعاة المشهورين فى سولو «توهان مقبلو» توفى أوائل القرن الرابع عشر ووجد عند مقبرته كتابة عربية تفيد أنه ليس من البلاد[1] واسمه كما ترى ليس عربياً .

وظلت الوفود تفد تترى على هذه الجزر ، بعضهم مجرد دعاة وبعضهم صوفيون .. وأكثرهم تجار ويبدو أن خصوبة البلاد وكثرة خيراتها مما كان يغرى بالنزوح إليها ، وقد أحدث شيوع الإسلام بينهم رابطة قوية امتازت بأنها تقوم على المحبة ، وأنها تخلو من مظاهر الضغط والإرهاب ، وأن الناس كانوا يخلون الإسلام مندفعين بعاطفة التقدير والإجلال لهذا الدين .

وسرعان ما صارت منطقة سولو مركز إشعاع إسلامى إذ انطلق الدعاة منها إلى الجزر الأخرى جهة الشمال، وكان أتباع «توهان مقبلو» وشخص آخر يسمى «توان شايخة» يقومون بهذا النشاط ، ولم ينقطع بعد دخول الاستعمار الأسبانى .

والتاريخ التفصيلى لدخول الإسلام كل جزيرة من هذه الجزر قد يطول ، ولكن الظاهرة العامة فيه أنه كان إقبالاً مستمراً ، وربما كانت كراهية المستعمر الأوروبى مما زاد فى هذا الإقبال .

---

(١) عثر على حجر عند مقبرته مكتوب عليه : «قال النبى عليه الصلاة والسلام» «من مات غريباً فقد مات شهيداً» توفى المرحوم السعيد الشهيد توهان مقبلو فى التاريخ شهر الله المعظم رجب عظم الله رحمته سنة عشرة وسبعمائة .

٣ - دخـــول الأســـبان :

ظلت حملات الأسبان بعد ماجلان تتوالى على هذه الجزر ، ولم يكن سكانها ذوى حصون تمنعهم من المغيرين ، ولم يكن لهم أسلحة غير النبال ، وكان الأسبان ذوى قوة فاستولوا على ماوصلوا إليه من الجزر ، ولم يكونوا يعرفون كل الجزر ، ولا كل جزيرة نزلوها استولوا على كل أجزائها وكانوا قد نزلوا فى الشمال وبدأ زحفهم يمتد للجنوب فاصطدموا بالمسلمين ، وكانت شرارة الحرب الأولى سنة ١٥٦٥م ، إذ اعترض الأسطول الأسبانى سفينة تجارية للمسلمين ، وأصر المسلمون على المقاومة وأصر الأسبان على إبادة المسلمين والاستيلاء على أراضيهم، فاستمرت هذه الحروب حتى نهاية القرن التاسع عشر ، وفى سنة ١٨٩٨ كانت الاتفاقية بين أسبانيا وأمريكا وبمقتضاها سلمت أسبانيا جزر الفلبين كلها للولايات المتحدة بما فيها الجزر الجنوبية -جزر مورو- ولم تكن لأسبانيا عليها حكومة فى يوم من الأيام ، وهكذا وفجأة وجد المسلمون أنفسهم أمام عدو جديد يشن عليهم حرباً جديدة .

٤ - الســياســة الأمريكيـــة :

أصر الأمريكيون على الاستيلاء على جميع الجزر الفلبينية لأنهم اشتروها من أسبانيا ، وأبى المسلمون -المورو- الاستسلام لأن أسبانيا لم تكن حاكمة لهم ولا علاقة لها بأراضيهم ، وبينما استسلم الفيليبيون -سكان الشمال- ظل المسلمون فى الجنوب يناضلون نحو أربعين عاما ، ثم كانت الحرب العالمية الثانية التى شغلت أمريكا ، واضطرتها إلى تحويل عدد كبير من جيوشها إلى استراليا وبعض الجزر الأندونيسية ، بينما وجه اليابانيون ضربات إلى أمريكا فى شمال الفلبين .

فى خلال هذه المدة (١٨٩٩ - ١٩٤٠) عمل الأمريكيون على فتح مدارس تبشيرية وأقامة مستشفيات وأسسوا عديداً من الكنائس الإنجيلية ، وكانت الكنائس التى أسستها أسبانيا كنائس كاثوليكية ، واعتبروا سولو محافظة عينوا لها حاكماً أمريكياً ، كما استطاعوا أن يعقدوا مع رئيس الجزيرة

المسلم معاهدة سلام أو هدنة لم يكن معظم المسلمين راضياً عنهم ، ولكن طول الحرب جعلت السلطان «جمال الكرامى الثانى» يقبلها ، وأهم نتائج هذه المعاهدة بالنسبة للأمريكان هو أن الجزر الفلبينية كلها أصبحت دولة واحدة ، وأن أمريكا لها نوع من السيادة عليها جميعاً ، وفى ظل المهادنة وحرية الأديان كثرت الكنائس والإرساليات فى جزر المورو ، ومع ماأسرفت فيه أمريكا من سفك الدماء كان لها طريق أكثر نجاحاً ، وهو تشويه الإسلام فى نظر الفلبينيين وتبغيض المسلمين إليهم حتى أصبحت الجزر قسمين متنافرين بعضها لبعض عدو ، بل بعض عدو لأمريكا كل العداء وبعض موال لها كل الولاء ، وكان لأمريكا وزارة خاصة لحكم الجنوبيين ، فسمتها «مكتب شئون القبائل غير المسيحية» فسوى بين المسلمين والوثنيين والبوذيين ، واستكثر هذا المكتب من المدارس التبشيرية ولم تكن دراستها دينية بحتة حتى أن بعض الأمريكان اعترض عليها لإشاعتها نور الثقافة الحديثة بين المسلمين ، بينما كان المسلمون يرونها مدارس تكفير لما تبثه فى دروسها من طعن الإسلام وتنفير العقول منه .

كان موقف أمريكا فى حربها ومعاهدتها وتنفيذ سياستها هو موقف القوى الذى لا يبالى بما يوجه إليه من اعتراضات ، ولا يعبأ بنقض ماإتفق عليه ، فأعلنت ضم الفلبين كلها إلى الكومون ويلث الأمريكية رغم احتجاجات المسلمين ونكرانهم هذا القرار — ثم لجأت أمريكا إلى سياسة الانجليز فعينت عميلا من أبناء الفلبين على الكومون ويلث ، فمن ناحية أعجبه المنصب وأغراه ، ومن ناحية أخرى أصبح ذا سيادة على أعدائه المسلمين ، وعاد المسلمون من جديد إلى الحرب واستبسلوا حتى قال بعض الأمريكان : إنى لاأستطيع أن أحارب قوماً يرون الموت شرفاً يتسابقون إليه .

٥ - أثر الحرب العالمية الثانية :

كان اليابانيون كما ذكرنا يحاربون أمريكا فى جزر الفلبين ، ولم يقبل الفلبيون ولا المسلمون أن تخضع بلادهم لهذا الغزو ، وكان المسلمون مدفوعين بحمية الوطنية والدين معاً ، وقد أبلوا فى كل ذلك بلاء مشكوراً .

وفى سنة ١٩٤٤م جلا الجيش اليابانى وعاد الجيش الأمريكى ، فوجد بلاد المسلمين قد تغيرت تغيراً واسعاً ، وأهم ما فى هذا التغير أمران :

١ - أن عدداً كبيراً من المسحيين هاجروا إلى الجنوب طلباً للرزق إذ أن البلاد الجنوبية أكثر نتاجاً وأوفر حاصلات ، وطلباً للأمن لأن الجهات الشمالية كانت أكثر خطراً لقربها من اليابان .

٢ - أن المسلمين بسبب هذه الحرب أصيبوا بكثير من الدمار والوهن ، فأصبح غزوهم أو ضربهم أسهل من ذى قبل .

واستفادت أمريكا من الأمرين معاً ، فضمت بلاد المسلمين إلى الفلبين قسراً ، متذرعة بأنها لم تعد بلاد المسلمين ، وغير مبالية بهم لضعف شوكتهم ، - وفقد المسلمون مالهم ورجالهم ودمرت بيوتهم وفوق كل ذلك أو لكل ذلك ضعف روح المقاومة لديهم .

أما الفائدة الوحيدة التى استفادوها فهى أنهم عرفوا وسائل الحرب الحديثة ودربوا على استعمالها ولكنهم الآن لا يجدونها لأنها لا تصنع فى بلادهم ، ثم أنها تطورت تطوراً أوسع بعد ذلك .

وموقف الفلبيين المسلمين هناك هو موقف الفلسطينيين أزاء اليهود فى فلسطين .

استقلال الفلبين :

أعطت أمريكا جزر الفلبين استقلالها بعد أن نصبت عليها أحد عملائها رئيساً مقره فى « مانيلا » وظل موقف المسلمين على ما هو عليه ، إذ أن الحكومة المحلية مفروضة عليهم أيضاً كما كانت الحكومات السابقة ، ولا فرق بينها وبين حكومات الأسبان والأمريكان ، والعداء بين الحاكم الفلبينى وبين المسلمين مستمر ، والمعارك بينهم وبين الجيش الفلبينى مستمرة ، ويجد الجيش الفلبينى مدداً من قبل أمريكا بالأسلحة وبغير الأسلحة ومنذ سنة ١٩٤٦م التى منحت

فيها الفلبين استقلالها إلى اليوم والمناوشات والحروب الباردة والحارة مستمرة ، غير أن قوى المسلمين أصبحت بادية الضعف ولجأت الحكومة الفلبينية بمساندة القوى الأجنبية إلى حيل مكشوفة ، الغرض منها :

١ - مضايقة المسلمين فى الجنوب فى أراضيهم ، فالذى لا يملك وثيقة فى عهد الأسبان تؤيد ملكيته للأرض لا حق له فى امتلاكها ، وهو نهج نهجه الأمريكان من قبل ، وكان الأمريكان يملكون الأراضى لغير المسلمين . ولم يسع المسلمون إلى توثيق ملكيتهم عن طريق الأمريكان لأنهم يرونها أرضهم وقد انتقلت بلادهم من الأسبان إلى الأمريكان بغير وجه شرعى ، ولم يكن لأى من الدولتين حق تملكهم .

٢ - توسيع هجرة الشماليين إلى منطقة سولو ، لأن أرضها أخصب وسكانها أقل وهؤلاء يملكون الأراضى من قبل الحكومة ، ثم بهذه الهجرة لم تعد البلاد أرضاً إسلامية خالصة .

٣ - حشيت مناهج التعليم -وهو تعليم إجبارى فى المرحلتين الأوليين- بأقاصيص وأكاذيب تشوه الإسلام تاريخاً وعقيدة ، وتغض من المسلمين ، بينما هى تضفى على المسيحية بهاء وروعة .

٤ - كثرت الإرساليات التبشيرية من مختلف فروعها ، فلم تقتصر على الكاثوليكية والانجليكانية ، بل أصبح هناك الفرنسيسكان واليسوعيون ، ومدارس نوتردام والأدفنتست ... وكلهاة تبذل وسائلها لتنصير المسلمين .

والمؤسف حقاً أن مسلمين كثيرين تنصروا ، لأن الجيل الجديد لم يثقف ثقافة إسلامية ، ولم يعرف عن الإسلام إلا ماسمع من والديه أو غيرهما -وهى- كما يقول بعض المستشرقين معلومات باهتة من السهل إضعافها وإزالتها .

وهناك شىء آخر يصوره الأستاذ عبد الباقى أبو بكر تصويراً محزناً - هو

آثار الهزيمة النكراء أمام إسرائيل سنة ١٩٦٧ ، فقد أضْرت أعداء المسلمين وجرأتهم عليهم من ناحية ، وجعلتهم يتخذون منها دليلاً على أن الإسلام دين غير صحيح من ناحية أخرى ، ثم هى - دون سبب - شغلت المسلمين بأنفسهم عن مساعدة الآخرين ، وعلى أثر هذا الحادث عملت حكومة الفلبين الأمريكية على اقتطاع جزيرة صباح وضمها إليها .

٧ - تخطيطات إجرامية :

وجدت فى العهد الحديث أعمال إجرامية تستدعى أن يتدخل فيها الأمن الدولى ولكن الأمريكان والدول الأخرى لم تعرها اهتماماً .

١ - نشأت منظمة تسمى « منظمة إيلاجا » وهى منظمة مسيحية معظم أعضائها من المهجرين ، وهى مجموعة إرهابية تقوم بالمذابح البشعة ضد المسلمين خصوصاً الذين فى الجهات النائية - وهى منظمة تشبه الألوية الحمراء فى إيطاليا .

٢ - خدعت الحكومة الفلبينية أبناء المسلمين من سولو - فنقلتهم إلى الشمال ليتدربوا على الأعمال الحربية ، وأوهمتهم أنها تدربهم لينخرطوا فى سلك الجيش الوطنى للبلاد ، ثم طلبت إليهم أن يتوجهوا إلى « صباح » لإحداث أعمال تخريبية هناك ، ورفض المسلمون تنفيذ هذا الطلب الذى لم يدربوا له من قبلهم ، ولأنه ينافى تعاليم الإسلام ، فما كان من الحكومة إلا أن أمرت بضربهم بالرصاص وتشويه أجسامهم ، - ورفضت تسليمهم لأهليهم .

ولهذه الأحداث - وخصوصاً الحدث البشع الأخير - قامت الآن « جبهة تحرير مورو » أى تحرير المسلمين ، وهى تبذل أقصى جهد تستطيعه ، والعالم الإسلامى كله مسئول أن يمد لها يد العون وهى تمثل فلسطين الثانية أو أسبانيا الرابعة .

٨ - خطـوات التبشـــير :

قلنا من قبل أن سفن الكشوف الأوروبية كانت تحمل معها دائما القسس المبشرين ، وقدحملت سفن أسبانيا فى حملاتها المتكررة دعاة المذهب الكاثوليكى ، ولكن دعوتهم لم تصادف قبولاً ، بل صادفت إعراضاً شديداً ، وبطبيعة الحال لم يكن بها أى فرع من الفروع البروتستانتية ، ورأى المبشرون الكاثوليك أن الأمر يدعو إلى إقامة أساقفة وطنيين ليكونوا أقدر على دعوة الآخرين ، ولكن المجلس البابوى لم يسمح ، وخاطر أحد الآباء بإنشاء كنيسة مستقلة ، وكون لها مجلساً دخله بعد ذلك فرع أمريكى وآخر أنجليكانى .

وبعد عقد اتفاقية سنة ١٨٩٨م ووضع الجزر كلها تحت يد الأمريكان انفتح الباب على مصراعيه -للكنائس البروتستانتية المختلفة ، ثم تبعهم المبثوديزم ، ثم كل أنواع الدعاة الأمريكان ، وكانت هذه فرحة كبيرة للكنيسة الأمريكية ، لأنها لم يسبق لها أن تتخذ مكاناً بين الأقاليم التى يسودها المذهب الكاثوليكى ، وهى قد دخلت الفلبين بقوة غازية وبوعود بمنح الحرية الدينية والاستقلال ، وإذ بدا لهم أن أهل الفلبين يميلون إلى الاستقلال ، رأوا أن يعملوا على إيجاد كنائس مستقلة وظل الوافدون من أمريكا أصدقاء لهم وأعوانا ، ولا يمنع ذلك أن يكونوا معلمين ، وجاء مبشر كبير كان من كندا ثم توطن أمريكا وكان ماكراً جداً فرأى أن يعلن نفسه مجرد صديق تابع للقسس الفلبينيين ، وعقد صداقة مع رجال الكاثوليك ، وكون مع الجميع قوة تتجه إلى الجنوب لتنصير الذين هناك وللقضاء على المسلمين ومات هو سنة ١٩٢٨ بعد أن وضح الطريق للدعاة بعده ، وبأعمال بطولية خارقة استطاع أن يقيم فى جبال لوزون كنيسة ، ولكن مقاومة المسلمين التى لم تعرف الهزيمة قط ظلت مصرة على عدم الانقياد للكنيسة[1] .

---

(١) Neil 347 .

وفى سنة ١٩٤٨ عقد مؤتمر جامع فى مانيلا جمع القسس من كوريا حتى باكستان وكان على صلة بمراكز الدعوة فى انجلترا وأمريكا وروما ، واعتبر لدى الجميع بداية الانطلاق الحديث ، وفيه اتخذت الخطوات والوسائل التى يمكن أن يقضى بها على المسلمين ، إذ هم أكبر عقبة فى طريق التبشير المسيحى .

مراجع الحديث :

١ - بحث للأستاذ عبد الباقى أبوبكر الأمين العام للعلاقات الخارجية لجبهة تحرير مورو الوطنية .

٢ - الإسـلام فى القـرن العشـرين .

٣ - The History of Christian Missionary .

سادساً : فى سـيلان

١ - تطـور تـاريخى :

سيلان التى تعرف الآن باسم سيريلانكا - جزيرة صغيرة قريبة من حدبة الهند وإلى الشرق منها قليلاً ، ولا يفصلها عنها إلا مضيق ضئيل ، وأكبر مدنها « كولومبو » فى الشرق وكندى فى الوسط ، وفى وسطها جبال عالية ، وسكانها من الجنس الهندى ، وكان للعرب اتصال بها منذ زمن قديم إذ كان مركزاً تجارياً ذا أهمية يمثل حلقة اتصال بين الجزيرة العربية والبلاد الواقعة فى الشرق وكان للعرب بها مراكز تجارية حين كانوا هم المسيطرين على التجارة فى المحيط الهندى وظلت هذه الصلات التجارية إلى عصر الإسلام .

ودخول الإسلام فى هذه الجزيرة غامض لا يمكن التهدى إلى بدايته إذ ليس له تاريخ مدون - ولا يعدو أمره أن يعتمد على الاستنتاج والاعتماد على أحداث التاريخ العام ، ويكاد يكون من المتفق عليه أن التجار المسلمين هم الذين نقلوا الإسلام إلى تلك الجزيرة ، إذ لم تصلها فتوح إسلامية . وحين قام الحكم المغولى فى الهند واستقر به الإسلام فى مواضع كثيرة ، كان من سوء الحظ أنه لم يصل إلى هذه الجزيرة ، ولم يشمل هذا الساحل الهندى ، ولكن كثرة فاشية من سكان الجنوب الهندى أقبلت على الإسلام كما هو معروف ، ولابد أن موجة هذا الإقبال وصلت إلى سيلان لقرب المسافة ودوام الاتصال بين الجانبين .

ويروى بعض المؤرخين أن جماعة من الحجاج كانوا قد وفدوا على هذه الجزيرة لزيارة أثر هناك يقال أنه قدم آدم[1] وقد يكون هؤلاء الحجاج أسبق

---

(١) كان ذلك فى القرن الثالث عشر الميلادى ، انظر الدعوة إلى الإسلام ٤٩٦ - ٧ وأثر آدم هو انطباع قدم على جبل هناك ، وهذا يرجع إلى أسطورة فى الكتب الإسرائيلية ونقلها السيوطى فى الدر المنثور - تقول أن آدم أول ما هبط من الجنة نزل بالهند ، وأول ما لمست قدمه الأرض كانت على هذا الجبل - راجع تفسير الآية ٣٨ من سورة البقرة، وانظر Indo Arab Relation P 55 .

دعاة إسلاميين إلى جنوب الهند، وإذن فلابد أنهم نقلوا الإسلام إلى الجزيرة التى جاءوا أصلاً لها ، ولا يمكن القطع بأنه لم يكن موجوداً قبلهم ، ومن المعروف عن التجار العرب أنهم كانوا ذوى وداعة وألفة وأنهم كانو يندمجون بسكان البلاد التى ينزلونها وأن يتزوجوا منهم وقد حدث هذا فى سيلان وأندونيسيا وبلاد أخرى ، فهذا أيضاً رافد آخر من روافد الإسلام إلى هذه الجزيرة .

وبعد غزو المغول المحيط الهندى صارت سيلان مملكة منفصلة مستقلة .

وخلال القرون الثلاثة المتتالية زاد عدد المسلمين بالتناسل وبدخول الوثنيين الإسلام ، ومنذ العهد المغولى لم تعد سيلان مركزاً تجارياً كما كانت من قبل ، ولم تنل الدعوة الإسلامية حظاً من الدعاة ، ولم يفد عليها ولم ينشأ منها معلمون ، وقصارى ما كان هناك أن أبناء الجزيرة الذين كانوا يذهبون إلى الحج أو لزيارة البلاد الإسلامية لسبب ما ، كانوا يعودون ببصيص من الأفكار الإسلامية ، ولكن الفكرة الإسلامية كانت آخذة فى الذبول ، وقدم دعاة الشيعة أفكاراً ومبادىء أكثر من مذهبهم الشيعى ، فسهلوا ذبول المذهب السنى . ولكن من الجميل حقاً أن أطرافاً من دعوات الإصلاح الحديثة وصلت إلى مسلمى سيلان - السنوسية والوهابية ودعوة الشيخ محمد عبده ومدسته ... ثم حركة الإخوان المسلمين ، وكل هذا واضح الدلالة على أن الجزيرة ليست بمعزل عن العالم الإسلامى .

ويوجد هناك الآن جماعتان إسلاميتان كل منهما منفصلة عن الأخرى ، وبينهما شىء من التنافس وجميعهم ينقصهم معرفة اللغة العربية ، فهم ما يزالون يستقون معلوماتهم الإسلامية عن طريق اللغة الانجليزية .

٢ - الزعيم أحمد عرابى :

وتحدث الزعيم أحمد عرابى فى مذكراته عن مسلمى سيلان ، فذكر أنه يوم أن وصل هو ورفاقه فى ١٠ يناير سنة ١٨٨٣م كان رصيف الميناء مزدحماً أيما ازدحام بالإخوة المسلين من أهل الجزيرة وأهل جاوه والهند والملايو ،

وأعيان الديانات الأخرى[1] وذكر عن أهل الجزيرة أنهم كانوا ثلاثة ملايين تقريباً ، منهم مائتان وخمسون ألفاً من المسلمين ، وذكر أن الماهراجا سلطان مملكة جاهور الهندية زاره هناك ، وأنه من الشيعة وله محبة كبيرة لآل البيت ، وكان من أجلها يسمى « كَلْبَ عَلِى » وهذا مما ينبىء أن لدعوة الشيعة مكانا فى الجزيرة ، كما أن لورد لوزيرى زاره وأجرى معه محادثة عن الدعوة المهدية فى السودان ، وواضح أن الزيارة كانت لدواع سياسية ، وجاء فى الحديث عن المهدى أن ستين مليوناً من المسلمين فى الهند يعتقدون أن مهدى السودان يجمع شتات المسلمين تحت رايته ، -ولابد أن تكون هذه الدعوة قد وصلت سيلان ، فلايمكن مع كل هذه الضجة أن تكون بعيدة عنها ، غير أن دعوة المهدى لم تكن ذات منهج إصلاحى خاص .

كان عرابى والوفد الذى معه قد أنزلوا فى كولومبو - وهى مدينة رديئة الجو لأن الجبال تحجب عنها الرياح ، وقد زاروا عدداً من المدن والقرى حولها ورأوا مساجدها ، مما يدل على أن الإسلام كان منتشراً بوجه ما ، وساءت صحة الوفد فى المنفى لسوء الجو فى كولومبو فنقل إلى كندى فكان سكانها عشرين ألفاً منهم عشرة آلاف مسلمين ، أى نصف السكان فى هذه المدينة .

وذكر مسجدين أحدهما به ضريح السيد « شهاب الدين » وهو حرم المدينة وأكبر أماكن العبادة فيها ، ووصف ثغر كولومبو بأنه يحوى ١٥٠ ألف نفس منهم ٢٠ ألفاً من المسلمين ، وبه سبعة مساجد ، وبوجه عام هذه الجزيرة ترتبط بالهند ارتباطاً قوياً ، وهى التى يمكن أن تتغذى منها بالثقافة الإسلامية ، ولكن الهند بدورها ليست ذات مقدرة كافية للقيام بالدعوة الإسلامية ، لأن المراكز الإسلامية هناك ينقصها الإمكانيات الكافية فضلاً عن أنها تواجه صعوبات ومعاكسات من الهندوك كثيراً ماتراق فيها دماء المسلمين .

---

(١) انظر الجزء الثانى من مذكرات عرابى ص ١٧٠ ومابعدها ط دار الهلال ، وراجع فصل حياتى فى المنفى .

والديانة الغالبة فى هذه الجزيرة إلى الآن هى البوذية ، والديانة الرئيسية فيها بعدها هى الهندوكية ، ثم المسيحية والإسلام - والبوذية والهندوكية من الديانات المسالمة ، وإن كانت البوذية تقوم لنفسها بدعاية غير ضعيفة ، وبهذا يبقى الصراع بين المسيحية والإسلام .

وغلبة البوذية ترجع إلى قدمها هناك ، وفى إيام سلطانها وعزتها فرضت اللغة السنهالية هناك لغة قومية ، وظلت كذلك حتى الاحتلال الانجليزى ، ولغة التخاطب الآن هناك هى الانجليزية .

٣ - التبشـــير :

وصلتها الدعاية التبشيرية عن طريق إرساليات كاثوليكية رومانية ، وبهذا اختلفت عن أندونيسيا التى وصلتها أولاً إرساليات بروتستانتية . ولكن عندما استولت هولاندا على سيلان تحول الكثيرون إلى المذهب البروتستانتى ، ويرجع ذلك إلى نشاط دعاته وإلى أنه مذهب الدولة الحاكمة .

وأول إرسالية من قبل « جمعية التبشير الكنسية » كانت سنة ١٨١٧ ، فأنشأت أكثر من مائتى معهد و ٦٢٣ مدرسة ، وبلغ عدد تلاميذها نحو ٢٣ ألف تلميذ ، وجل ما يصبوا إليه المبشرون وهو التحكك بالمسلمين - خصوصاً سكان مقاطعة « كندى » وما حولها لأن هؤلاء يظهرون العداء للمبشرين ويرسلون أولادهم إلى مدارسهم الخاصة التى أسسوها لأنفسهم[1] .

وبدخول انجلترا سنة ١٨٩٥ تقلصت حركة البروتستانت ثانياً ، وتقدم المذهب الانجليكانى وتوالى وصول الجماعات التبشيرسة - من جمعيات مختلفة منذ العهد الهولاندى ، من جمعية لندن من ١٨٠٤ - ١٨ ، وجمعية البابويين من سنة ١٨١٢ ، والميثوديزم ١٨١٤ ، والمرسلين المسيحية ١٨٠٧ ، ثم جماعة المرسلين الأمريكان ، واستقرت فى الجزء الشمالى - وهو يتكلم اللغة التاملية Tamili. : وقامت بنشاط أوسع واعتمدت على التعليم ونشر اللغة الانجليزية .

---

(١) الغارة على العالم الإسلامى ص ٨٤ .

وعادت هذه الإرساليات الكثيرة بنفع مادى كثير للجزيرة بسبب ما فتحت من مدارس وأنشأت من المستشفيات ، وبخدمتها للنساء الحوامل والمرضعات ، وقد صادفت هذه الإرساليات صدوداً كبيراً حين وصولها مما جعل إرسالية لندن تغلق أبوابها بعد أربعة عشر عاما ومما جعل الآخرين يفكرون فى طريق يجتذب الأهلين، فلجأوا إلى الإكثار من المدارس والمستشفيات ولا يزال أنصار البوذية يبدون مقاومة كبيرة للدعوة المسيحية ، برغم ما تقدم من خدمات اجتماعية .

ومن بداية القرن التاسع عشر أو ربما قبلها بقليل كانت الإرساليات قد فكرت فى تعديل النظام التعليمى لبعثاتها ، ورأت بادىء ذى بدء أن تقوم فى بعض الأقطار جامعات مستقلة على نسق الجامعة الأمريكية فى بيروت ، ثم أنشأت مدارس لتعليم المكفوفين ، والصم والبكم والعجزة وهذا النوع الذى لم يكن معروفاً فى الشرق أحدث أثراً كبيراً فى نفوس الناس وجذب الكثيرين إلى المسيحية ، وفى ١٨١٩ وصل إلى سيلان طبيب أمريكى يسمى جون سكيودر John Scuder بينما وصل إلى الهند وإلى البلاد الأخرى أطباء مماثلون ، وسيلان لصغرها كانت تتبع الهند ، وتصلها إمدادات التبشير التى ترسل إليها ، ولكنها اختلفت عن الهند فى إعلانها أنها دولة ذات دين ودينها هو البوذية ، هذا بينما أعلنت الهند أنها دولة لا دينية فكانت سيلان أقرب إلى بورما التى أعلنت نفسها بوذية الدين ، وهى الآن أهم مراكز البوذية ، ولكن موقف التبشير والدعوة الإسلامية يواجه مصاعب ومشكلات ، وهما معاً فى ميدان المنافسة أحدهما أعزل والآخر مسلح .

يبلغ عدد المسيحيين الآن فى سيريلانكا (سيلان) نحو ١٠٪ على أكثر تقدير منهم ١٪ فقط من البروتستانت ، ومع كل ما بذل من الإغراءات والمساعدات المادية كان مبلغ تقدم المسيحية هو هذا الحد ، وقد ذكرنا أن بها أربع ديانات ، واللغات التى بها ثلاث هى : السنهالية Sanhalisi والتاملية والانجليزية ، ومنذ ستين عاماً تقريباً – أى فى أوائل العشرينيان من هذا القرن

- ظهر هناك جنوح شديد إلى توحيد اللغة والدين فى الجزيرة كلها ، على أن تكون اللغة هى السنهالية ، والدين هو البوذية ، واستولت الحكومة على معظم أوْ رُبَّما جميع المدارس التبشيرية ، أما فى الجامعة فتدرس البوذية والمسيحية والإسلام ، تحت عنوان - الفلسفة الشرقية ، وهذا هو المنفذ الوحيد الذى يعرف به شيء من الإسلام ، ولا ندرى كيف تدرس هذه المادة ، ونظراً لعدم وجود اللغة العربية تعتمد دراسة الإسلام على المراجع الانجليزية وما تكتبه عن الإسلام لا يجلو حقائقه ولكنه يعطى فكرة مشوهة ، وبهذا يرجع مصدر الدعوة الإسلامية إلى الجمعيتين اللتين ذكرنا ، وإلى ما يحصل عليه الحجاج والتجار من معلومات عن الإسلام .

ومنذ سنوات معدودة بدأ المسلمون يتعلمون اللغة العربية فساعد هذا على الإلمام بشيء منها ، ولكن لا نستطيع أن نقول أن المدارس التى تعلمها تهيىء دراسات يتكلمها المتعلم أو يفهم كثيراً من تراكيبها خصوصاً التراكيب الكلاسيكية ، أو لغة القرآن والحديث والمصادر الإسلامية الأخرى .

ونعود أخيراً فنذكر أن هذه هى مهمة الأزهر الشريف ، ولعل الله أن ييسر له السبيل لعمل شيء ينفع الإسلام والمسلمين فى تلك الجزيرة الطيبة ، ولا ينبغى أن يتحمل الأزهر وحده كل هذه الأعباء ، بل أن الجهات الإسلامية الأخرى مسئولة أيضاً عن هذا الواجب الإسلامى .



الفصل الثانى

فى

أفريقيـــــة

أولاً : شمال أفريقيــة

١ - مصـــــر :

كانت مصر أول بلد أفريقى شرفه الله بالإسلام ، فتحها عمرو بن العاص ، كما هو معروف سنة ٢٠هـ (٦٤٠م) وكان قبط مصر يسامون سوء العذاب من الحاكم الرومانى ، وكانوا يترقبون مجىء العرب المسلمين لاستنقاذهم ، وتنفسوا الصعداء بدخولهم ، إذ قضوا على التعصب الدينى ، -وأزالوا الاضطهاد الذى عانوه ، كما أزالوا ماكان الشعب يعانيه من كبت الحرية وزيادة الضرائب وقلة العناية بمرافق الدولة ، .. وإزاء هذا كله ألقت مصر بنفسها فى أحضان الإسلام ، فأقبل أبناؤه عليه بكثرة واندفاع وبحمية لم يعهد مثلها فى أى بلد فتحه المسلمون ، وسرعان ماصار مسجد عمرو مدرسة نشيطة منوعة الدروس ، وأراد عمرو وخلفاؤه أن يمدوا الإسلام إلى الجنوب فلم يجدوا ذلك عملا هينا ، وعقدوا مع سكان النوبة معاهدة[١] اكتفوا بها واتجهوا بجهادهم إلى الجانب الغربى[٢] .

٢ - شمــــال أفريقيـــة :

(ا) الـــبربر :

كانت الحرب فى شمال أفريقية شاقة[٣] ولم تكن سهلة كفتح مصر ، وكان أشق ما فيها حرب البربر ، وهم جماعة من الحاميين البيض تتولى عليهم كاهنة

---

(١) كانت بلاد النوبة فى هذا العصر تشمل السودان ، وسنتحدث بعد عن مدى انتشار الإسلام فى الجنوب .

(٢) كان يتبع مصر فى العهد الرومانى مدن تمتد على ساحل البحر الأبيض تعرف بالمدن الخمس سيأتى ذكرها .

(٣) كان عبد الله بن أبى سرح قد أخضع جزءاً من أفريقية ، وكانت قرطاجنة تدفع له الجزية ، واعتبر الخليفة عثمان بن عفان البربر الوثنيين من المؤلفة قلوبهم فعاملهم معاملة الكتابيين وأعطاهم المال وبعث إليهم معلمين . انظر ابن عبد الحكم ١٨٣/٢ وابن عذارى ٢/١ .

لم يعرف اسمها ، وقد استعصت هذه الجماعة من قبل على الرومان ، وانتصر عليهم عقبة بن نافع انتصاراً جزئياً وأسس مدينة القيروان (٥٠هـ) ٦٧٠م ، وبنى بها مسجداً واتخذها قاعدة حربية يوجه منها حملاته ضد البربر واستشهد سنة ٦٣هـ على مقربة من مدينة بسكرة فى إقليم الجزائر الحالى ولا يزال قبره هناك ، وكان الرومان يشنون هجمات بحرية على المسلمين ، فاضطرتهم بعد موت عقبة إلى التراجع ، واستشهد خلفه زهير بن قيس البلوى ثم جاء القائد الأمين حسان بن النعمان فاستولى على المنطقة ، وطرد البيزنطيين نهائياً من قرطاجنة عاصمة الإقليم ، وقتل الكاهنة[1] ، ثم جاء موسى بن نصير فمد حدود الفتح إلى طنجة ، وهكذا امتدت الفتوح الإسلامية غرباً من الشاطىء حتى المحيط ، وبعد ذلك امتدت من ساحل المحيط جنوباً ، ولم يكن من اليسير ولا من المتوقع أن يحاول المسلمون الاتجاه جنوباً فى أعماق الصحراء ، ولا وراء الجبال .

وكان من العجيب حقاً أن أقبل هؤلاء البربر الوثنيون على الإسلام ، وعلى اللغة العربية حتى كان الجيش الذى فتح به موسى بن نصير بلاد الأندلس من البربر وكان طارق بن زياد مولاه ورسوله إلى هذه البلاد من البربر أيضاً .

ليس فى التاريخ مايدل على أن المسلمين استعملوا شيئاً مثل الذى استعمله الرومان لإكراه البربر على الدخول فى الإسلام ، وواضح جداً أن الرغبة الجامحة وحب الإسلام هو الذى أسرع بالبربر إلى تعلم اللغة العربية فى وقت قصير ، والأسباب الحقيقية هى حسن المعاملة من الحكام ، وحسن العدالة من قانون الإسلام ، وليس من الحق أن نقول أن البربراستهواهم رقى العرب لأن الرومان كانوا أرقى من العرب ولم يستطيعوا جذبهم للمسيحية ، وقد خصص الخلفاء علماء وفقهاء لتعليم القرآن والحديث واللغة العربية وتفهيمهم قواعد الإسلام وقوانينه ، وكانت عناية الفاتحين بنشر الإسلام عظيمة ، فكان موسى بن نصير يشترى الأسرى والأرقاء من المال المخصص للدولة ويعتقهم مقابل إسلامهم ،

(١) تنبأت بهزيمتها وأرسلت أبناءها لينضموا إلى المسلمين ، وآثرت لنفسها القتل .

وأرسل عمر بن عبد العزيز مع واليه عشرة من الفقهاء لتعليم المسلمين هناك[١] والذى يبدو أنه من العوامل الفعالة جداً للإقبال على الإسلام عنصر الديمقراطية وشعور الأهليين بمساواتهم بالعرب الفاتحين ، ومهما يكن من شيء فإن البربر وغيرهم من الأجناس الأخرى أقبلوا على الإسلام إقبالاً يبدو فى نظر التاريخ عجيباً ، ولكن هذا لا يعنى أن جميع أفرادهم كانوا مسلمين .

ومما تجدر ملاحظته أن دخول هؤلاء السذج فى الإسلام لا يعنى أنهم ألموا بكل قوانينه البارزة فقد دفعتهم عاطفتهم إلى اعتناقه وكان لابد لهم من زمن طويل يعرفون فيه العربية ويعرفون قواعد الإسلام ، وقد وجد الفقهاء الذين بعث بهم عمر بن عبد العزيز من البربر من يشربون الخمر ولا يعرفون أنها محرمة ، وظل الذين لم يسلموا يتقاطرون إليه قليلاً وكثيراً ، حتى جاءت دولتا المرابطين والموحدين فاستوعبتهم الدعوة الإسلامية أو كادت . أما الذين كانوا على حواف الصحراء والواحات التى كانت تتناثر داخلها فكان بعضهم يأتى إلى الحواضر الإسلامية ليتعلم ويعود ليعلم الآخرين وكان الدعاة المخلصون يتنقلون إليهم أحياناً ، وبهذه الجهود الفردية حبا الإسلام إلى داخل القارة .

(ب) الأدارســـة :

ولما قامت دولة الأدارسة فى المغرب انضمت إليهم قبيلة أوزية اندفاعاً عاطفياً مع آل البيت النبوى[٢] فوسعوا دائرة الإسلام فيما حولهم ، ثم قامت دولة الأغالبة فى أفريقية الصغرى «تونس»[٣] فمدت الإسلام فى جزر البحر

---

(١) انظر نفح الطيب ٢٥٣/٨ .

(٢) مؤسس دولة الأدارسة هو إدريس بن عبد الله من حفَدة الحسين بن على ، وكان قد أثار تمرداً على العباسيين فى المدينة سنة ١٦٩هـ فهزموه فى موقعة فخ ، ففر إلى المغرب ، وأنشأ دولة استمرت نحو قرنين كانت عاصمتها فاس (انظر ابن خلدون جـ١٢/٤ - ١٤) .

(٣) مؤسس هذه الدولة هو ابرهيم بن الأغلب الذى عينه هارون الرشيد والياً على أفريقية فاستقل بها وأبدى هو وخلفاؤه من بعد نشاطاً كبيراً فى مد الإسلام ، وكان من وزرائهم أسد بن الفرات المالكى المذهب صاحب المدونة فى الفقه المالكى وفاتح صقلية ، ومدونته اقتبست من مدونة الإمام ومن ابن القاسم وقد ذكرنا حديثه فى فتح صقلية فى كتاب الاستشراق .

الأبيض كما مدته أيضاً إلى الجنوب وهم الذيم جددوا مسجد عقبة فى القيروان وأقاموا به مدرسة إسلامية أكبر وأنشط مما كان به ، وكانت القيروان فى عهدهم تلى المدن الثلاثة مكة والمدينة وبيت المقدس ، وفى هذا العهد محيت الآثار اللاتينية والمسيحية من أفريقية نهائياً ، وصارت منذ ذلك العهد إقليماً إسلامياً بحتاً ، ثم زالت هذه الدولة بعذ قرن أو ما يزيد عليه قليلاً ، وحل محلها الفاطميون ، وكانت تقاليد هؤلاء الشيعيين تستهوى الكثيرين ، ولكن الإقليم كله كان قد اصطبغ بالصبغة الإسلامية السنية من قبل ، واقتضت سماحة الإسلام أن تبقى قلة ضئيلة من المسيحيين وبعض اليهودالذين هاجروا إلى تلك البقاع فراراً من قسوة الرومان ، منهم من جاء من فلسطين ومنهم من جاء من أسبانيا .

(جـ) دولـــة المرابطـــين :

ولما قانت دولة المرابطين كان من آثارها أنها وحدت المغرب الأقصى والأوسط ونشرت الإسلام على الساحل الغربى للقارة الأفريقية[١] وأدخلت عديداً من البربر إلى الإسلام وهم الذين أنشأوا مدينة مراكش (١٠٦٢م) ٤٢٥هـ .

وبعد أن دخل البربر والزنوج الإسلام أبدوا نحوه حماسة ورغبة ، وكانت قبيلة صنهاجة ذات الفروع والبطون العديدة[٢] قد آثر أكثر بطونها الإسلام ، وتشتهر بينهم وفى تاريخهم قصة عبد الله بن ياسين ، هذا العابد التقى الذى يرجع له الفضل الأكبر فى نشر الإسلام هناك ، وحديثه ذو أهمية لأنه يوضح طريقة نشر الإسلام بين تلك القبائل دون أى إكراه ، كما يوضح نشأة المرابطين.

---

(١) ينسب المترابطون إلى دير كان فى جزيرة فى بلاد السنغال السفلى ، ظهرت دولتهم فى القرن الخامس على يد أحد المسلمين الأتقياء ، أسس أولاً جماعة دينية ، فانضم إليها أعدادُ من قبيلة لمتونة – فرع من صنهاجة – وكانوا يغطون وجوههم بلثام فسموا أيضاً الملثمين ، وكانوا ذوى بداوة وحب للجهاد فمدوا سلطانهم إلى الشمال الشرق ، وكان رئيسهم يوسف بن تاشفين الذى هزم الفرنجة فى موقعة الزلاقة بالأندلس ، ولم تعمر دولتهم طويلاً .

(٢) انظر عنها ابن خلدون ١٨١/٦ .

ففى مستهل القرن الحادى عشر الميلادى كان يحيى بن ابرهيم شيخ قبيلة صنهاجة عائداً من الحج وكان يبحث فى المراكز الدينية فى شمال أفريقية عن معلم يرشد قومه ويعلمهم ، وكان يائساً أو شبه يائس من شيخ يترك رسالته التعليمية فى بلده ويخوض مخاطر الصحراء ، حتى استجاب عبد الله بن ياسين – لهذه الرسالة الشاقة ، فوجد البربر هناك على غير ما يرضى الإسلام ، واضطره تقصيرهم وعدم استجابتهم أن يلجأ إلى جزيرة فى نهر السنغال بنى بها مع بعض تلاميذه رباطاً للعلم والعبادة ، فعاد إليه البربر يستسمحونه ويتلقون عنه ، وأقبل عليه السودانيون أيضاً بكثرة ، فلما كثر أتباعه أمرهم أن ينطلقوا إلى ما حولهم لنشر الدعوة واعتبر هذا الجهاد شكراً لله تعالى على هدايتهم للإسلام وقال لهم « اخرجوا على بركة الله تعالى وأنذروا قومكم ، وخوفوهم عقاب الله ، وأبلغوهم حجته ، فإن تابوا وأنابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه فخلوا سبيلهم ، وإن أبوا ذلك وتمادوا فى غيهم ولجوا فى طغيانهم ، استعنا بالله تعالى عليهم ، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا » فانطلق كل واحد من أتباعه يدعو عشيرته ، وكان القوم مجوسيين ، وفيهم وثنيون ومات عبد الله هذا سنة ١٠٥٩م (٤٢١هـ) ولم تمت دعوته ، بل انضم إليها كثير من قبائل البربر الوثنية ، واعتبروا الإسلام قضيتهم التى يجب عليهم الدفاع عنها ونشرها ، وانسابوا إلى شمال أفريقية ثم عبروا بأسطولهم إلى الأندلس لإنقاذ ابن عباد ، فمدوا حياة الإسلام هناك أربعة قرون أخرى[١] .

ودولة المرابطين – كدولة الموحدين التى خلفتها – لم تكن تخلو من خشونة وتعصب دينى ، لأن كلتا الدولتين تتصف بجفاوة البدو والانقياد العاطفى للدين ، ولهذا لم تتسع عقولهم لهضم الفكر الفلسفى ، وفى عهد على

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام ٣٥١ – ٣ عن هذا وعن انتشار الإسلام فى أفريقية ١٧– ١٩ ، وانظر ابن خلدون ١٨٣/٦ وقارن .

Tropical Africa 417 - 20 VI.

والمربطون يسمون Motavid .

ابن يوسف بن تاشفين ومن بعده وضعت مؤلفات الغزالى فى القائمة السوداء ، وأحرقت كتب فلسفية فى أسبانيا وفى المغرب[١] .

ومؤسس الدولة هو يوسف بن تاشفين ، وكان شجاعاً عادلاً ، وهو الذى اختط مدينة مراكش سنة ٤٦٥هـ (١٠٦٢م) - وكان موضعها مكمناً للصوص ، دانت له بلاد المغرب ، ورغب فى العبور إلى جزيرة الأندلس ، فأعد أسطولاً لذلك ، وهابه ملوك الأندلس وأرادوا مقاومته ولكنهم خافوه ، وكان ملوك الفرنجة أيضاً يقدرون بأسه ، لأن قوة الملثمين كانت قد تجلت فى قهرهم بنى زناته ، وتشاور المسلمون مع المعتمد بن عباد لأنه أكبرهم دولة ، فاستقر رأيهم أن يستعطفوه أن يعرض عنهم فاستجاب لهم ، ولكن الاذفونش (فرديناند) صاحب طليطلة ، كان قد تهددهم وطمع فى بلادهم ، ففزع المعتمد إلى ابن تاشفين يستنجده ، وهو يدرك خطورة دخوله بلاده ، ولمنه قال كلمته المشهورة : لأن يرعى أولادنا جمال الملثمين خير من أن يرعوا خنازير الفرنج .

واستجاب ابن تاشفين ، فاستدعى الأذفونش بدوره ملوك أوروبا ، وكانت موقعة رهيبة عند الزلاقة ، سميت الموقعة باسمها . وفيها هزم الفرنجة على كثرتهم[٢] .

وتتسم هذه الحرب بأنها حرب دينية أكثر منها سياسية ، وقد تهدد الأذفونش ابن تاشفين وقال له أنا رئيس النصارى وأنت رئيس المسلمين ، وأنتم تقولون إن الواحد منكم يغلب عشرة منا ، وأجابه رئيس المسلمين على نحو ماأجاب الرشيد نقفور إذ قال له : الجواب ماترى لاماتسمع .

---

(١) جاء فى وفيات الأعيان ١١٣/٧ ، أن بر المغاربة الجنوبى كان لقبيلة زناته ، وخرج عليهم الملثمون من البلاد المتاخمة للسودان يقودهم بكر بن عمر ، وكان رجلاً ساذجاً خير الطباع ، غير مبال إلى الرفاهية ، وكان ولاة المغرب من زناتة ضعفاء ، فأخذ الملثمون البلاد من أيديهم من باب تلمسان إلى المحيط بقيادة بكر بن عمر ، ثم استخلف عليها يوسف بن تاشفين ورجع .

(٢) انظر تفاصيل الموقعة فى المرجع نفسه نقلاً عن آخرين .

وفى موقعة الزلاقة أمر يوسف بن تاشفين بعبور الجمال ، ولم يكن أهل الجزيرة قد رأوها من قبل فرهبوها ونفرت منها خيولهم . وقد تهدد يوسف بن تاشفين الأذفونس فى رسالة له وعرض عليه – على نحو ما كان يفعل المسلمون الدخول فى الإسلام أو الجزية أو الحرب ، ثم كتب له النصر على جموع الفرنجة الكثيرة(١) .

وعف ابن تاشفين عن غنائم المعركة وتركها لمسلمى الأندلس ، ولكن الحرب بين الفرنجة والمسلمين فى أسبانيا كانت مستمرة الدوران ، وعبر ابن تاشفين إلى أسبانيا ثلاث مرات ثم أسر المعتمد ونقله إلى أغمات فى المغرب حتى مات هناك .

كانت مراكش عاصمة المرابطين بالمغرب ، وكانت أشبيلة عاصمتهم فى أسبانيا ، وظل حكمهم هنا وهناك مايقرب من ستين عاما ، ثم عدا عليهم الموحدون .

آثار المرابطين الدينية :

قلنا إنها كانت دولة خشنة ذات عاطفة دينية جامحة ، ولم تخل معاملتها من تعصب ، وقد دخل الإسلام فى عهدها كثيرون ، وقد تطبع الأسبان بخصائصهم الإسلامية ، فكانوا يتسمون بأسماء غربية ويختتنون ، وأحياناً يتكلمون العربية ، ورسخت هذه الصفات فيهم حتى بقيت بعدهم نحو قرنين من الزمان رغم تعصب الفرنجة . وترجمت أجزاء من الكتاب المقدس بقسميه إلى اللغة العربية ، وكانت النقود تسك باللغة العربية ، وبعض الملوك الفرنجة لم يكونوا يعرفون إلا اللغة العربية .

وأنشأ المرابطون فى أسبانيا عدداً من المساجد ، وحولوا الكاتدرائية التى أنشأها

---

(١) كانت موقعة الزلاقة فى سنة ٤٧٠هـ ، ومات يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠هـ انظر الكامل لابن الأثير جـ١٠ حوادث سنة ٥٠٠هـ .

القوط من قبل قريباً من غرناطة إلى مسجد ، وفى القرن الثانى عشر عومل المسيحيون واليهود بشىء من العنف والشدة ، لأنهم عملوا جواسيس للفرنجة ، ونفى كثيرون إلى مراكش ، ولكن هذا الاضطهاد يعد شيئاً ضئيلاً إذا وازناه بالاضطهاد الذى قوبل به المسلمون من قبل المسيحيين بعد زوال الحكم الإسلامى ، وسنذكر بعضاً منه بعد ، وتقدم بعض آخر .

وأفضى الملك بعد يوسف بن تاشفين إلى ولده على ، وكان ذا صلاح وعدل ، وكان شديد التعصب للمذهب المالكى ، وهو الذى أشار بقتل الفتح ابن خاقان ، صاحب كتاب قلائد العقيان — وكان قد ألفه باسم أخيه ابرهيم ابن يوسف[1] — وتلا علياً ابنه تاشفين ثم حفيده ابرهيم ، ثم أخوه إسحق — وهو الذى قتله قائد الموحدين عبد المؤمن سنة ٥٤٢هـ (١١٤٧م) .

ويجدر بنا أن نتذكر أن سبب هوان المرابطين واستخذائهم أمام الموحدين هو انغماسهم فى الترف والملذات ، وأنهم لأصلهم البدوى وبعدهم عن مظاهر الترف ألقوا بأنفسهم فى أحضان الملذات المادية ، وقد عاب يوسف بن تاشفين على المعتمد بن عباد ما كان ينغمس فيه من لهو ومتع ولكن أتباعه انغمسوا أكثر فضعفت شوكتهم وزالت دولتهم بسرعة .

كلمة عن تسمية المرابطين والملثمين :

أطلق اسم المرابطين على هؤلاء القوم ، لأنهم — كما سبق — كانوا يعيشون فى مكان منقطع شبيه بالأربطة التى كان يرابط فيها جنود المسلمين ، وأول من أطلق عليهم هذا الإسم هو يوسف بن تاشفين ، ربما ليبث فيهم روح الدفاع وحمية الحرب .

أما اسم الملثمين فهو أسبق ، لأن هذه الجماعة — من أسلم منهم ولم يكن أسلم — كانوا يتخذون ألثمة تخفى وجوههم ، وفى سبب هذه الألثمة أورد ابن خلكان نقلاً عن آخرين عدة أسباب .

---

(١) انظر الوفيات جـ٤/٢٤ ، جـ٧/١٢٤ .

قيل أنهم سلالة عربية حميرية ، وحمير كانت تتقى الحر والبرد باللثام ، وظلت هذه العادة فيمن تفرع منهم حفاظاً على تقاليد القبيلة .

وقيل أن قوماً من أعدائهم كانوا يترصدون غيبة الرجال ، فيسطون على المنازل ينتهبونها وينهبون النساء أيضاً ، واحتال الجماعة لذلك ، فألبسوا النساء زى الرجال وبعثوا بهم إلى الخارج ، ولبسوا هم الألثمة حتى لا يعرف أعداؤهم أنهم رجال ، ولما هجم أعداؤهم قاموا هم عليهم بالسيوف فقتلوهم . وتفاءلوا بذلك فظلوا يلبسون اللثام بعد ذلك .

وهناك رواية ثالثة نقلها ابن خلكان عن الحافظ عز الدين بن الأثير ، وهى أن جماعة من لمتونة . خرجوا للإغارة على عدو لهم ، فانتهز العدو خروجهم وأغار على بيوتهم وليس بها إلا الشيوخ والنساء والصبية ، فنهبوا ما شاءوا ، واحتال بنو لمتونة ، فألبسوا النساء ثياب الرجال وألثمة الحرب وجعلوهن يحطن بالبيوت وأمامهم الشيوخ والصبيان ، وبقى الرجال بعيداً قريباً من ماشيتهم ، ولما جاء الأعداء ظنوا النساء رجالا ، فرأوا أن يبعدوا عن المنازل وأن يستاقوا الإبل ، فهجم عليهم الرجال وهم يجمعونها ، فقتلوا وأكثروا فاتخذوا اللثام من ذلك الوقت سنة يلازمونه ليلاً ونهاراً ، وشيوخاً وشباناً ، فلا يعرف الشيخ فيهم من الشاب .

ومما قاله فيهم بعض الشعراء ، من حسن التعليل :

قوم لهم درك العلا فى حمير ... وإن انتموا صنهاجة فهم همو
لما حووا إحراز كل فضيلة ... غلب الحياء عليهمُ فتلثموا

ويروى البيت الأول :

.... وإذا دعوا لمتونة فهمو هموا

(١) (انظر ابن خلكان حـ ١٢٩/٧ ، وما بعدها .

(د) دولــة الموحــدين :

وتلت دولة المرابطين دولة الموحدين التى قامت أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ، وكان مؤسسها ابن تومرت داعية مخلصاً ، وهو بربرى من قبيلة مصمودة ، وتاريخه لايخلو من مبالغة ، وقد مات حوالى سنة ٥٠٨هـ (١١٣٠م) . بعد أن مهد السبيل لكبير أتباعه عبد المؤمن بن على أن يقيم دولة الموحدين .

وكان ابن تومرت من ذوى العلم والورع والسنية والمحافظة الشديدة التمسك ، نشأ على العبادة وملازمة المسجد ، وكان يلقب بالضياء لكثرة ما كان يشعل من المصابيح بالمسجد[١] ، وكانت صفاته وأخلاقه مما يدعو إلى الاستجابة له ، فهو شريف يرتفع بنسبه إلى الحسين بن على ، وجده إدريس الأكبر مؤسس دولة الأدارسة . وهو ذو علم ، جال فى تحصيله جولة واسعة فى الأندلس والشرق فزار الاسكندرية وسوريا والعراق ، ويقال أنه قابل أبا حامد الغزالى وأطلعه على ما كان فى نفسه من إقامة دولة إسلامية بالمغرب وأنه وافقه على رأيه ، وقد قابل علماء الأشاعرة فأعجب بآرائهم فى تأويل المتشابه ، فأدخل هذا المذهب المغرب ، ومن أجله سمى جماعته الموحدين تعريضاً لأهل لمتونة الذين لم يقبلوا التأويل ، فاعتبرهم غير موحدين وأنهم يجعلون لله أعضاء ، وكل مايؤخذ عليه أنه كان يقول بعصمة الإمام كالشيعة[٢] .

أما خليفته عبد المؤمن – مقيم هذه الدولة – فكان شجاعاً . قضى على دولة المرابطين بقتل آخرهم إسحق بن على وكون أكبر دولة عرفتها مراكش امتدت على ساحل البحر المتوسط من المحيط إلى مصر ، وكانت ذات قوة وشهرة وذات تأثير على القبائل الوثنية المجاورة لها .

---

(١) حتى ص ٧٠٩ كان أبوه يوقد مصابيح المسجد .

(٢) يبدو أنه لدراسته المتنوعة لم يلتزم بمذهب واحد – فأخذ من أهل السنة ومن المعتزلة ومن الشيعة ، ومن المذاهب الفقهية المختلفة أيضاً ولذا استساغ تأويلات واسعة .

وابن تومرت هو صاحب الفضل الأول لنشاطه العلمى .

كان قد تسمى باسم محمد المهدى ، وعمل على تقريب الإسلام إلى البربر فترجم النصوص والفقه إلى لغتهم وجعلها لغة عبادة ، وأمر أن يكون الأذان باللغة البربرية(١) ولم يسلم البربر جميعاً فى هذا العهد ، بل ظلت قلة منهم على وثنيتها حتى القرن الخامس عشر .

وأورد ابن خلكان نقلاً عن آخرين غرائب وأعاجيب لعبد المؤمن ، قد تصدق وقد تكذب ، لكن الذى لا مرية فيه أنه كان متشدداً صارماً فى دعوته الدينية ، لا يرى منكراً إلا أسرع فى تغييره ، فكان قريب الشبه فى هذا من ابن تومرت .

وقد أخذا مَعاً فى العمل على تقويض دولة المرابطين منذ عهد على ابن يوسف ، وكان أهم ما استمال بنى مصمودة إلى دعوتهما ماكانا عليه من تقشف وزهد ، وحمية دينية ، وهذه الصفات كثيراً ما استهوت الناس وجعلتهم يلتفون حول القادة .

ومات عبد المؤمن فى سنة ٥٥٨هـ (١١٦٣م)(٢) محمود السيرة محبوباً مقدراً .

وأشهر الذين جاءوا بعده حفيده أبو يوسف يعقوب الذى تلقب بالمنصور ، ومع أنه ابن أمة مسيحية كان ذا عاطفة إسلامية نبيلة ، وله آثار

---

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام ٣٥٣ — نقلا عن ابن أبى زرع . —وانظر ترجمة ابن تومرت فى وفيات الأعيان جـ ٥/٤٥ — وانظر تاريخ ابن خلدون ٢٢٥/٦ وما بعدها ومن صفاته أنه كان ضئيل الجسم دميم الخلقة متقشفاً متزمتاً عارض الموسيقى وشدد العقوبة على شرب الخمر .

(٢) كان والد عبد المؤمن خزافاً يصنع الآنية من الطين ، وظهرت لعبد المؤمن هذا غرائب لفتت الأنظار إليه— إن صحت . وقد ولى مدة ٣٣ سنة وأشهراً ، ومات شيخاً نقى البياض ، وكان معتدل القامة عظيم الهامة أشعل العينين كث اللحية شثن الكفين ، قيل ولد سنة ٥٠٠هـ وقيل سنة ٤٩٠ ، وعهد بالأمر إلى ابنه محمد ولكن الشعب خلعه بعد شهور قليلة وولى بعده أخاه يوسف . (وفيات الأعيان ج٣/٢٣٩ .

إسلامية معمارية لاتزال باقية فى مراكش وأسبانيا ، وكان قد بنى قريباً من أشبيليه جامعاً كبيراً استغرق بناؤه خمسة وعشرين عاماً ، ولعله أراد به مقابلة المسجد الكبير فى قرطبة ، وهذا المسجد حول الآن إلى كاتدرائية ، وبنى فى مراكش مستشفى كبيراً وله آثار معمارية أخرى .

كانت دولة الموحدين جادة فى حروبها الدينية ضد الفرنجة فى أسبانيا ، ولكنها صادفت عهد تفرقة المسلمين وتجمع أعدائهم ، وكان الروح الصليبى مسيطراً على المشاعر الأوروبية كلها ، فكانت موقعة العقاب سنة ٦٠٧هـ (١٢١٢م) موقعة حاسمة استسلم المسلمون بعدها بعامين . وكان آخر حكامهم هو محمد الناصر بن المنصور الذى هزم أمام جيش أوروبى كثيف يقوده الفونسو الثامن ملك قشتالة سنة ٦٠٩هـ . وكان هذا الجيش يضم جنوداً من عدد من الممالك وجماعة من الصليبيين الفرنسيّين ، وبعد هذه الهزيمة صارت أسبانيا فريسة للتاج المتحد على ما ذكرنا قبل[١] .

كانت مدة الموحدين كما رأينا أطول من مدة المرابطين ، وأيضاً أفادت الإسلام أكثر .

كان ملوك المرابطين يتسمون باسم أمير المسلمين ، وتركوا لقب أمير المؤمنين للخليفة العباسى إذ كانوا يقرون بسيادته الروحية ، وهذا نفوذ كان قد انقطع منذ قيام العهد الأموى فى أسبانيا ، ولكن الموحدين تلقبوا بلقب أمير المؤمنين[٢] وعندما كان صلاح الدين الأيوبى يجمع قوى المسلمين لحرب

---

(١) كان جيش الناصر ستة آلاف نجا منهم ألف واحد ، وفر هو إلى مراكش فمات بعد عامين ، وخلفه تسعة من سلالة عبد المؤمن ، ثم قضى عليهم بنو مرين ، وهم فرع من زناتة وبذا دالت دولة الموحدين (حتى ٧١٣هـ) .

(٢) أول من تلقب به هو يوسف بن عبد المؤمن ، قال الحافظ ابن كثير ، أن عبد المؤمن لما مات حمله ابنه ميتا إلى مراكش على أنه مريض ، ولما وصلها أظهر موته فعزاه الناس وبايعوه على الملك باسم أمير المؤمنين (بداية النهاية جـ١٢/٢٤٦) وقارن هذا بما سبق من قول ابن خلكان .

الصليبيين استعان بالمنصور الموحدى فأرسل إليه هدايا مع أحد بنى منقذ ، وهو ابن عم لأسامة ابن منقذ ، ولم يوجه الخطاب إليه بآسم أمير المؤمنين رعاية لمكانة الخليفة العباس ، الذى كان صلاح الدين تابعاً له ، فخاطبه بأمير المسلمين ، ولم يسترح المنصور لهذا الخطاب ، فتردد ، ولكنه آثر أخيراً نصر الإسلام ، فأرسل مائة وثمانين سفينة لتجارب مع المسلمين .

وحرب هاتين الدولتين -سواء فى أسبانيا أو أفريقة يكسوها الروح الدينى ، وقد دخل الإسلام على عهدهما كثيرون من المجوس والوثنيين وأيضاً بعض المسيحيين .

(هـ) القرن السادس عشر الميلادى :

وفى القرن العاشر الهجرى -السادس عشر الميلادى- انبعثت حركة نشيطة للدعوة الإسلامية على هذا الساحل وكانت ذات أثر فى إدخال الإسلام فى جوف القارة ، وكانت ترجع إلى أمرين مختلفين ، أولهما ضغط الفرنجة فى أسبانيا على المسلمين وطردهم إلى أفريقية مما دفع بعباد الأربطة إلى الخروج للجهاد ونشر الدعوة ، وثانيها انتصار صلاح الدين على الصليبيين ، فقد بعث الأمل فى نفوس المسلمين لسيادة دينهم ، فقد دخل الإسلام فى مصر نحو خمسة وعشرين ألفاً من المسيحيين ودخله عدد أيضاً من الذين كانوا فى المدن الصليبية فى الشام عقب جلاء - الصليبيين[1] وهزت سمعة الانتصار أعداداً كبيرة من الزنوج فى الصحراء الكبرى ، فأقبلوا على الإسلام يتعرفون عليه ويدينون به ، فى الوقت نفسه مَدَّ البربر الإسلام إلى غانا حتى دخلت كلها الإسلام وظلت مسلمة وعملت على مد الإسلام فيما حولها ، وإلى جانب غانا كانت مملكة صنغاى ، التى دخلت الإسلام فى سنة ٤٠٠هـ تقريباً - أى القرن العاشر الميلادى وقد كان هذا القرن عصر امتداد الإسلام فى أفريقية وآسيا .

هذا موجز سريع عن استقرار الإسلام فى الشمال والشمال الغربى لأفريقية ومنه نفذ إلى جوف القارة السوداء ، ولكن طريقه الأيسر والأكثر

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام ٣٥٣ .

فاعلية هو طريق النيل الذى يربط مصر والسودان ، ثم طريق نهر النيجر والكونغو ، هذا عدا الطرق التى سلكها من شرق القارة .

وطوال العهود التالية كان الجامع الأزهر فى القارة قد ورث جامع عمرو فى الفسطاط والمدارس الأخرى التى كانت قد أنشئت فى عهد الأيوبيين ، وكان طلاب الدراسات الإسلامية والعربية يفدون إلى الأزهر من مختلف جهات القارة ثم يعودون لتعليم الإسلام فى بلادهم ، لم تكن هذه حركة قوية ولكن عن طريقها أنشئت الكتاتيب والزوايا ، وأعطيت فكرة عن الإسلام ، ودخله بسببها أفراد ، وخلال هذه المدة كلها لم يكن للمبشرين نشاط ملحوظ ، ولا كان للإرساليات مدارس ومصحات هناك إلا شيئاً قليلاً جداً ، حتى جاء القرن التاسع عشر فبدأ نشاط التبشير بمساعدة الاستعمار ، وقد كان نشاط الدينين -الإسلامى والمسيحى- متعادلاً ، وكان الإسلام أسبق فى كسب الوثنيين ، ونمو المساجد أبرز من نمو الكنائس .

وجاء هذا القرن والدول الإسلامية كلها ترزح تحت عبء ثقيل من الجهل والتخلف ، ذلك لأنها كانت قد استكانت طويلاً منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، بينما كانت الدول الأوروبية تدرس تراث - المسلمين وتستفيد منه فكراً وعملاً ومادة وعقلاً .

كانت الدولة العثمانية ، أكبر الدول الإسلامية وأوسعها رقعة ، قد أخلدت إلى الراحة وغفلت عن واجبها ، فلا رعت قوانين الإسلام حق رعايتها ، ولا أخذت بنظم المدنية الحديثة ، فأطمعت أعداءها فيها ، وتكالب الأوروبيون على تقسيم ميراثها وهى لم تزل على قيد الحياة ، وأطلقوا عليها اسم الرجل المريض ، وكانت الدولة الإيرانية فى الشرق والأخرى الحسينية فى أقصى الغرب تغطان فى مثل هذا النوم ، مما هيأ للمستعمرين أن يفتاتوا على حقوقها جميعاً ، وربما كان هذا الافتيات أكثر وأشد مما نال المستعمرات التى خضعت لقواتهم، وكانت

هذه الحال مما أفسح الطريق أمام المبشرين ، فانبعث فى إرسالياتهم إلى الشرق نشاط لم يعرف من قبل ، وظل هذا النشاط يشتد ويقوى فى مد لا يزال يتقدم إلى اليوم ، واتخذ المبشرون والغربيون عامة من ضعف المسلمين وتأخرهم حجة على الإسلام فقالوا أنه دين التأخر والاستكانة ، وأن المسيحية دين التقدم والارتقاء ، وبينما كان رجال الدين الأوروبيون طوال العصر الوسيط مثار فساد وأسباب تأخر ، كان الدين الإسلامى فى الشرق يبعث نهضة ويحيى مواتا ، وقد اضطر الأوروبيون أن يفصلوا بين رجل الدين ورجلة الدولة ، فجاراهم الشرقيون تقليداً لا يقوم على سبب ، وأدى هذا إلى ترك رجل الدين الإسلامى يتحمل وحده - على ضعفه وانفراده - عبء رسالته ، هذا بينما لم تبخل الدولة الأوروبية على رجل الدين الذى عزلته بالإمداد والحماية فى كل بلد تنبعث فيه إرسالية .

ويجب ألا ننسى أن الأوروبيين الذين تقدموا هم الذين اتصلوا بالمسلمين واستفادوا من علومهم ، ولكن هذا مايتناساه المبشرون .

(و) التبشـــير ونشـــاطه :

وقد سبق الاستعمارُ حركة التبشير بمدة وجيزة ، وكان هذا طبيعياً ، لأنه لولا وجود الاستعمار لظل التبشير بعيداً عن منطقة الشرق الأوسط .

واحتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠م ثم احتلت تونس سنة ١٨٨١م ، وكان الاستعمار الفرنسى قائماً على إلحاق مستعمراته فى هذه المنطقة بفرنسا ، ومن أساليبه أن يعمل على إضعاف الإسلام من غير أن يحرج صدور المسلمين ، وقد خدر نابليون الثالث أعصاب الجزائريين بأن منحهم حق المواطن الفرنسى ولم يفرق فى هذا بين مسلم وغير مسلم ، فلما جاء غمبتا سلب هذا الحق من المسلمين وضاعفه لليهود ، وأعلنت الحكومة الفرنسية تناسى الدين واعتزاله ، بمعنى أن الرعايا الفرنسيين هم رعايا فرنسا على أى دين كانوا ، ولكن أعلن وزير خارجيتها أو مستعمراتها أن هذه السياسة اللادينية لا تتعدى حدود فرنسا

إلى المستعمرات ، ثم خصصت فى ميزانيتها باباً لمعونة المبشرين فى أفريقية ، وكان باباً واسعاً ، وكانت ميزانيتها إذ ذاك فى ضائقة[1] ، ولم تنس التوسعة على الجالية اليهودية التى كانت قد استقرت من زمن غير بعيد يرجع إلى سنة ١٨٧٥م وهذا واضح فى أن فرنسا كانت تبذل المحاولات العديدة لمضايقة الإسلام والقضاء عليه .

وفى سنة ١٨١٨م بعثت جمعية المرسلين المسيحية Christian Missionary Sosiaty إلى مصر حملة تبشيرية ، كانت مكونة من خمس إرساليات لكل إرسالية رئيسها وأعضاؤها ، فاستقر ثلاثة من الرؤساء بمصر ، وذهب اثنان إلى الحبشة ولم يستقرا بها طويلا ، بل طرد ثانيهما ، ويبد أن ذلك بسبب اختلاف المذاهب ، إذ كانت هذه الإرساليات كلها انجليكانية ، والحبشة تتبع المذهب الأرثوذكسى أما الأخريات التى استقرت بمصر فكان مهمتها أن تتعاون مع قبط مصر ، وأن تمدهم بحاجاتهم من المدنية الحديثة ، وكان عملها فى الواقع متعدد الجوانب ، سياسياً ودينياً ، فهى تهدف إلى التقريب بين الكنيستين ، وتتعاون مع القبط ضد الإسلام ، وتعمل على إحداث فجوة بين المسلمين والأقباط مما هيَّأ للانجليز أن يتدخلوا فى سياسة مصر ، وقد تحقق هذا فيما بعد إذ كان مما يتذرع به الانجليز للبقاء فى مصر حماية الأقليات المسيحية بها ، ولكن الإرساليات مع هذا لم تحقق النجاح الذى كانت تريده وإن كان المبدأ السياسى ظل باقياً ، وشعرت بالفشل فى رسالتها فانسحبت سنة ١٨٦٢م ، أى قبل الاحتلال الانجليزى لمصر بعشرين عاماً .

وبصدد هذا النشاط التبشيرى نذكر بادىء ذى بدء أن أمريكا كانت صاحبة يد أطول فى كل هذه الميادين ، وأنها منذ دخلت ميدان التبشير صارت بسرعة أكبر بلد يصدر الإرساليات ، وكان التعاون والاتحاد بينها وبين انجلترا مستمراً ، لاتحادهما فى السياسة وفى المذهب ، وكان الشمال الأفريقى مسرح

---

(١) انظر فى هذا : الإسلام فى القرن العشرين ص/ ٩٠ وما بعدها ط . دار الهلال .

نشاطهما طوال القرن التاسع عشر ، ثم كان الساحل الغربى فريسة أهون ، حيث كانت هناك إرساليات أخرى عديدة ، واتخذت مصر قاعدة هامة لهذا الغرض وفى سنة ١٨٥٨ -وقبل أن تنسحب البعثات الانجليزية- ومع شعورها بقلق الفشل ، وفدت بعثة فتحت باباً جديداً للنشاط التبشيرى والسياسى ، إذ عملت على الاتصال بمثقفى القبط لاستمالتهم إلى المبادىء التى جاءت لها اخواتها ، ولكن عملهم كان أيضاً غير مقبول وقوبل بكثير من الصدود ، ولم تزد البعثة على أن أنشأت كنيسة تنافس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وباءت بما باءت به أخواتها من قبل ، وغرست بذور تفرقة بين الكنائس .

وهذا كله يرينا مدى ما بذل التبشير من جهود بدءاً من القرن التاسع عشر ، وكانت الإرساليات التبشيرية منذ زمن بعيد قد ولت وجهها شطر جهات أخرى يأساً من اجتذاب أحد ممن فى بلاد الإسلام إلى النصرانية .

(ز) دور الأزهر الشريف فى هذا العهد :

بينما كانت حملات الاستكشاف البحرية تمتد تدريجياً حول الساحل الإفريقى وتؤسس مراكز تبشيرية ، وتعمل جهدها لجذب الوثنيين إلى المسيحية كان هناك تيار إسلامى يتمشى ببطء وفى صمت خلال القارة ، فقد كان ثم قوم عرفوا الإسلام عن طريق الدعوات التى أشرنا إليها من قبل ، وكانت مصر بحكم وضعها الجغرافى مركزاً تجارياً رائجاً لعديد من الأقاليم الأفريقية ، خصوصاً أعلى النيل وغرب السودان ، وكانت قوافلهم البرية تصل إلى صعيد مصر ، ثم تحمل السفن المصرية بضائعهم إلى حلوان والقاهرة ، وكانت إسنا وقوص وقفط وأسيوط محطات معروفة تتلقى القوافل الوافدة ، ومنها تقوم رحلات أخرى إلى البحر الأحمر ثم تعبر إلى أراضى الحجاز لأداء فريضة الحج .

وبينما كانت القاهرة تغص من بداية شهر رمضان بالوفود الآتية من شمال أفريقية ليقيموا بها هذا الشهر المبارك ، وربما جاءوا من قبله ، كما يقضون شهر

شوال أيضاً قبل أن يبحروا لأداء الحج ، كانت مدن الصعيد تعمر بالوافدين من قلب القارة وساحلها الغربى ، وكانت هذه المدن الصعيدية مراكز علم إسلامية ، ولا زلنا نعتمد على تراث أئمتها أمثال الإسنوى والقفطى والقوصى ؛ والراغبون فى مزيد من العلم يأتون إلى الأزهر فيقيمون به السنين وكانت به أروقة بأسماء بلادهم .

ولعل بنى التكرور Ticror — كانوا من أكثر الإفريقيين بذل جهد فى تحصيل علوم الإسلام ، وهم أيضاً أكثرهم إذاعة له فى بلادهم وبين الإفريقيين المجاورين ، ونشاط هؤلاء وعلمهم أسبق من نشاط الأوروبيين الكشفى والتبشيرى .

وإقليم التكرور يقع إلى الجنوب الغربى من السودان على جانبى نهر السنغال وحوله ، اعتنق أهله الإسلام فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، ولصعوبة اتصالهم بشمال القارة الافريقية عن طريق المحيط ، اتصلوا بمصر بواسطة القوافل البرية ، وعادت عليهم هذه الصلة برواج تجارى ، وهى أيضاً أيسر طريق لهم يؤدون منه الحج ، وبدت منهم رغبة قوية فى تعلم الإسلام ، وكانت لهم مدرسة كبيرة يتلقى فيها أبناؤهم المعلومات الأولية التى تؤهلهم لدخول الأزهر ، كانوا يتعلمون فيها القراءة والكتابة والمعلومات الدينية الأساسية ويحفظون القرآن[1] وربما قضى الواحد منهم عشرين عاماً أو أكثر فى مصر ، وكان من أبناء التكرور تجار مقيمون بالقاهرة إلى آماد قد تطول وقد تستمر ، وكان للتكروريين رواق خاص بهم فى الأزهر له أوقاف ينفق منها عليهم ، وكانت كثرتهم فى سكان « بولاق الدكرور » وكانت قرية صغيرة تسمى « منية بولاق » فلما كثروا بها سميت بولاق التكرور ، وحرفها العامة فجعلوا تاءها دالا . .

وكان بالأزهر أيضاً سودانيون من « دارفور » — نقلوا الإسلام إلى بلادهم

---

(١) يقول المقريزى فى خططه جـ٢/٣٢٦ أنها كانت تسمى مدرسة بن رشيق .

وكانت فى القرن الثامن عشر بلاداً ساذجة بها وثنية أو وثنيات وتشيع فى أهليها عادات كثيرة سيئة ، ويرتكب الكثيرون منهم موبقات قبيحة ، وربما لا يعرفون أن الإسلام يحرمها ، وقد سجل الشيخ اليونسى فى رحلة إلى دارفور مساوىء كثيرة من أعمالهم ، ومنها يتضح أن جهاد الأزهريين الذين ينهون تعليمهم فى الأزهر ويعودون إلى بلادهم كان جهاداً مضاعفاً ، بعضه موجه إلى العقيدة وبعضه موجه إلى الأخلاق والعادات .

ومد الأزهر أيضاً معاهد السودان الشمالى بخريجيه ومناهجه ، وهذه المعاهد لم تكن تعدو المرحلة المتوسطة ، والابتدائية التى تتمثل فى الكتاتيب وفيها كان التلاميذ يتلقون مبادىء الإسلام ، وينشأون عليه ، فيحد ذلك من سلطان التبشير عليهم ، وإلى معاهد السودان كان يفد أفراد من السودان الغربى ومن النيجر وفولتا العليا ، وما حول ذلك ، وكان هذا نشاطاً إسلامياً له أثر ما فى التعريف بالإسلام ويرجع كله أساساً إلى الأزهر .



ثانياً : فى غرب أفريقيــة

السـياسة والتبشــير :

كانت حركة الكشوف وتكوين السيادة الأوروبية ، يمشيان جنباً إلى جنب مع حركات التبشير أيضاً ، وكان من سياسة بريطانيا أن أبدت تراخياً شديداً فى ضم أراضى جديدة لها ، لأنها لم تشأ أن تتحمل مسئوليات جديدة ، وفقط – تحت ضغط الأحداث سنة ١٩٠٠ أعلنت أن نيجيريا جزء من المملكة المتحدة ولم تضم البرتغال وأسبانيا شيئاً – حتى القرن التاسع عشر – زيادة عما كان لها من قبل ، أما فرنسا فإنها خلال ثورتها وعصر نابليون كانت مندفعة بعامل الرغبة فى الظهور بمظاهر العظمة ، إلى توسيع مستعمراتها وأن تمتلك كل ماتستطيع تملكه ، فاستعمرت جزءاً كبيراً من غرب أفريقية كان يسمى السودان الفرنسى ، وتقسم بعد الحرب الثانية إلى عدد من الدول ، وأخذت ألمانيا أيضاً حظاً من هذا الحطام . وعملت كل دولة على بعث إرساليات تبشيرية تتبع مذاهبها فكانت الإرساليات البروتستانية ذات الغلبة ، ولكنها تبعاً للدول التى تنتمى إليها مختلفة فى فروعها لأن المذهب ذو فروع عديدة .

ولم يكن الموقف يبشر بنجاح فى نشر المسيحية بين الافريقيين ، وقد أنفقت هذه الإرساليات جزءاً كبيراً من نشاطها فى حرب بعضها بعضا ، ثم لم تستطع واحدة منها أن تتوغل فى جوف القارة ، وهكذا نجد أن عصر الكشوفات لم يزد على أن كون مستعمرات وشبه مستعمرات على امتداد الساحل ، ولم تكن الصلات بينها قائمة ولا سهلة ، وبهذا كانت أعمال التجارة أوسع مجالاً من أعمال التبشير .

وحتى منتصف القرن التاسع عشر كانت أفريقية لا تزال قارة مجهولة لدى الأوروبيين ، وكانت الحواجز الطبيعية من حرارة الجو والأدغال والجبال مما لم يستطع أحد اقتحامه حتى هذا الوقت ولكن المبشرين كانوا شديدى التطلع إلى مد نشاطهم فى داخل القارة .

وعلى الساحل كانت مرتفعات سيراليون التى تبلغ ٢,٧٠٠ق . تحدث عقبة فى اطراد الاستعمار والتبشير على طول الخط الساحلى المنخفض ، وظل السكان فى أعلى الهضبة بعيدين عن هؤلاء المرسلين ، وعملت بعض الإرساليات على الاتصال بهؤلاء الزنوج ، وكونت مستعمرة صغيرة هناك ، وأعلنت فى سنة ١٨٤٨م أنه ضمت نحو ٥٠,٠٠٠ شخص إليها ، وكان معظمهم من العبيد الفارين من غارات النهابين ، فوجد أنهم يستعملون أكثر من ١١٧ لغة مختلفة ، وأنهم على حظ كبير من الغباء والتأخر ، وتشيع بينهم أنواع من الخرافات والثنيات[1] واعتبرت الإرسالية فاشلة لأن هذا العدد لم يكن ملائماً للجهود التى بذلت والزمن الطويل الذى مضى على البعثة ، ولكن توالت البعثات من جهات عدة ، وكانت جمعية التبشير المسيحى فى ألمانيا قد أوفدت إرسالية فى سنة ١٩٠٤ فأقامت بين قبائل « السوسو » مدة من الزمن ثم رأت أن تصعد إلى مقر المستعمرة ، وربما كان التنافس هو الباعث لها .

وفى سنة ١٨١١م وصلت إرسالية من جماعة «الميثوديزم» إلى هذه المستعمرة ، وربما كان حظها أوفر من غيرها ، ولكن الإرساليات كلها لم تحقق الحظ الذى كانت ترجوه بل ولا قريباً مما كانت ترجوه ، وقوبلت كلها بنفور شديد وعداء ، وكان الزنوج إذ ظفروا بواحد منهم على انفراد قتلوه ، وفقدت جمعية التبشير خمسين شخصاً من مبشريها فى مدة تبلغ نحو العشرين عاماً ، وكانت تستبدل من يقتل من الرجال أو النساء بشخص آخر ، ولكن سكان المستعمرة كانوا ألين جانباً وأقل خطراً من غيرهم وإن لم يكونوا مسالمين ، واعتبرت القرية مسيحية مع بقاء الوثنيات بين الكثيرين .

وظلت خدمات الجمعية تمتد على طول الساحل ، وعملت على بث اللغة الانجليزية ، ورفع مستوى الإفريقيين الذين يدخلون المسيحية إلى رتب لاهوتية

---

(١) ذكر المرحوم جورجى زيدان فى كتيب له سماه . «طبقات الأمم» .. أنواعاً عديدة من هذه العقائد كا ألم بوصف موجز لحياة هذه الجماعات .

بقدر ما يتهيأ لهم من درس الكتاب المقدس ، ثم أنشأت كلية للتعليم العالى سمتها كلة « فوراباى » ثم ألحقت بعد ذلك بجامعة « دورهام » وإلى هذه الكلية يرجع الفضل فى نشر اللغة الانجليزية فى غرب أفريقية ، وكان أبناء نيجيريا يكتبون لغتهم بالحروف العربية ، فتركوها واستعملوا الحروف اللاتينية ، وخسرت العربية والإسلام من هذا كثيراً لأن الحروف العربية كانت تسهل قراءة القرآن وتقرب القراءة العربية .

وفى سنة ١٨٥١م رأت الجماعة الانجليكانية فى غرب جبال الأنديز أن ترسل من قبلها جماعة من السود الذين يكثرون هناك لتبشير زملائهم السود فى أفريقية الغربية ، ولكن لا المرسلون وجدوا راحة واطمئناناً فى أفريقيا ولا الأفريقيون أقبلوا عليهم أكثر مما أقبلوا على غيرهم ، وكان الأوروبيون يتذرعون دائماً بأنهم يحاربون تجارة الرقيق ، وقد أدخلوا بهذا كثيراً من الطمأنينة على الأفريقيين ، ولكنهم لم ينجحوا فى جذبهم إلى المسيحية بالقدر الذى كان يرجى ، ولا بما يعادل شيئاً ذا بال من النفقات التى أنفقوها . ومن المصادفات العجيبة أنه فى خلال هذا القرن – التاسع عشر – برز منافس خطير وهو الإسلام ، لأنه كان قد استقر فى بلاد المانجو – جنوب سيراليون – منذ القرن الثامن عشر ، ولم يكن المبشرون يحسبون لجماعته حساباً ، فإذا هم يصطدمون بهم فى هذا الوقت .

وفى سنة ١٨٢٨م وصلت إلى هذا الساحل إرسالية من « بازل » ، جاءت مع حملة تجارية من الدانمرك ، فأمضت نحو اثنى عشر عاماً لم تستطع خلالها أن تقوم بأى عمل إيجابى لتقدم الدعوة المسيحية ولم تكتسب أنصاراً ، وفقدت ثمانية من أعضائها ماتوا هناك ، ولكن هذا الفشل حولها إلى ما فعلت إرساليات الهند من قبل ، وهو درس اللغات والأفكار الأفريقية ، وأن تعمل على تقديم ماديات تستهوى السكان ، وكان مما قدمته زراعة الكاكاو ، وتبين أن منطقة ساحل الذهب (غانا الآن) من أصلح البقاع لهذه الزراعة فما وافت نهاية القرن حتى كانت أكبر وأشهر منتج للكاكاو . وكان الإقليم فى هذا الوقت

متخلفاً فقيراً لا تحكمه حكومة واحدة ، ولكنه بخضوعه للاستعمار الانجليزى ساده شعور الوحدة من أجل المقاومة ، واستفاد من زراعة الكاكاو شيئاً من الثراء مع أن معظم الثروة أو كلها إلا قليلاً كان للمستعمر الأوروبى ، وبعد أن استقلت غانا أصبحت تتميز بثرائها من زراعة الكاكاو ، وأيضاً سادت فيها الديانة المسيحية ، وعلى الأخص المذهب الانجليكانى ، ويعزى الفضل فى تثبيته هناك إلى المبشر « توما بيرتش فريمان » Thoma Berch Freeman وهو أفريقى الوالد انجليزى الأم ، ولد وتعلم فى انجلترا – ومات أبوه هناك ، وانضم هو إلى جماعة الميثوديزم ، ولما رجع إلى أفريقية كانت الألفة بينه وبين الأفريقيين سهلة ، وربما لأصله الأفريقى كان يحترم تقاليدهم ، وأنس إليه رؤساؤهم فأولوه ثقتهم ، ثم أقبلوا على المسيحية ، ومكث عشرة أعوام (١٨٣٤ – ٤٤) كسبت الكنيسة خلالها عدداً كبيراً من المتنصرين .

وننتقل إلى نيجيريا التى ضمتها انجلترا إلى التاج البريطانى بدءاً من سنة ١٨٥١ إذ وضعت يدها على مدينة لاجواس ، فمكنت لكنيستها أن تقوم بنشاط واسع لم تكن سبله ميسرة لها من قبل .

ودخول المسيحية إلى نيجيريا جاء عن طريق سيراليون فحين محاربة الرق وإعلان تجريمه كان فى سيراليون أعداد من المنهوبين من نيجيريا وما حولها ، فلما حرروا رجعوا إلى موطنهم الأصلى فى غرب أفريقية ، وظلوا على صلة بالإرساليات التى في سيراليون من الإنجليكان والميثوديزم .

وفى سنة ١٨٤٤ دخلت هذه البلاد بعثة كان فيها صمويل كروذر S. Crother وهو أفريقى كان قد نهب صبياً ، وتعلم فى انجلترا وعمد ، وقادته المصادفة إلى أن يتعرف على أمه وأخته فاقتنعتا بدعوته وعمدتا ، واستطاع كروزر أن يترجم صيغ التعميد إلى اللغة اليوربية – لغة شعب اليوربا Yoruba وإلى هذا القسيس يرجع الفضل الأكبر فى تنصير هذا الشعب ، ولكنه مات بعد ذلك بقليل ، وأبدى الرؤساء مقاومة للدعوة ، ولكن الكنيسة تأسست وظلت تواصل أعمالها ، وسرعان ما جاء إلى البقعة توما فريمان يقود إرسالية من الميثوديزم ليغذى الدعوة بمزيد من النشاط .

ومنذ ذلك الوقت أخذت حملات الاستكشاف تتجه إلى جوف القارة مع الأنهار .

وفى سنة ١٩٠٠م قامت الحكومة البريطانية بتقسم نيجيريا وتنظيمها ، إذ وجدت أن مساحة هذا القطر تعادل مساحة بريطانيا أربع مرات ، وأنها أكثر وأكبر الأمم الأفريقية ، ووجدت أن الإسلام قد استقر فى شمال الإقليم وأن حركة التبشير فيه تثير قلاقل وتسبب لها متاعب ، فعملت على حد النشاط التبشيرى هناك ، ولكنها إذ حولت المدارس فى الدولة كلها إلى نظام انجليزى حدت من تيار الدعوة الإسلامية ، وقللت من الإلمام بمعرفة الإسلام وعلوم القرآن ، ولم ينشىء فرض اللغة الانجليزية وحدة ما بين القبائل العديدة التى تتكلم لغات لا تحصى عدا ، ولا تزال كذلك حتى الآن ، هذا لأن اللغة الانجليزية عرفها المتعلمون وموظفوا الحكومة ، وهؤلاء لا يمثلون إلا قلة ضئيلة من الأهلين .

وفتح مسلمو نيجيريا مدارس لهم علموا فيها الإسلام واللغة العربية ، ثم فتحت جامعة أحمدو بيللو ، ووفد على الأزهر طلاب ينشدون تعليماً إسلامياً كما أرسلت بعوث من الأزهر ومن الحكومة السعودية للتدريس فى المساجد والمدارس ، ويعمل المسلمون الذين فى الشمال على مد الدعوة جنوباً وغرباً ، فلا تخلو مدينة من مساجد ومسلمين وهناك قلة تفهم اللغة العربية ، ولكن اللغة والفكرة الإسلامية جميعاً فى حالة ضعف . ويوجد بين قبائل اليوربا ، وعلى امتداد نهر النيجر مدن إسلامية ، وهؤلاء يغرون الكثيرين بالانتماء إليهم ، ونمو الإسلام والمسيحية معاً بطيء ولا تزال الوثنية فى داخل البلاد وأعالى الأنهار متفشية ، وجهود المبشرين المادية قوية ، ومغرياتهم على الإسلام كثيرة ، والمعركة هى التى وصفنا من قبل .

***

ثالثاً : فى جنـوب أفريقيـة

١ - تمهيـــد :

تمثل منطة الكاب الآن حركة من حركات الصراع العنيف بين البيض والسود ، وبين الإسلام والمسيحية ، وبين المسلمين العزل وحكومة البلاد ، وقد ذهب قواد من المسلمين شهداء الدعوة الإسلامية ، منهم من أكلت السجون أجسامهم ، ومنهم من أعدم ، ولاتتهاون الحكومة هناك مع دعاة الإسلام ، ولاتسمح بوفود دعاة إسلاميين ، ويشتد النزاع أكثر فى «جوهانسبرج» ، ومنذ قليل (١١ يونية ١٩٨٣) أعدمت الحكومة البيضاء ثلاثة من المسلمين الوطنيين ، رغم النداءات الكثيرة المسترحمة لهم من شتى الدول ، وليست جريمتهم الكبرى أنهم وطنيون ولكنها أنهم مسلمون .

وفى الحديث عن جنوب أفريقية عامة نرجع إلى منطقة الكاب ، لأن مدينة الكاب من أول ماأنشأ الأوروبيون هناك .

٢ - محنة الإسلام فى جنوب أفريقية :

كنا نود لحكومة جنوب أفريقية - وهى حكومة انجليزية العنصر - أن ترعى شيئاً من ديمقراطية الانجليز وتمنح رعاياها حرية دينية ، ولكنها - وأسفاه - تمارس اضطهاداً مخزياً ، وعلى ما نحن عليه فى عرض مواقف التبشير والإسلام نعرض شيئاً من تاريخ الإقليم وكيف دخلته كل من الديانتين ثم ننتهى إلى الموقف الحالى .

٣ - طبيعـة الكشـوف البحـرية :

فى بداية حركة الكشوفة البحرية التى نشطت خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر اتجه الأسبان إلى الشرق بعد رحلة كولومب الأولى ، واتجه البرتغليون جنوباً بموازاة الساحل الأفريقى ، وكان التنافس بين الدولتين كبيراً ، ثم مالبثت الدول الأخرى أن دخلت هذا الميدان .

وكانت حملات الكشوف كما قدمنا تصطحب معها القسس المبشرين لتعليم المسيحية ، وقد كانت أسباب هذه الرحلات الكشفية متعددة متشابكة ، وكان الغرض الدينى بارزاً واضحاً فيها ، ولهذا منح البابوات الدول المستكشفة حق التملك والاستيلاء على الأراضى التى يصلون إليها[١] ومن الأغراض الدينية الهامة فى هذه الرحلات محاصرة المسلمين -خصوصاً فى الهند- والقضاء على المسلمين هناك وحيث تصادف أن كانت رحلة كولومب قد بدأت فى العام الذى طرد فيه بنو الأحمر -آخر حكام المسلمين من أسبانيا ، ثم تلا ذلك تعقب المسلمين الباقين بالطرد والقتل - كان لدى البابوات ورجال الدين آمال كبيرة فى القضاء على الإسلام فى البقاع الأخرى ، وأن تحقق هذه الحملات ماعجزت عنه الحروب الصليبية وجاء فى بعض المراسيم البابوية أن الإسلام طاعون يجب أن يحمى الناس منه ، كذلك وعد البابوات رجال الرحلات البحرية بغفران ذنوبهم ونجاتهم من النار فى الدار الآخرة وفوزهم بدخول الجنة.

وهناك خطة تعرف بخطة الهند ، وهى خطة وضعها البابا نيقولا الخامس كان يهدف من ورائها إلى استئصال الإسلام والقضاء عليه قضاء مبرماً ، لا تبقى له بعده باقية ، وتقوم هذه الخطة كما رسمها على إعداد حملة تشترك فيها أوروبا الكاثوليكية كلها ، وأن يدعى الملوك المسيحيون فى آسيا وأفريقية للمشاركة فيها بالمال والعتاد والرجال ، وبها يطوق العالم الإسلامى من كل جوانبه ثم يضرب الضربة المميتة القاضية ، وأرسلت هذه الخطة سنة ١٤٥٤م إلى كل من أسبانيا والبرتغال .

وكان هناك أيضاً رحلات برية إلى جوف القارة الآسيوية وأطرافها الشرقية والجنوبية ، عن طريق آسيا الصغرى والخليج الفارسى ، وقد أمدت

---

(١) أصدر نيقولا الخامس أول هذه المراسيم سنة ١٤٥٥م ، وهى آخر سنواته فى منصبه ، وتلاه البابا كليمنت الثالث فأصدر سنة ١٤٥٦م مرسوماً مماثلاً أكد به وعود سلفه ، ثم جاء البابا الكسندر السادس ، فأصدر ثلاثة مراسيم توسع فيها أكثر فأعطى المستكشفين حق تملك ما كشفوا وما سيكشفون (انظر أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ص١١٢) .

الأوروبيين بمعلومات ناقصة ، وبذرت بذوراً مسيحية فى تلك الجهات ، وفى هذا الصدد لا تنسى رحلات ماركوبولو[١] .

٤ - كشف منطقــة الكاب :

كان البرتغاليون أول من وصل إلى هذه المنطقة سنة ١٤٨٨ ، وانتقلت منهم إلى الهولانديين سنة ١٦٥٢ ثم انتزعتها بريطانيا أثناء حروب نابليون ، ثم ردت إلى الهولانديين بضعة أعوام واسترجعها الانجليز فظلت تحت أيديهم ، وهى لا تزال تحتفظ بمنطقة رأس الرجاء الصالح ، وبعد أن وصل فاسكودى جاما إلى الهند ظهر لهذه المنطقة أهمية أكبر .

كانت رأس الرجاء الصالح تحت يد الهولانديين من سنة ١٦٥٢ حتى سنة ١٧٩٥ ، واستولى عليها الانجليز ثلاثة أعوام وردت لهولاندا سنة ١٨٠٢ ، ثم استرجعوها ، وأسس الهولانديون فى المكان الذى به الآن مدينة الكاب - محطة لأسطولهم ، فنمت هذه المحطة بسرعة عجيبة إذ وفد عليها العمال والزراع والباعة .. واستوطنوا الجهات التى حولها ، وقُدِّرَ عددهم أواخر القرن

---

(١) ماركوبولو إيطالى من البندقية ، وفى سنة ١٢٩٨ كان أسيراً فى جنوه عقب معركة بحرية هزمت فيها فينسيا (البندقية) - وفى سجنه كتب رحلاته التى تصور أحداثاً تاريخية ، وفناً أدبياً رائعاً وعنى بها المؤرخون والأدباء والسياسيون ، ولكنها أدبية أكثر منها تاريخية .

كان أبوه وعمه تاجرين فى القسطنطينية ، وذهب لمقابلة قوبلاى حفيد جنكيزخان مع اثنين من الدومنيكان لدعوته للمسيحية سنة ١٢٦٠ وأعجب بهم وطلب ١٠٠ معلم وعالم ، ولما عادوا إلى روما لم تكن الظروف ملائمة لإرسال معلمين ، وبعد عامين قاموا برحلة ثانية مع اثنين من الدومنيكان ، فشقت عليهما الرحلة فرجعا ، واستمر التجار معهم ماركو ، وكان شابا ، فأعجب به الملك المغولى ، وولاه بعض المناصب الكبيرة فى الدولة وأرسله إلى الصين ، وبقى القوم هناك ، نحو ٢٥ عاما ولم يسمح لهم السلطان بالعودة ، وفى رحلة لهم إلى فارس كان أرجون أخو قوبلاى قد فقد زوجته المغولية ، وطلب الزواج من مغولية أخرى ، وأرسل ماركو وقومه لإحضارها ، لعلمهم بالطرق وخبرتهم بالسفر وحين عادوا بها كان أرجون قد مات ، فتزوجها ابنه ، ثم عاد آل بولو بعد نحو ٣٢ سنة . كانت رحلات بولو مما أمد بمعلومات واسعة لأنه طاف ببلاد واسعة ، وكانت مما أوحى بالرحلات البحرية وكشف أمريكا - انظر فى Wells - خلاصة أوسع وانظر أوروبا فى مطلع العصور الحديثة للدكتور [illegible]

الثامن عشر بنحو ٢١,٠٠٠ وامتازت هذه البقعة عن أقاليم غرب أفريقية بملاءمة جوها لإقامة البيض الأوروبيين فوفدوا عليها واستقر بها كثرة منهم ، مما نشأ عنه فيما بعد هذا النزاع – الذى سنعرضه – على سيادة الإقليم بين البيض والسود ، والواقع أن بذور التفرقة بين النوعين كانت قائمة منذ اللحظة الأولى ، وكانت سياسة الهولانديين توسع الفجوة بينهما ، فالسود يرون أنهم أصحاب الأرض من قديم والهولانديون يرون أنهم امتلكوا الأرض وسكانها ، وأنهم هم السادة وعلى السود أن يطيعوهم ، وكان هذا الموقف مما نفر السود من كل شيء لدى البيض ، ونفروا أيضاً من الدين الذى يدعوهم إليه المبشرون ، على أن الهولانديين وقد لج بهم التعالى – كانوا يرون أن السود ليسوا أهلاً أن يعمدوا وأن يكونوا من أتباع المسيح ، ولم يسمحوا لهم بدخول الكنائس ، فكانوا هم أنفسهم من العوائق فى نشر المسيحية وفى نشاط التبشير .

وفى سنة ١٧٣٧ وصلت البلاد إرسالية من المورويين Moroian وكان على رأسها جورج سكميدت G. Schimidt ، ولكنها لم تعمر بل لم تستقر إذ عجل الهولانديون بطردها سنة ١٧٤٤م وفى سنة ١٧٩٢ عادت ثانياً وأسست لها مقراً ، وأسعدها كثيراً وأبهجها أن وجدت بين نساء الهوتنتوت سيدة باقية على مسيحيتها منذ البعثة الأولى – أى منذ مدة تزيد على نصف قرن من الزمان ، كما وجدوا لديها نسخة من العهد الجديد .

وفى سنة ١٧٩٥ خلال الحروب النابليونية استولى الانجليز على المدينة وظلت تحت أيديهم حتى سنة ١٩٦٠ ، إذ جعلت مستعمرة مستقلة ذات حكومة ، ولكنها حكومة انجليزية ، وخلال هذا العهد عمل الانجليز على بث المذهب الانجليكانى وتثبيت إرساليته وكنائسه فى أرجاء المستعمرة ، وبدا الفرق الواسع بين سياسة الانجليز وسياسة الهولانديين ، فالانجليز لا يفرضون سلطانهم ، ولا يشعرون الأهلين بذلة التبعية ، ولكن يعلنون أنهم يخدمون البلاد ويعملون على ترقيتها ، وبذا أقبل القوم على الإرساليات وتقبلوا دعوة المبشرين .

وفى العام الذى استولت فيه بريطانيا على مستعمرة الكاب نشأت جمعية

إرسالية لندن ، وبدأت أعمالها بإرسال بعثة إلى المنطقة ، وكانت بعثة هولاندية ، إذ كان رئيسها عالماً هولاندياً من علماء الطبيعة هو جون تيودور فاندركمب John Theodor Vander Kemp[1] . وكان معه رفاق ثلاثة ، وقد بذلوا جميعاً جهوداً مضنية بسبب اختلافات اللغات فى المنطقة ، وبسبب الرواسب المتخلفة من العهد الهولاندى ، ومن أعمالهم وسياستهم هناك أن كمب تزوج من إحدى الزنجيات وتبعه بعض رفاقه ، فأحدث هذا نوعاً من الألفة بينهم وبين السود ، لكن البيض المقيمين هناك نفروا من هذا المسلك وأبغضوا البعثة . ومات كمب سنة ١٨١١ ، وفى سنة ١٨٢٠ وفدت بعثة أخرى مع جون فيليب .

وأشهر وأمهر المبشرين فى هذه البقعة على الإطلاق هو دافيد ليفنجستون وهو اسكوتلاندى من أسرة قوية ميسورة ، وصل أفريقية سنة ١٨٤١ ، وأمضى عشرة أعوام فى طريقة التبشير التقليدية ولكن حماسه وإخلاصه البالغ وحرصه على نشر المسيحية فى كل مكان حدت به إلى رحلة خطيرة سجلت اسمه بين الرحالة والمستكشفين وبها اخترق القارة الإفريقة من ساحلها الغربى عند أنجولا إلى ساحلها الشرقى عند كوبايان ، وهو أول من فعل ذلك ، ودون مخاطراته فى مذكرات بالغة الروعة والأهمية[2] .

٥ - سـكان المنطقـة :

كان سكان منطقة الكاب عندما وفد عليها الهولانديون من الزنوج البدائيين السذج ، وكانت لهم ديانات قوامها الطوطميات وعبادة الأسلاف وبعض الحيوانات وكانوا جماعات وقبائل أشهرها ثلاثة أسناخ متباينة ، وهم :

---

(١) نشأ كمب فى بيت دينى ، إذ كان أبوه من القسس ، ولكنه أبغض البيت وأبغض طريقته فى الحياة والدين ففر منه ، ودرس الطب ومارس مهنته نحو عشرة أعوام ، وفى سن الخمسين أصيب بكارثة إذ غرقت زوجته وبنته وهما فى قارب للنزهة : تغير هذا الحادث حياته فاتجه إلى جماعة لندن التبشيرية ، فأرسل إلى مدينة الكاب سنة ١٧٩٩ ، أى بعد إنشاء الجماعة بنحو أربعة أعوام وبقى فيها حتى مات سنة ١٨١١ .

(٢) ستأتى ترجمته .

١ - البوشمان ، وهم أقزام رحل يتنقلون فيما حولهم من الأرض حسب فصول العام ، وحاجاتهم المعيشية ، وأمام الزحف الأوروبى وإنشاء المستعمرات الحديثة تباعدوا إلى الداخل أو فروا ، إذ لم يجدوا لديهم طاقة لمواجهة البيض .

٢ - قبائل الهوتنتوت ، وهم أرقى من السابقين معيشة ، وأقرب إلى البيض ، ولهم استقرار ، ولما جاورهم البيض اتصلوا بهم ولم ينفروا منهم ، بل تزاوجوا ونشأ منهم نسل جديد حتى زالت القبائل الآن نهائياً .

٣ - الكوزا - Xhosa - وهم ذوو استقرار أيضاً ، وكانوا وثنيين وأكثرهم من قبائل البانتو ، ويسمون أيضاً الكفار ، وهم وثنيون ، وقد جاءتهم هذه التسمية من التجار المسلمين الذين سبقوا إلى هذه البقاع فى القرن السابع عشر أو الثامن عشر ، وهم قبائل محاربة ، ولهم أجسام ضخمة ، ووقع الخلاف بينهم وبين البيض فصمدوا لهم ولم يفروا كالبوشمان ، وهم أوسع انتشاراً من الآخرين .

ويوجد الآن عدد منهم فى منطقة الكاب ، وبعض رحل إلى أماكن أخرى ، وهم يتركزون فى منطقة الترانسغال ويبلغ عددهم أو يزيد قليلاً ويبلغ عدد المسلمين نحو خمسمائة شخص ، وهم جماعة شرسة مقاومة ، وقد بغضت الحروب المتطاولة بينهم وبين الأوروبيين دعوات المبشرين من أى فرقة كانوا ، وفى سنة ١٩٨٥ كانت بينهم وبين الانجليز معارك قتل الانجليز فى إحداها أربعين شخصاً منهم ، وقد تكون هذه القبيلة أكثر القبائل الزنجية استجابة لدعوة الإسلام إذا وجدت مبشرين بالإسلام ذوى مقدرة .

وتقيم الحكومة الانجليزية جواسيس عليهم خشية أن يدبروا ثورات ، ولا يبعد أن تقيم عليهم جواسيس منهم ، ولكنهم إذا تشككوا فى شخص قتلوه فى الحال . وقابلت أحد المسلمين منهم فى مدينة

« بورت اليزابث » ودعانى إلى زيارتهم، ولكن زيارة الزنوج لم تكن فى جدول زياراتى ، وكان المسلم يعرغ اللغة العربية ، وقال إنه يدعو قومه للإسلام ويستجيب إليه القليل ، وسألته بعض رفاقى إن كان يضمن سلامتى إذا ذهبت إليهم ، فقال إن وجوده معى ، أو ذهابى بدعوته وصحبته ينفى عنى كل ريب .

وأنجح طريقة لنشر الإسلام بين هؤلاء هو تكوين دعاة منهم ، ومسلموا جنوب أفريقية – بوجه عام – يتحرقون شوقاً إلى رؤية الأزهر والدراسة فيه .

وقد تمشت فكرة المسيحية بين هاتين الطائفتين – الهوتنتوت والكوزا – إلى حد ما ، ولم تستطع الجماعات التبشيرية فى أى عهد أن تمحو ما بين البيض والسود من عداء ، ولم يجرؤ أحد من البيض أن يطالب للسود بحقوق اجتماعية ولهذا كان زواج فاندر منهم أمراً شاذاً فى نظر البيض .

٤ – قبائل الزولو :

وهى أكبر القبائل عدداً وأشدها تماسكاً وأوفرها نظاماً . وهم يعيشون فى منطقة خاصة بهم فى مقاطعة ناتال ، ويبلغ عددهم ستة ملايين ، وللحكومة الانجليزية سياسة خاصة تجاههم .

لهذه الجماعة تاريخ يروى ، فهم لم يكونوا قبيلة واحدة من أصل واحد ، بل كانوا قبائل متفرقة دفع بهم ضغط البيض الأوروبيين إلى الداخل ، حتى ظهر بينهم رئيس أو ملك لفرع منهم هو الملك « دنجا » كان ذا شهامة ورأى ، فبدا له أن يجمع هذه الوحدات تحت اسم واحد وإمرة حاكم واحد ، – وهذا على نحو ما فعل قصى ابن حكيم – الجد الرابع لرسول الله ﷺ – حين جمع قبائل قريش العشر وسماها قريشا ، فكانوا أمة واحدة – كذلك جمع « دنجا » هذه الأشتات وسماها الزولو ، فاكتسبت بهذا التجمع قوة وتماسكاً .

وقد حاربت هذه القبيلة الأنجليز فى شجاعة وتضحية وحيل ، وظلت شوكة دامية فى جانب الحاكم الانجليزى ، وبات الانجليز يخشون ثوراتهم وتمردهم ، وكان الطريق الوحيد لإلانتهم وتألفهم هو طريق التبشير ، ففتحت بينهم مدارس تبشيرية وبنت مستشفيات ، ومنحت الأطعمة والأدوية بالمجان ، وبلغ ما أنفق فى سبيل التبشير هناك نحو ثلاثين مليوناً من الدولارات ، وكانت طريقة ناجحة ، وكانت طريقة ناجحة ، فقد دخل كثيرون المسيحية ، ولكنها مسيحية باهتة قد تمتزج بدياناتهم الأولى ، والمبشرون يتقبلون هذا الوضع ، ويركزون على الأجيال القادمة ، فالنشء الذى يدخل المدارس التبشيرية يتلقى فيها مسيحية يرضاها المبشرون ، وبمرور الزمن تثبت بينهم المسيحية .

وللزولو الآن حكومة منظمة خاصة ، وإن لم يمنع ذلك انطواءها تحت أمرة ونفوذ الحكومة العامة - حكومة جنوب إفريقية . لها ملك ووزراء ، وملكها الآن يدعى كنج « جودو » وهو على حظ من الثقافة ، تعلم فى مدارس التبشير الانجليكانية ، ويتسم بين شعبه بمظهر ديمقراطى ، فهو ملك لا يحكم ، ولكن يحكم رئيس وزرائه . وهو ابن عمه ، وله وزراء يختص كل واحد منهم بالنظر فى أمر من الأمور ، والملك يحب المسلمين ، ويقول أنهم خير من الأوروبيين ، كما يحب - فيما قيل لى - أن يقرأ عن الإسلام[1] .

وقد زار البابا جون المعاصر جنوب أفريقية أربع مرات ، وكانت زياراته ذات كبير فى إنعاش المسيحية وتشجيع الدعوة لها .

ويأمل المسلمون أن يظفروا بزيارة شيخ الأزهر لهم ، ولعل الله أن ييسرَ ذلك ، وهم يأملون أيضاً أن يكون فى هذه الزيارة إنعاشاً للدعوة

---

(١) هذه معلومات نقلتها من أفواه الذين قابلتهم هناك ، - وحيث ن كنج « جودو » لا يعرف العربية فقراءاته عن الإسلام من كتب المستشرقين والمبشرين ، ولا تطمع محبة الإسلام أن يكون مسلماً فى يوم ما .

الإسلامية ، وقضاء على الخلافات المذهبية الكثيرة بينهم - فهناك - ممن يتصدون للإمامة هنود وسعوديون وإفريقيون ولا يكتفى الداعية منهم أن يبث مذهبه ، بل بل يحكم ببطلان عبادة الآخرين[١] ، وزيارة شيخ الأزهر وإبداء رأيه فى بعض المسائل الخلافية ، يحدث وحدة ما ، ويقلل الخلافات .

وأود أن يهيىء الأزهر لهم منحاً دراسية فى مدينة البعوث ، ويبعث إليهم معلمين .

هذه هى أشهر الجماعات هناك ، ولما دخل عليهم البيض الأوروبيون زادوهم طائفة ثالثة لها خصائصها ومميزاتها ، ثم وفد الهنود المالويون[٢] ، فكونوا عنصراً جديداً ، يضاف لهؤلاء جميعاً عنصر مولد ، نشأ من تزواج بعض هذه الأجناس مع بعض ، فقد تزوج الهنود من الزنوج ومن الأوروبيات وكل أولئك اعتبروا أجناساً منحطة فى نظر الأوروبيين .

وأصبح السكان الآن على أى حال مزيجاً من أجناس عديدة .

واللغة الرسمية هى اللغة الانجليزية ، وهى التى تدرس فى المدارس ، وهناك لغات محلية يستعملها السود ، وهى مزيج من لغات شتى ويبرز فيها كلمات كثيرة

---

(١) مما حدث لى هناك أننى دعيت للصلاة والحديث فى « مسجد الجمعة » - وهو الجامع الكبير فى مدينة « دربن* وهو أكبر مسجد فى جنوب أفريقية ، يتسع لخمسة آلاف مصل ، ويكتظ بالمصلين يوم الجمعة ، وهو مكون من ثلاثة طوابق ، وبه قسم خاص للسيدات ، وعلى حظ من النظافة والأناقة .

استقبلنى الإمام والمؤذن - وهما هنديان - استقبالا « شاكرين » ، وعند وقت الأذان لصلاة المغرب لم أجدهما ، وفى اليوم الثانى علمت أن الإمام أفتى ببطلان صلاتى وأمر الذين اقتدوا أن يقضوا صلاتهم ، وسبب ذلك أننى لا أصل لحيتى بقدر قبضة اليد . وأشعر فى هذا بفقر الدعوة والحاجة إلى معلمين .

كان هناك خلاف حاد حول رؤية هلال رمضان وذى الحجة ، وزاد القوم بلبلة أن مصر لم تأخذ برؤية السعودية هلال شوال ، مصامت حين أفطر السعوديون ، ثم أخذ برؤيتها هلال ذى الحجة ، وقرأت على مجلس الأئمة فتوى شيخ الأزهر وفيها جواز أخذ البلاد التى تشترك مع السعودية فى ليلة الرؤية . وهى تشمل جنوب أفريقية ، فسروا بها ، وصمموا على اتباعها فى المستقبل .

(٢) من الملايو .

من العربية والانجليزية والملايوية والهولاندية ، وتسود الآن اللغة الانجليزية الإقليم كله ، واستعمل الهولانديون نوعاً من الغطرسة التى تصر على سيادة الأوروبى وطاعة الأفريقى ، مما نفر الأهلين وبغضهم فى دعاة المسيحية ، وكان هناك نوع من الإقبال على الإسلام .

وفى سنة ١٧٩٥م استولت بريطانيا على المستعمرة نتيجة لحروبها مع نابليون ، ولكن هولاندا استردتها ثانياً بعد مدة قصيرة سنة ١٨٠٢ ، فلما نشبت الحرب العالمية الأولى وضعت بريطانيا يدها عليها من جديد ، ودخلت فى ممتلكات التاج البريطانى (الكومونويلث) حتى سنة ١٩٦٠ ، ثم أصبحت جمهورية بيضاء فى القارة السوداء .

تنــافس الدعــوتين :

خلال الحكم الانجليزى فتح الباب للإرساليات جميعاً ، ولم تكن الكنيسة الانجليزية وحدها هى التى تقوم بنشاط التبشير ، ولكن جماعة « إرسالية لندن » كانت رائدة الإرساليات وكونت لها مركزاً هناك[١] وبذلت الإرساليات كلها جهداً فى تنصيب لاهوتيين وقسس من أبناء الإقليم ، ولكن كسبها كان قليلاً جداً ، وكان الذين يدخلون الإسلام بدون إغراءات أكثر من الذين يدخلون المسيحية بشتى المغريات .

وجاء فى تقرير السياسى الانجليزى كولبروك سنة ١٨١٩ ، أن الإسلام يتقدم بين العبيد والسود والأحرار من أهالى الكاب .. والذين تحولوا من الوثنية إلى الإسلام أكثر من الذين تحولوا إلى المسيحية هذا على الرغم من الجهود القوية التى يبذلها المبشرون الأتقياء[٢] .

وكان الحجاج الذين يعودون من الأراضى الحجازية يعودون بأفكار وحماس دينى وكان بعض الدعاة الإسلاميين يذهبون لمساعدة إخوانهم ، ولكن الموقف الآن يختلف كثيراً ، والتضييق على المسلمين فى جنوب أفريقية كلها لم ينقطع بعد .

وفى سنة ١٩٦٧ مات الزعيم الإسلامى -الشيخ عبد الله هرون- فى سجنه بعد أن طالت إقامته فيه -وكان زميله- الحاج عمر حسين -قد اضطر أن يهاجر بأسرته إلى لندن ، وقد صليت الجمعة- فى المسجد الذى كان يصلى

---

(١) أنشئت هذه الجماعة سنة ١٧٩٥ نفس العام الذى استولت فيه بريطانيا على المدينة .

(٢) الدعوة إلى الإسلام ٣٨٧ - ٣٨٩ .

فيه الحاج عمر فى «بورت اليزابث» ورأيت الفضاء الذى حوله بعد تهجير المسلمين من حوله وهدم ديارهم- وعلمت أن الحكومة دفعت لهم ثمناً زهيداً للبيوت التى هدمت .

ورغم السيطرة الانجليزية، وقسوة الحكام على المسلمين، وكثرة الكنائس لا تزال جذوة الدعوة الإسلامية حية، وهناك لغة عربية بين المسلمين بقدر ما.

والحكومة البريطانية تعنى بتشجيع كنائسها ، ولكنها لا تحارب الكنائس والإرساليات الأخرى ، ويبدو أن تعدد الإرساليات واختلاف مذاهبها مما له أثر فى التبشير ، ووجود هذه المذاهب المختلفة يرجع إلى العهد الهولاندى الأول ، فغداة استقرار الكنيسة الهولاندية ، والتجاء الأفريقيين السود إلى المستعمرة الهولاندية طمعت الجماعات التبشيرية الأخرى ، فأرسلت جماعة المورافين Morovions[1] بعثة لتنصير الزنوج وإقامة المذهب «الايفانجليكانى» وهو يخالف مذهب الهولانديين ، فطردوا البعثة سنة ١٧٤٤ ، ولم تطل إقامتها أكثر من خمسة أعوام ، ولكن هذا الزمن القصير ترك أثراً ما ، وقلنا قبل أن البعثة عادت سنة ١٧٩٢ ، فوجدت سيدة من قبيلة «الهوتنتوت» على هذا المذهب وكانت عمدت منذ خمسين عاماً ، وهذا يعنى أن المذهب ظل حيا فى غياب البعثة ، ولما أخذت الكنيسة الانجليزية مكان القيادة فى التبشير وجدت أمامها عقبات مضاعفة ، فضلاً عن العداء المستحكم بين البيض والسود ، كانت الكنيسة الهولاندية خصماً ، وهى فى الواقع ظلت طوال العهد الانجليزى ، لأن هولاندا ظلت تملك جزءاً ، وفيه كانت تدعو للمذهب الكاثوليكى ، وهو يتضارب مع المذهب الآخر الانجليكانى .

ووفد على الإقليم إرساليات من الأمريكان السود -خصوصاً من جنوب الانديز- وذلك بقصد استمالة الأفريقيين إلى إخوانهم السود ، ولكن هؤلاء أيضاً لم يحرزوا نجاحاً كبيراً يحقق ما كانوا يؤملون .

وتعمل الحكومة الآن فى جنوب أفريقية على كبت المسلمين وتستعكل فى مضايقتهم قسوة وعنفاً لا يتقبلها العصر الحديث .

---

(١) المورافين -جماعة من أتباع هس- اختلفوا مع آخرين بعد موته ، وكانوا يقيمون فى مورافيا فأطلق عليهم هذا الإسم .

وعلى طول الساحل الغربى لأفريقية بدءاً من نيجيريا يشيع الآن المذهب الانجليكانى وتكثر كنائسه ومدارسه ومستشفياته ، ويضطر المسلمون إلى دخول هذه المرافق جميعاً لحاجاتهم إليها . وحيث أن اللغة الرسمية فى كل هذه الجهات هى اللغة الانجليزية فإن المسلمين مضطرون إلى التعلم فى هذه المدارس وفيها يلقنون مبادىء المسيحية وأفكارها وبذا ينشأون مسيحيين ، وفى نيجيريا الآن شبان مسيحيون أسماؤهم وأسماء آبائهم أسماء إسلامية ، مثل أحمد وعلى وخالد وحسن ، لأنهم من أسرة مسلمة ونصرتهم مدارسهم وهذه فى الواقع من المواقف الخطيرة والخطرة على الإسلام . ولا يوجد بجانب جامعة أحمد وبللو فى شمال نيجيريا روافد لها أو رواضع منها يمكن أن تخفف من حدة هذا التيار التبشيرى ونقص عدد المسلمين ، وقد لجأت الجماعات الإسلامية إلى الأزهر تستمد معلمين إسلاميين ، ولكن ظروفه المادية وقلة المعلمين الأكفاء به تحول دائماً بينه وبين ما يريدون منه .

٦ - شخصيتان بارزتان :

لابد لدارس التبشير فى أفريقية أن يلم بشىء من المعلومات عن هذين المبشرين الكبيرين ، روبرت موفات R. Moffat (١٧٩٥ - ١٨٨٣) ثم صهره زوج إبنته دافيد ليفنجستون (١٨٤٣ - ٧٣) فلكل منهما أعمال قيادية ذات أثر فى حركة التبشير ، وفى مده إلى جوف القارة الإفريقية . وموفات هو الأسبق جهاداً .

لم يكن هذا المبشر الكبير حين وفد إلى أفريقية مبشراً مهيأ للتبشير ولا مسلحاً بما يتسلح به المبشرون من ثقافة دينية واجتماعية ، ولكن إقامته الطويلة بين الإفريقيين وحرصه على إبلاغ المسيحية إليهم أكسبته خبرة وأكسبت عمله نجاحاً ، قدم من انجلترا وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، قليل الثقافة والخبرة ، إذ لم يسبق له تدرب على الدراسات الدينية ، أقام بين قبيلة « بتشوانا » ثمانية وأربعين عاماً وكان له عمل زراعى وفر للقبيلة رخاءاً

مادياً جعل الأهلين يحبونه ويلتفون حوله . ذلك أنه كان يقيم غير قريب من نهر كورومان ، فعمل على تحويل الماء منه وجلبه إلى الأرض التى يقيم بها ، وكون هناك مزرعة ، وبهذا بث فى نفوس مواطنيه أبناء « بتشوانا » خلق المثابرة والعمل ، وحبب إليهم الإنتاج والاعتماد على النفس ، وأعظم أعماله أنه استطاع أن يضع للغة البتشوانية أبجدية وقواعد وطريقة للكتابة فسهل له ذلك نقل أفكاره إلى أفراد القبيلة دون أن يكلفهم مجهود تعلم الانجليزية ، وبهذه الطريقة دخل الكثيرون المسيحية ، وكان قبل ذلك يستعمل اللغة الهولاندية التى كانت سائدة فى مدينة الكاب ، وكانت تفهم لدى المتعلمين من الرجال ، ولم يكن أحد من النساء يفهمها أصلاً لعدم تعلمهن - وبوضعه أبجدية لهذه اللغة ترجم الكتاب المقدس إليها وتمت ترجمته هذه سنة ١٨٥٧م ، ثم طبعت بإشرافه فى كرومان . فسهل ذلك قراءة الإنجيل وشيوعه ، وجعل الناس يقبلون على موفات ومن هنا بدأ بين القبيلة ما يشبه الانفجار فى نشر المسيحية .

ويؤخذ عليه فى ترجمته الكتاب المقدس وطريقته التبشيرية أنه كان ناقص المعلومات فى قواعد اللغة البتشوانية ، إذ لم يكن قد ألم بها إلماماً كافياً ، ومن ذلك أنه ظن أنها تخلو من كلمة الإله ، فوضع لها الكلمة الانجليزية God . بينما هى موجودة فى لغتهم لأنهم لم يكونوا من غير دين ، ومهما يكن من أمره فإنه اجتذب إلى الإنجيل قوماً من بعيد وزاد عدد المسيحيين بمجموعة كبيرة ، واستفاد منه المبشرون الآخرون فى طريقتهم التبشيرية إذ جنحوا كما فعل إلى اللين والتودد إلى القبائل البدائية ، واستهوائهم بالرغبات المادية ، وإن لم يستطيعوا عمل أبجديات للغتهم .

وظلت شهرة موفات قوية سائدة حتى ظهر صهره ليفنجستون فغطى عليه ولكنه لم يطمسه .

وليفنجستون مبشر ومستكشف ومغامر فى سبيل عقيدته ، وهو من أسرة أسكوتلاندية متواضعة ، قدم إلى أفريقية سنة ١٨٤١ ليعمل فى إرسالية انجليكانية - من جمعية لندن المسيحية - ولكن حماسه ورغبته الجامحة فى تعليم المسيحية ، وما طبع عليه من مغامرة دفعت به إلى التنقل بين القرى الصغيرة

النائية التى لم تكن تعرف شيئاً عن المسيح ولا رأت إرسالية مبشرة من قبل ، قام برحلة على الساحل الغربى من أنجولا ثم قطع القارة إلى الساحل الشرقى الأفريقى ، مستعيناً بحمالين أفريقيين ، فشق جوف القارة وفتح أمام المستكشفين طريقاً لم يسلكه أحد من قبل ، وخلال رحلته لم يغفل وظيفته التبشيرية ، وترك مذكرات تنم عن إخلاصه وتفانيه فى دعوته ، كما ذكر المخاطر الكثيرة التى تعرض لها ، وقد أكسبته هذه شهرة وخلدت اسمه فى كتب الرحلات والقصص[1] ، وآسفته تجارة الرقيق فعمل على حربها وإظهار مساوئها ، وكتب إلى رئيس الإرسالية فى لندن عنها ، واشتهر اسمه بعد ذلك .

وفى سنة ١٨٥٧م ألقى محاضرة فى جامعة كمبردج مليئة بالأفكار والعبارات الموحية ، دعا فيها إلى التوجه نحو أفريقية لبث المسيحية فى ربوعها ، رغبة فى إنقاذها من الضلال والجهل ، وفى حديثه عن تجارة الرقيق وضح جرائم الرجل الأبيض فى الساحل الغربى ، كما ذكر جرائم للرجل الشرقى مماثلة فى الساحل الشرقى ، وكان له أثر كبير فى القضاء على هذه التجارة ، وكانت عملاً إجرامياً يقوم على نهب الصبية وبيعهم أو نقلهم إلى أمريكا .

وإلى هذين الرجلين – موفات وليفنجستون – يرجع الفضل فى فتح باب التبشير فى جوف القارة الأفريقية ، فتوافدت بعدهم الإرساليات العديدة من مختلف الجماعات – الدويمنكان والميثوديزم والبرسبتاريين والبروتستانت – بمختلف فروعهم ، وكل هؤلاء عملوا على تأسيس إرساليات وإنشاء مدارس ، وعلموا الزنوج القراءة والكتابة ومظاهر التحضر ، كما أنهم طالبوا للرجل الأسود بحريته ومساواته مع الرجل الأبيض كى يتمتع بحريته فى وطنه ، وبذا عملوا على إظهار مواهبه الفطرية .

وبوجه عام لم تستطع هذه الإرساليات أن تمحو من نفس الرجل الأفريقى رهبته من رؤية الرجل الأبيض ، وكان نجاحها الأكبر هو توجيه أذهان

(١) تحتل مغامراته مكانة فى القصص الانجليزى .

الأفريقيين إلى المسيحية ، وإشاعتها بين القبائل الوثنية ، وتعتبر كل إرسالية نفسها مدينة لهذين الرجلين .

٧ - الإســـلام فى منطقــة الكـــاب :

ليس للإسلام فى هذه البقعة تاريخ مفصل ، شأنه فى ذلك شأن بقية البقاع الأفريقية التى لم تشملها الفتوح الإسلامية ، وقد زحف إليها الإسلام على أيدى التجار حتى تجار النخاسة كانوا يحملون معهم تعاليم الإسلام وسماته .

وعندما كانت تحت يد الهولانديين وبعد أن نما العمران حول المحطة التى أسسوها لسفنهم ، واحتاجوا إلى عمال بها من غير الزنوج جلبوا إليها جماعة من أهل الملايو ، فزادوا عناصر سكانها جنسية أخرى ، وكان هؤلاء الملاويون من الملايو وأندونيسيا ، وكانت هولاندا تضايق المسلمين فى كل هذه البلاد الشرقية التى وقعت فى قبضتها ، فساقوا هذه الجماعة المسلمة للانتفاع بها وللنيل من الإسلام والمسلمين ، وكان بين هذه الجماعة زعيم دينى هو « الشيخ يوسف » ، كان ذا نفوذ كبير فى بلاده ، وكان يطالب بالاستقلال والحرية الدينية ، وهو فى الواقع نقل منفياً ، ونقل معه جمع من آله وأتباعه ، ولكنه لإخلاصه ونشاطه فى دعوته الدينية ، أشاع روحاً إسلامياً فيما حوله ، وحيث كان نقله فى أواخر القرن السابع عشر (١٦٩٤م) يعتبر بداية القرن الثامن عشر بداية نشاط الدعوة الإسلامية فى مستعمرة الكاب ، ولعله كان هناك من قبل إسلام ومسلمون .

وليس هناك عناية كبيرة بتاريخ الدعوة بعد ذلك[١] ولكن يبدو أن هذه الجماعة الإسلامية كانت على صلة بقبائل الهوتنتوت Hotentot ، لأن عدداً منهم دخل الإسلام وكانوا قد اندمجوا أيضاً بالهولانديين ، وتسموا بأسمائهم وبدت فى ملامحهم سمات هولاندية . ويبدو أنهم كانوا ملوا الوثنية فدخلوا المسيحية والإسلام .

---

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام ٣٨٨ وما بعدها . Meet Muslems of South Abrica

وفى أواخر القرن الثامن عشر كان المسلمون كثرة واضحة ، وجاء فى مذكرات السياسى الانجليزى الكبير كولبروك Sir. T. E Colebrooke كما سبق أن الإسلام يتقدم بين السود من أهل الكاب عبيداً وأحراراً ، .

وبسط كوليبروك أسباب تقدم الإسلام برغم الجهود الكبيرة التى يبذلها المبشرون ، ومع عدم وجود نشاط إسلامى أو هيئات منظمة تدعو للإسلام ، وهى أسباب يبدو بعضها عجيباً فى القرن التاسع عشر المسيحى .

منها أن السادة البيض الأوروبيين لم يكونوا راضين عن مساواة العبيد السود بهم فى ديانة واحدة ، فكانوا يكرهون تعميدهم ويريدونهم أن يظلوا عبيداً لهم ، ويقول كوليبروك أنها فكرة خاطئة ولكنها تركت أثراً كبيراً فى عزوف السود الوثنيين عن المسيحية ، ووجه الخطأ أن تعميدهم لا يرفعهم إلى رتبة السادة الحاكمين ، وكان ينبغى إلا يمنعوا من التعميد ، لأن تنصرهم لا يرفعهم اجتماعياً .

ويقول أنه ليس من النادر أن يسأل العبد الأسود عن دخوله الإسلام فيجيب أنه يريد أن يكون له دين وأنه لم يسمح له بدخول النصرانية[1] .

وإزاء ما فى تعاليم الإسلام من مساواة الناس جميعاً كأسنان المشط ، وأنه لا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح .. « إنما المؤمنون إخوة » لا يسخر قوم من قوم ولا نساء من نساء ، إخوانكم خولكم ، فمن كان تحت يده واحد منهم فليطعمه مما يطعم ويلبسه مما يلبس ولا يكلفه فوق طاقته .. إلخ إزاء هذا كله وجد الزنوج فى الإسلام إنصافاً وفى تعاليمه إغراء لهم باعتناقه ، وهذا واضح فى أن الإسلام كان يتمشى بقوته الذاتية ، ولم يكن للمسلمين فى هذه البقاع أى قوة بل كانوا ضعافاً محكومين .

وتخلى البيض الأوروبيون عن نزعتهم الغالبة فى احتقار السود ، وانتشرت

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام ٣٨٨ وما بعدها . وكان السود يمنعون من دخول الكنائس .

بعثات التبشير حتى لا يخلو بلد رئيسى من مبشر ، ومن هيئة تبشيرية تعلم المسيحية وتدعو لها . وقد أثمرت جهودهم كثيراً ولكن الداعية المسلم أدخل فى الإسلام جمعاً أكبر بمجهود أقل[١] .

وليس للمسلمين هناك مواردثقافية إلا ما يحدث من زيارات غير منتظمة من بعض الوافدين ، وقد أثير بينهم أخيراً حماس ودعوة إلى تعرف أعمق على الإسلام ، وعناية أكثر بالسود ، ولا ريب أن ما فى الإسلام من دعوة إلى التحرز وعدم الرضا بتبعية المسلم لغيره مما رغب فى الإسلام وأغضب الحكام الأوروبيين من المسلمين ، وهذا هو سر ما واجهه المسلمون هناك من مشقات حتى الوقت الحاضر .

٨ – موقف الإسلام هناك الآن :

حكومة جنوب أفريقية الآن حكومة مستقلة[٢]، وهى تشمل مساحة تدخل فيها جوهانسبرج ، وقد قسمت إلى مناطق أو مقاطعات وتمارس حكومتها أشنع أنواع التعصب والتفرقة العنصرية ، وتنفذ أوامرها الجائرة بالقوة والعنف ، والزج فى السجون ، وهى الآن أكثر بلاد العالم مسجونين[٣] .

إذا نحن قسمنا سكان المنطقة إلى بيض وسود ، فإن السود قبائل وفروع متعددة ، وبجانب الزنوج الأفريقيين توجد كثرة من الهنود والباكستانيين والملايويين ، وهؤلاء يمثلون الكثرة المسلمة ولم تعن الحكومة بتعداد يوضح أعداد المسلمين ولا الديانات الأخرى ، ولكن سكان الإقليم يبلغون ثلاثين مليوناً ، ويبلغ عدد المسلمين نصف مليون على الأقل .

وخلال القرون التى مرت بنى المسلمون لأنفسهم مساجد وقام بينهم معلمون وكان الحجاج منهم يعودون لهم بطاقات[٤] وزاد إسلامى ، ويبعثون

---

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام ٣٨٩ .

(٢) استقلت منذ سنة ١٩٦١ ، وكانت مستعمرة بريطانية يعين لها حاكم يمثل التاج البريطانى .

(٣) انظر فى مجلة Arabia – مايو ١٩٨٥ – ثلاث مقالات فى هذا الموضوع واقتطفنا منها هذه الخلاصة الوجيزة .

(٤) جمع طاقة أى قوة .

فى نفوس المسلمين هناك حماساً ونشاطاً جديداً ، وقد كان يرجى أن يجد الإسلام امتداداً بين السود الأفريقيين ، ولكن القوانين الشاذة التى فرضتها الحكومة الحالية حدت من هذا الامتداد ، بل أحدثت انكماشاً كبيراً ،فمن هذه القوانين :

١ - قانون عدم التزاوج بين عنصر وآخر ، فالبيض يتزوجون من البيض ، والهنود من الهنود ، والمولدون فى منطقة الكاب لا يتزوجون من السود ولا من البيض ، ولكن من بين أنفسهم ، وهذا غاية فى الغرابة .

٢ - قانون تحديد المساحات والإقامة بها ، فلكل عنصر مكان خاص ، ولا يجوز له الخروج من حلته إلى حلة أخرى إلا بتصريح ، ولا يجرى هذا على البيض فلهم حق التنقل بدون قيود ، وبناء على هذا القانون رحلت جماعات من مكان إلى آخر ، ونال المسلمين إيذاء كبير ، إذ رحل كثيرون عن الأماكن التى بها مساجد ، فحيل بينهم وبين الذهاب إليها .

٣ - قانون حفظ الوظائف ، فالوظاف العليا أو الكبيرة موقوفة على البيض ولا يجوز للسود أن يتولوها - ثم هم لا يخول لهم الحصول على معلومات عالية ، وهذا فى الوقت الحاضر مثار تذمر وثورات متتالية لأن السود يشعرون دائماً أن قلة من البيض يتحكمون فى حياتهم ويستأثرون دونهم بخيرات البلاد .

٤ - قانون الصناعات ، فالسود الأفريقيون والملونون من أهل الكاب والهنود والآخرون يقومون بالحرف والصناعات الدنيا ، والبيض لهم التخطيط والإشراف .

كان المسلمون هم القائمين بالمطالبة بأسس المساواة والعدالة ، والملحين فى تطبيق القانون الإسلامى لأنه يقضى بمساواة الناس أمام القوانين وباحترام الإنسانية وحريات الأديان وأداء الشعائر إلخ .. وكانت الحكومة لذلك تراهم مصدر قلق ومثار قلاقل فقسوا عليهم واشتدوا فى عقوباتهم ، ومنذ ما يقرب من

عشرين عاماً كان الشيخ عبد الله هارون الذى سبق ذكره هو إمام المسلمين هناك ، وكان ذا نشاط وعلى حظ من العلم ، وكان يساعده أحمد تيمول ، ولم يكونا دعاة ثورة وإنما كانا معلمى دين ومطالبين بحقوق الإنسان ولكن الحكومة غضبت عليهما فألقت بهما فى السجن مدة طويلة حتى لقيا حتفهما فيه ، وقد مات الشيخ هارون سنة ١٩٦٧م ، وأحدث سجنه ثم موته فراغاً واسعاً فى ميدان الدعوة الإسلامية ثم خلفه ابنه محمد هارون – وهو دون أبيه نشاطاً وعلماً وحماساً ، ونجحت الحكومة فيما كانت تهدف إليه إذ فترت روح الجهاد أمام عنف العقوبات وضعف الدعاة .

ورئيس الجماعات الإسلامية الآن هو الشيخ أبو بكر النجار ، انتخب رئيساً إلى الآن أربع مرات ، وهو يحفظ الكثير من القرآن الكريم ، ونشاطه فى سبيل الدعوة الإسلامية موفور ، ويتمتع بحرية لم يتمتع بها أسلافه الدعاة .

وحين قامت ثورة إيران باسم الإسلام انبعث فى نفوس المسلمين فى جنوب أفريقية أمل فى أن ينالوا بعض الحقوق .

وتذكر مجلة Arabia أن داعية إسلامياً يسمى محمد القاضى – قدم من واشنطن ، وأنه خطيب يدعو لوحدة فكرية وعقيدية ، وأنه يحاول أن يوقظ فى المسلمين روح العمل والجهاد لإعادة الروح الثورى ، وأنه يذكر الحركة السنوسية وعمر المختار وحسن البنا . ولكن دعوته لاتأتى بثمار ، نظراً لمحاربة الحكومة هذه الأفكار .

ومن ناحية أخرى أصبح للمسلمين هناك رابطة ، ولكنهم جماعات وألوية كل جماعة – على قلتها وذلتها – تدعى لنفسها القيادة وحسن السير على طريق الرسول . وتكثر الخلافات المذهبية بينهم .

ومن جانب التبشير ، ليس القسس سعداء بهذا النظام ، وبينهم الآن أول رئيس أسود ، Arshpshop والحكومة البيضاء لاتحبه ، ولكن بعض رجال التبشير وصل إلى وظائف لم يصل إليها مسلم .

وبوجه عام ينقص المسلمين العلم بالإسلام ، وتحريك الفكر الإسلامى بينهم ومع كل ذلك لا يزال الزنوج يفضلون الإسلام ديناً لهم ، ويقبلون عليه إقبالاً محدوداً .

وقد ذكرنا مدى محاربة الحكومة للإسلام وقسوتها على المسلمين ولعله الآن أشقى جماعة إسلامية وأكبرها معاناة .

٩ - تطـورات جـديـدة :

أتاحت لى زيارتى جنوب إفريقية أن ألم ببعض المعلومات الجديدة عن المسلمين وعن الحركة الإسلامية ، وهى لا تتعارض مع ما كتب من قبل .

فهناك الآن الجماعة الإسلامية التى قلت أن رئيسها هو الشيخ أبو بكر النجار ، وهو متفقه متزن الشخصية كان والده من السعوديين الذين نزحوا إلى جنوب أفريقية وأمه من جنوب إفريقية وبيته بيت مسلم حقاً ، وهذه الجماعة لا تشمل كل المسلمين على مختلف أجناسهم وأقطارهم ، ولكن هناك مراكز إسلامية تنتمى إلى هذه الجماعة .

والمركز الرئيسى للجماعة فى مدينة « كيب تاون » - محل إقامة الرئيس ، ولها فروع فى « دربن » - و « بورت اليزابث »[1] ، و « جواهنسبرج » وربما فى مدن أخرى .

ويوجد فى جنوب إفريقية كله نحو ٢٥٠ مسجداً ، ويلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم الناشئين اللغة العربية وشيئاً من القرآن ، وقد وضعت الجماعة كتباً خاصة لهذا الغرض ، وأكبر المساجد فى الامبراطورية كلها هو « مسجد الجمعة » فى دربن ، وهو مسجد كبير سبق الحديث عنه .

وفى كيب تاون أكبر تجمع للمسلمين ، ويليها مدينة « بريتوريا » فبها

---

(١) أى ميناء الملكة اليزابيث ، ومعظم المدن تحمل أسماء المحاربين الانجليز مثل دربن ، وجوهانسبرج .

مسجد كبير جميل وبمقربة منه المدرسة الإسلامية ومقر الجمعية ، ومن عجيب أمره أن الإمام يمنع دخول النساء به ، كما يمنع التصوير بالكاميرا أو الفيديو ، وقد اضطرنى هذا أن أختصر محاضرتى به ، لأن النساء كن فى المدرسة ينتظرن سماع المحاضرة والقارىء .

ولا تحارب حكومة جنوب إفريقية المسلمين الآن حرباً عدائية سافرة كالتى كانت من قبل ، والمسلمون الذين هجروا إلى أماكن بعيدة عن مساجدهم يباح لهم أن يقيموا على حسابهـ الخاص مساجد فى الحى الذى استقروا فيه .

ويطالب المسلمون أن يجرى عليهم القانون الإسلامى فى الأحوال الشخصية وخصوصاً قانون المواريث الشرعية ، ولكن الحكومة لا تقبل ، ويضطر المسلمون للتخلص من قوانين الحكومة أن يكتب كل واحد منهم وصية تقسم بمقتضاها تركته ، وقد تكون عملاً تقريبياً ، وربما لا تكون .

وللمسلمين الآن مشاركة فى المجلس النيابى فيوجد منهم ستة عشر عضواً فى البرلمان ، ويبلغ عدد أعضائه ٢٤٠ وفى البرلمان أيضاً بعض الزنوج .

وتبيح الحكومة للمسلمين الذين هجروا من حول مساجدهم أن يعودوا ، ولكن المساكن هدمت ولم يبق إلا الأرض الفضاء ، والحكومة تبليعها لهم بثمن باهظ جداً ، يعادل أضعاف ما دفعت لهم فى الأرض والبناء يوم هجرتهم .

ويبدو أن حكومة جنوب أفريقية جنحت إلى شيء من اللين إزاء النقد الشديد الذى وجه إليها بسبب تعصبها العنصرى ، ولا يزال هذا التعصب قائماً إزاء الزنوج ولا تزال الحرب الباردة قائمة بينها وبين الإسلام .

والمشكلة الكبرى هى اللغة ، والمدارس القائمة لا تكفى ، لأن التلاميذ يذهبون إليها بعد خروجهم من مدارسهم الحكومية ، فيقضون ساعتين أو نحوهما ، وقصارى ما ينالون منها أن يستطيعوا قراءة الحروف العربية ، وأن حفظوا شيئاً من القرآن . وأن يتعلموا مبادىء الإسلام وكيفية الصلاة والتطهر .

ونظراً للظروف السياسية ، وعدم وجود أى علاقة سياسية بينهم وبين مصر لا يوجد مبعوثون يتعلمون فى الأزهر من جنوب إفريقية إلا نادراً ، وقدوم الواحد منهم إلى مصر يستدعى مجهوداً كبيراً وزمناً طويلاً .

وقابلت الكثيرين الذين يتشوقون إلى الحضور إلى مصر ليتعلموا فى الأزهر على حسابهم الخاص ، ولا يحملون الأزهر أى نفقة ولكن لا سبيل .

١٠ - أحمد ديدات :

أصبح هذا الرجل ذا إسم وصيت ذائع بسبب المناظرة التى أجراها مع القس الأمريكى جيمى سواجارت J. Swaggart وقد أدرت عليه أموالاً طائلة ، وله مدرسته وجماعته ولا ينطوى تحت لواء الجماعة الإسلامية التى سبق ذكرها ، وهو معنى بدرس الأناجيل والكتاب المقدس ، ورأيت فى مدرسته بعض التلاميذ يقرأون الأناجيل فى لغتها الإنجليزية الحديثة . وقراءتهم لها إنما هى لنقدها وبيان ما بها من مصارب أو مآخذ أيا كانت ، وهذا على نحو ما جاء فى مناظرته .

وقلت لهم إنى أود أن يبذلوا فى درس الدين الإسلامى جهداً أكبر ، فلئن كانت هجومات المبشرين تدعونا إلى أن نحاربهم بسلاحهم إن ميدان الدعوة الإسلامية ومجال التعريف بها أهم وأولى ، ولا تقوم الدعوة دائماً على المناظرات . ولكن كلامى لم يعجبهم ولم يرضهم .

وأطلعنا أحمد ديدات على كتب تبشيرية مكتوبة باللغة العربية ، من أعجبها كتاب طبع فى مصر ، وهو يأخذ نسق المصحف ، فيبدأ كل قسم منه بالبسملة ويضع لكل فقرة رقماً كأرقام الآيات ، ويخاطب المسلمين بدعوتهم إلى نور الإنجيل ، ويبين ما فى الإسلام من مفاسد على ما يرى واضعوا الكتاب .

وأحمد ديدات غاضب على الأزهر لسكوته عن هذا الكتاب أو عدم علمه به ، قلت له لا لوم على الأزهر فى هذا ، فليس من عمله أن يقف بأبواب المطابع ولا هو رقيب على الكتب ، ولكن ابعث بالكتاب إلى الأزهر ليرد عليه ويفند أقواله .

ويبدو أن أحمد ديدات بعد انتصاره فى مناظرته ناله شيء من الزهو ، وهو لم يشارك الجماعة الإسلامية حفلها الكبير .

وعلى أى حال فله مجموعة من الكتب واجه بها المبشرين ، وهو مستعين دائماً بدراسة الكتاب المقدس بقسميه ، ويبدو أنها دّراسة جيدة عميقة .

ومن هذه الكتب –كتيب عنوانه « ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد » ، ثم عدة كتب منها « الإسلام دين مفترى عليه ، وخمسون ألف مخطئا فى الكتاب المقدس ، والقرآن معجزة خالدة ، هل الكتاب المقدس كلام الله ...إلخ إلخ * .

وقد أباح لمن يريد أن يترجمها يمنحها أو يبيعها بدون رجوع إليه .

وعمل أحمد ديدات يستحق الشكر والتقدير ، ولعله من أهم ما يغاظ به المبشرون ، وقد كتب رسالة إلى البابا فى روما يدعوه لمناظرة بينهما لإثبات أن الإسلام هو الدين الصحيح وتحدى البابا أن يقيم براهين سليمة على صحة المسيحية ، .... ولم يظفر برد .

١١ – صدى أحداث العالم الإسلامى :

نظراً لأن المسلمين فى جنوب إفريقية ليس لهم مصادر محلية يستقون منها معلوماتهم الدينية ، يتطلعون إلى أخبار العالم الإسلامى ويرقبون ما يجرى فيه من تيارات فكرية وأحداث اجتماعية ، وأكثر ما يتجهون إلى مصر وإلى المملكة العربية السعودية ثم إلى دول الخليج بوجه عام ، وقد دهشت حقاً لانتهاء هذه الأنباء إليهم .

عندما وصلت وزميلى القارىء –إلى مطار جوهانسبرج . استقبلنا مستشار من وزارة الخارجية قال أن اسمه مستر «كاسال» –وقد قادنا إلى حجرة استقبال كبار الزوار ، وجلس يحادثنا ريثما تأتى الطائرة التى تنقلنا إلى دربن ، ولما مال الحديث بنا ميله رأيت أن أسأل عن أسباب اضطهاد المسلمين فى بلادهم ، وأجاب أن لا اضطهاد أصلاً ، وأن المسلمين ممتعون بحرية العبادة

وحرية العقيدة وحرية الدعوة للإسلام ، وأردف أننى إذا كنت سأكتب مذكرات خاصة لى أو مقالات أنشرها فإنه يرجونى التريث حتى أرى بنفسى ، وأضاف أيضاً لك الحق أن تنقد الحكومة فى أى عمل تراه غير مناسب .

قلت من الأخبار المستفيضة المقطوع بها أن الشيخ عبد الله هرون مات فى سجنه بعد أعوام طوال قضاها فيه وأظنه إعدم ! - ورأى هو بلباقة سياسية حاذقة أن يلجأ إلى الهجوم بدلا من أن يقف موقف المدافع - فقال : هو مات ولم يشنق ، وكان سجنه لأسباب سياسية ، وأنتم فى مصر قتلتم عدداً من المسلمين لأسباب سياسية قلت ولكن الفكرة الإسلامية محاربة لديكم ، قال : رجوتك أن ترى أولاً وستجد أن الجماعات الإسلامية فى إفريقية الجنوبية ممتعة بحرية لا تتمتع بها الجماعات الإسلامية فى مصر - نحن نمنح كل شخص حريته الكافية ولا نعاقب على الأفكار ، وأحسست أنه يعرف الكثير الذى يجبهنى به فأدرت الحديث إلى مجرد الاستفهامات واستقاء المعلومات .

وفى -« بورت اليزابث »- رأيت مع أحد المسلمين كتاباً للشيخ محمد الغزالى إسمه «قذائف الحق» - قال إنه اشتراه من مكة أثناء حجه ، وقال أبكانى هذا الكتاب كثيراً وأحزننى كثيراً أن أسرة الغزالى كلها مضطهدة ، وقال لدى أيضاً كتاب «أيام من حياتى» لأخته أو عمته السيدة زينب الغزالى ، قلت ليس بينهما أى قرابة وإنما هو اتفاق فى اللقب ، وسأن ثانياً عن المرحوم سيد قطب وأسرته .

وكان مثقفاً يجيد اللغة العربية إجادته الإنجليزية فأردف : هل ماعملته محاكم التفتيش فى أسبانيا بالمسلمين أشنع من هذا .

قلت يعنينى أن أستقى معلومات عن نشاط الدعوة الإسلامية ونشاط التبشير ، ولا أريد تقليب التاريخ الماضى ، فابتسم ، وقال : التبشير المسيحى تسنده الحكومة وتأتيه الإمدادات المالية الكثيرة ، والمسلمون يقومون بدعوة محدودة ونشاط كليل ، وفوق هذا هم فى خلافات مستمرة ، وكنا نود أن نجد

من المسلمين فى الشمال بعض المعونة ، قلت له إن قطع العلاقات السياسية هو الذى يحول دون المعونات . قال : لقد زار البابا جنوب إفريقية أربع مرات ، وهذه الزيارات يحدث منها تموجات إيجابية فى نشاط التبسير ، أفما كان ينبغى أن يزورنا شيخ الأزهر مرة واحدة ، فزيارته تبث فى حياتنا الدينية نشاطاً ، وقد توجه إليه أسئلة تقضى إجاباتها على الخلافات الكثيرة بين الأئمة ، ثم تكون مقابلة لزيارة البابا ، لما لا يكون للمسلمين والد كما للمسيحيين .

وتحدث بعض المسلمين فى مجلس عام بأن أحد الأثرياء من دول البترول ، أنفق على مغن مريض بالإيدز مليوناً ونصف المليون من الدولارات ، وقال آخر أن واحد منهم لكى يزوج كلباً له من كلبة أنفق مائتى ألف دولار !!

قلت هذا لم نسمع به فى بلادنا ، ولعله من تقولات الخصوم الذين يريدون أن يحطوا من كرامة المسلمين وأن يشوهوا سمعتهم ، وقال – كما قال الكثيرون – كان أولى أن تمد الجماعات الإسلامية بشيء من ذلك أولى من المخنثين ومن الكلاب !

ومن الناحية الدينية نأخذ مسألة رؤية الهلال وبدايات الشهور العربية دوراً مشابهاً ، فقد ذكر أبناء الجماعات الإسلامية ، أنهم كانوا يقتدون بالحكومة السعودية فى كل ذلك وظلوا عليه ثلاثين عاماً ، ومنذ عامين أو ثلاثة رأوا أن يقتدوا بمصرا لأن الزمن بين البلدين متحد وخط الطول واحد ، ولكن مصر فى هذا العام ١٤٠٨هـ خالفت السعودية فى إنهاء شهر رمضان فصام المصريون حين أفطر السعوديون وغيرهم من سكان الجزيرة ، وفى جنوب أفريقية أفطر قوم وأعلنوا العيد وظل آخرون صياماً ، فهذه تفرقة بين المسلمين جاءت من مصر ، وقد عادت مصر فاعتمدت رؤية هلال ذى الحجة ، فهذه ذبذبة لا مبرر لها .

وكانوا قد كتبوا بهذا للأزهر وقد شيح الأزهر بحثاً له منذ كان مفتياً يفيد الأخذ برؤية الهلال وثبوت الشهر لا فى مصر أو جنوب إفريقية فقط ، بل إذا رؤى الهلال فى بلد يثبت الشهر لكل بلد لم يكن الفجر قد انشق فيه .

وقرأت هذا البيان على جماعة العلماء والأئمة فسروا به كثيراً ، وقرروا الاقتداء بالسعوديين أو بمن يثبت لديهم رؤية الهلال قبل انبثاقه فى بلادهم .

وأكد هذا الموقف تقصيرنا إزاء هذه البلاد ، ودل على اهتمامهم بكل ما يحدث لدينا وبقيت بعد مسألة استقبال المبعوثين للتعلم !

أود من الجامعات السعودية ومن الجامعة الأزهرية أن تعنى باستقبال عدد كبير من هذه البلاد - خصوصاً أبناء السود ، فالواحد من هؤلاء قد يدخل الإسلام عدداً كبيراً من أبناء قبيلته لأنه منهم ويستطيع مخاطبتهم بلغتهم ، وهذا ما تهتم به الإرساليات التبشيرية ، إذ يوجد الآن قسس من الزنوج ، وقد كان الهولانديون يمنعونهم من دخول الكنائس .

هناك إذن تغير واسع فى موقف الحكومة الأفريقية إزاء الدينيين وإن كانت التفرقة العنصرية لا نزال قائمة .

بوجه عام يباح للمسلمين هناك بناء المساجد وتخطيط المقابر ، وفتح المدارس ، وعمل المدارس كما رأينا محدود .

ولا يزال الإسلام يعانى كبتاً .



رابعاً : داخل أفريقيــــة

١ - مقـــــدمة :

لا تزال القارة الأفريقية أفسح رقعة وأهم ميدان للتبشير المسيحى ، وفيها يقوم صراع عنيف أو ضعيف بينم المسيحية والإسلام ، ويرجع عنف هذا الصراع أو ضعفه إلى أن الإسلام ليس له رابطة معينة تدافع عنه أو تدعو إليه ، ولكن يوجد فى بعض الدول مدارس إسلامية ومساجد تقام فيها الصلوات وتشرح مبادىء الإسلام بوجه عام ، وفى هذه الدول يظهر الصراع حيث يهجم المبشرون على الإسلام ويغضون من شأنه ، بينما يعمل الدعاة الإسلاميون فى مدارسهم أو مساجدهم على بيان مزاياه ، وعمل المبشرين فى هجومهم على الإسلام يخالف تعاليم الإرساليات التى تؤثر المسالمة والتودد إلى الأهلين وتتخذ من التعارف وإظهار المؤاخاة وسيلة لجذب الناس إلى الإناجيل ، ولكنهم يفعلون ذلك لأن الأهلين ليسوا مسلمين ، وهذا الهجوم يحدث جفوة بين المسلمين والمبشرين ، ولكنه يصد الناس عن الإسلام .

ويبدو الفارق الهائل بين دعاة الديانتين ، فالمبشرون قرأوا عن الإسلام ونقلوا عن أعدائه مطاعن خاصة يشيعونها ويرددونها بينما لا يعرف دعاة الإسلام عن تاريخ المسيحية شيئاً ، هذا فضلاً عن قصور معلوماتهم عن الإسلام ، ويستعين المبشر المسيحى بوسائل ومغريات مادية أهمها المدارس التى تعلم اللغات الأوروبية وبها يضمن التلميذ مستقبلاً ورزقاً ، ثم المستشفيات التى لا تهمل فى تغذية روادها بالدعوة إلى المسيحية والتحذير من االإسلام ، وهذه الإرساليات بكل وسائلها وفروعها الكثيرة الانتشار فى أعالى النيل وفى الكونغو والنيجر وأريتريا وأوغنده ، وهى أكثر تمكناً فى جنوب الصحراء .

وفى أفريقية كما يقول استيفن نيل تصطرع تيارات خمسة هى التقاليد القديمة الموروثة . وهذه شائعة بين البدائيين الذين يعيشون على الفطرة ، ويليها

الوثنيات وهذه أيضاً أنواع شتى منها الطوطميات والفيتشية ، ثم المادية الماركسية التى تعمل الآن عملهات هناك ، وأخيراً الديانتان- السمويتان المسيحية والإسلام ، ولكل منها مشجعات وأمامها عوائق .

٦ - عقبات أمام المسيحية :

أما المسيحية فيتبادر للذهن بادىء ذى بدء أنها أقرب لعقول هؤلاء السذج بسبب مافيها من صفة ، البنوة والتجسد ، فالذين يعبدون الأشجار والحيوانات والأجداد يسوغ لهم أن يتقبلوا أن المسيح ابن الله ، وأنه -وهو إله كأبيه- عاش على الأرض وأكل وخطب ثم صلب ثم لبسته الحياة ، ثم ارتفع ليجلس بجانب أبيه ، كل هذا قريب كل القرب من الوثنية ، ويسهل قبوله لدى الوثنيين ، ثم تروجه المشجعات التى يبذلها الدعاة ، والأمر كذلك لكن هناك عوائق أخرى يرجع بعضها إلى الماضى وبعضها إلى الحاضر الماثل الأن ، وبعضها إلى طبعة المسيحية .

فمن ناحية الماضى ، لايزال ماثلاً فى أذهان الأفريقيين مافعل بهم الأوروبيون ويمثلهم الرجل الأبيض ، منذ القرن السابع عشر حيث استدعى الاستعمار الأمريكى أن ينهب الأفريقيون نهباً لينقلوا إلى القارة الجديدة ليعملوا بها زراعاً وغير زراع ، وأقاصيص هذا النهب لازالت تروى[1] بين الأفريقيين ، ولايزال الرجل الأبيض رهيباً مخوفاً بينهم ، ومع أن بعض المبشرين حاربوا تجارة الرقيق هناك ، ومع الخدم الكثيرة التى تقدم لم يأمن الأفريقى جانب الرجل الابيض ، وكثراً مايستفيد منه فى علاجه وغذائه ، ثم ينصرف عنه ، وحقاً أن الرجل الأفريقى بدائياً ومثقفاً يعانى موقفاً قلقاً أمام الرجل الأوروبى

(١) كانت هذه الحملات من أشنع أنواع الاسترقاق فكان الزنوج الأفريقيون يصادون بالرصاص وتشعل النيران فى مساكنهم وفيما حولهم ، وتنالهم السياط والعصى حتى يساقوا إلى السفن التى تبحر بهم إلى أمريكا وكانوا يموتون فى السفن فيلقى بهم فى البحر ، وكانت الطيور والأسماك تتبع هذه السفن لتنا طعامها من أجساد هؤلاء الهلكى الذين يلقون فى الماء .

-الأبيض- إذ يشعر بحاجته إليه ويشعر بكراهته ، وموقف رؤساء القبائل وذوى الرأى هناك يبدو فيه هذا الاضطراب وتصوره الكتب الكثيرة التى كتبت عن حياة هؤلاء القوم .

ومن ناحية الحاضر والواقع قد تكون مسألة تعدد الزوجة بين الإفريقيين وإصرار المبشرين المسيحيين على زوجة واحدة من المسائل المعضلة العسيرة الحل ، فمن النادر جداً أن تجد رجلاً له زوجة واحدة إلا أن يكون حديث عهد بالزواج الأول ولما يلحقه زواج ثان ، والمبشروزن يطلبون من الرجل أن يستبقى زوجة واحدة ، ويسرح الأخريات ، وقد أصبح لكل منهن أولاد ، فيشق ذلك على الأسرة كلها ، ويترتب عليه تحطيمها وبعثرة أولادها ، وقد حدث هذا فعلاً مما جعلهم يكرهون المسيحية والمبشرين[1] وقد لجأوا لذلك إلى طريقة اعتبروها وقتية وهى بقاء الذيت تزوجوا فعلاً على ماهم عليه ثم يجرى الذين تنصروا بعد ذلك على تعاليم المسيحية فلايزيد على زوجة واحدة وهذه محتملة بين المدنييت ولكنها عسيرة بين الآخرين ، لأنها تضعف الأسرة بتقليل عددها كما تضعف القبيلة كلها ، وليست هذه الإباحة إلا من بعض المبشرين .

ويضاف إلى هاتين عقبة أشق وهى دعوة الإسلام ، فالإسلام كما يصفه المبشرون قوة نافذة وينتشر بسرعة -ومع أنه لاتوجد له جمعية توجه إرسالياته ، يدخله خمسة من الأفريقيين كلما دخل المسيحية شخص واحد[2] وهو لايحدث تغييراً واسعاً فى حياة الوثنى ، وإنما يحدث تعديلا مقبولاً ، ومن المتوقع أن نصف السكان فى جنوب الصحارى[3] على الأقل لايزالون على

---

(١) حدث أكثر من هذا أن أحد الذين اعتنقوا المسيح كن له تسع زوجات فرمى ثمانية منهم إلى الفيلة ، مما بغض أولادهن والآخرين فى المسيحية ، وينادى بعض المبشر ين بإباحة تعدد الزوجة للأفريقيين ، وألا تقاس حياتهم على حياة الأوروبيين ، لأن هنالك أسباباً كثيرة تدعو إلى ذلك منها كثرة النساء بالنسبة للرجال ، ومنها حاجة الرجال إليهن فى العمل خصوصاً الزراعة Neil 484 .

(٢) نفســه .

(٣) نفسه ٤٩٥ ويظهر أنه يعنى صحراء كلاهارى .

وثنيتهم ، ولهذا فإن الكنيسة تعمل بجد لإزالة التهديد الإسلامى[1] وقد أخذت مجامع الكنائس المسكونية تواجه هذا الموقف بجد فعملت مسحاً للوضع الدينى شاملاً لكل القبائوكيف يمكن هدايتها للإنجيل ، ونتائج هذا النشاط تبشر بمستقبل حسن للمسيحية ، والمشكلة الرابعة هى تضارب الإرساليات بعضها مع بعض ، فقد قامت فى أفريقية كنائس عديدة جداً ، وأكثرها مستقل بنفس ، ومنها الأنجليكانية والماثوليكية والميثوديزم وغيرها ، وخلافاتها شديدة ، وبذا يضار بعضها بعضا .

وأخيراً هناك حركة أخرى تبذل الكنائس جهداً آخر للقضاء عليها ، ولا ريب أن الكنيسة هى المسئولة أساساً عن وجودها ، تلك هى كثرة المتنبئين من المسيحيين الأفريقيين .

فمن طبيعة المسيحية أن تتحدث عن كثيرين رأوا المسيح أو سمعوا صوته يناديهم ، وهذا كما هو فى الأناجيل رأينا من يدعونه فى العصر الحديث أو قد مر بما ذلك فى تاريخ الإرساليات التبشيرية وقد دعا ذلك بعض معتنقى المسيحية من الأفريقيين أن يعلنوا سماعهم النداء من الروح القدس ، ففى أوائل هذا القرن ظهر فى ساحل العاج النبى وليام وادى هارى وأعلن مخاطبته المسيح إياه فالتف حوله جمع غفير فى سنة ١٩١٤ ، وقاد أعظم حركة فى تاريخ المسيحية فى أفريقية ، فتح باب هذا الادعاء للآخرين ، ونظاً لأن هذه البقاع كلها تؤمن بالروحيات والقوى الخفية ويشيع فيها السحر والطب الروحانى كان انقسادها لهذه الادعاءات سهلاً ، وتحاول الكنائس والإرساليات الآن وقف هذا التيار .

هذه هى أهم العثبات فى طريق المسيحية فى أفريقية الآن .

---

(١) نفســه

٣ - عقبات أمام الإسلام :

أما الإسلام فأهم عقباته أمران اثنان :

أولهما : ضعف الدعوة له ، وليس هذا عائقاً ولكنه تقصير - فمن ناحية ليس هناك هيئة خاصة منظمة تشرف على هذه الدعوة أو توجيهها ، ومن ناحية أخرى ليس لدى الذين يتعرصون للدعوة الإسلامية مقدرة كافية على نسرها والاقتناع بها .

وثانيهما : مايقوم به دعاة المسيحية من تشويه لحقائق الإسلام والصد عنه بالدعايات السيئة الكاذبة وقد رأينا المبشرون يعتبرون دعوة الإسلام تهديداً للمسيحية ، وهم لذلك يدفعون هذا التهديد بكل ما يستطيعون .

نحن إذن بحاجة إلى دعاة أكفاء ، لهم دراسات كافية عن الإسلاموعن الديانات الأخرى -خصوصاً اليهودية والمسيحية -ودرس اليهودية ترجع أهميته إلى أن كتابها -وهو العهد القديم كتاب مقدس لدى المسيحيين أيضاً ، فللرد على مشوهى الإسلام من المسيحية لابد من مواجهتها بما فى الكتاب الذى يدعون إليه بقسميه من نقائص وعيوب ، وهم كثيراً ما يعيبون الإسلام بما هو كوجود فى كتبهم والإسلام برىء منه .

ولابد للمسلمين الآن أن يكونو هيئة إسلامية تكافح دون هذا الدين وتعمل على نشره ، والوقت مناسب على تكوينها على أن تكون هيئة مستقلة بعيدة عن تيارات السياسة واختلافات الأقطار العربية ، ولابد أن يكون لها معهد دراسى خاص على نحو ما نجد فى معهد كانتبرى الانجليزى ومعاهد التبشير الأخرى فى أوروبا والشرق وفى مصر نفسها .

وأود أن يعلم الذين يعنيهم الدفاع عن الإسلام أنهم إذا لم يتخذوا عملاً إيجابياً لحمايته فإنه يوشك أن يستأصل من جهات كثيرة ، وأول عمل إيجابى هو تعديل مناهج الدراسة بالأزهر حتى تخرج كلياته دعاة أكفاء للقيام بمهمتهم.

خامساً : شرق أفريقيـة

١ - الدعـــوة الإســـلامية :

كان من المنتظر أن يكون لدعوة الإسلام فى هذا الجانب نشاط انتشار أوسع مما هو حادث الآن لأن شرق أفريقية ينفتح على جنب الجزيرة العربية ، والاتجار مع هؤلاء الأفريقيين كان يمكن أن يغرى العرب بالإقامة على الساحل والاتصال بالزنوج حوله ، ولكن لا يسجل التاريخ هجرات عربية ، ولا مراكز تجارة بهذه البقعة ، ولم ينقل التجار إليها ما نقلوا إلى الهند وما حولها وما بعدها من تعاليم الإسلام .

وعندما غزا البرتغاليون هذه البلاد أوائل القرن السادس عشر عثروا على كتاب فى مدينة كلوا Kiloi وهى بلدة فى جزيرة صغيرة جنوب زنزبار ، ذكر كاتبه أن أول من هاجر إلى هذه الجهة من المسلمين جماعة كانوا يدعون « أموزيديج » كانوا أتباعاً لشخص من سلالة النبى يدعى زيدا ، وتوقع سير توماس آرنولد ، أنه قد يكون زيد بن على الذى طالب بالخلافة فى عهد هشام ابن عبد الملك ، فأخفقت ثورته وصلب على جذع نخلة سنة ١٢٣هـ (٧٤٠م) ، وأن كلمة « أموزيديج » قد تكون أمة زيد ، والقصة لا تخلو من غموض لأنه إذا كان الكتاب عربياً كان لابد أن يكون واضح الدلالة والتعبير -وتستمر القصة فتذكر أن هذه الجماعة كانت تخاف السكان الأصليين وتتحاشى الاندماج بهم ، ومع ذلك نجحت مع طول الزمن فى تكوين مستوطنات لها على الساحل الأفريقى ، ثم وفدت جماعة أخرى من الخليج العربى الفارسى ومن مكان قريب من البحرين ، فبنوا مدينة مقديشيو[1] التى كانت سيدة على عرب الساحل جميعاً ، ولم يخضع لهم جماعة « الأيدموزيديج »

---

(١) على ساحل الصومال الذى كان يتبع إيطاليا ، وهى أنشئت منتصف القرن العاشر الميلادى تقريباً ، أى فى القرن الرابع الهجرى مما يدل على أن الإسلام وصل هذه البقاع متأخراً .

لأن مذهبهم الشيعى يختلف عن مذهب مقديشيو ، وظلت سيادة مقديشيو نحو سبعين عاماً .

وقدمت جماعة ثالثة تنتمى لأحد سلاطين شيراز ، فلم تأو إلى مقديشيو ، بل انحدرت إلى الجنوب وأسست مدينة «كلوا» Kiloi – إذ كانت تتوقع استخراج الذهب من جزيرة زنزبار ، ثم تعددت القرى الإسلامية على الساحل الأفريقى ، ولكن لم يستطع مسلموها أن يتوغلوا بالإسلام داخل القارة ، ويبدو أن حالة الزنوج وما كان يعرف عنهم من أنهم من آكلى لحوم البشر مما كان يحول دون التوغل فى داخل القارة ، وقد أورد جورجى زيدان فى كتابه «طبقات الأمم» صوراً عديدة لهذه الوحشية وللضحايا العديدين من المبشرين .

ووجدت بعد ذلك مدن عربية متناثرة على الساحل الشرقى ولكن تأثير الإسلام فى الجنوب كان ضئيلاً جداً ، وكان الصوماليون فى الشمال هم الذين أقبلوا عليه إقبالاً ملحوظاً ، وكذلك فعلت قبائل الجلا ، وقد توجد أسباب كثيرة لهذا التراخى فى سير الإسلام فى هذه الجهات ولكن مما لا ريب فيه أن دعاة المسلمين كانوا مقصرين .

وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر انبعثت دعوة الإسلام فى أوغنده ، ودخل الكثيرون من أبنائها الإسلام على يد التجار العرب ، ولكنها كانت حركة محدودة قصيرة الأمد .

وفى النصف الثانى من هذا القرن بدأت الإرساليات المسيحية تتوافد على أوغنده ، ثم بسطت الحماية البريطانية وغير البريطانية أيضاً على هذه البلاد ، فنشطت الإرساليات التبشيرية وعملت على كبت الإسلام ووقف حركة الدعوة له ، وعمل الأثيوبيون بنشاط أوسع وتبجح أظهر على اضطهاد المسلمين ومحاربة الإسلام وتنصير المسلمين قهراً ، وظل هذا الضغط يتزايد وينمو ، والحبشة الآن أعدى أعداء الإسلام ، وسنتحدث عنها بعد .

وكان سكان هذه البقاع أكثر ميلاً إلى الإسلام لسهولة عقيدته وعبادته

حتى قال بعض الساسة الألمان أنه يتوقع دخول قبائل الجلا جميعاً فى دين الإسلام قبل أن ينتهى القرن التاسع عشر ، وكانت نبوءة هذا الرجل جديرة أن تتحقق لو سلم القوم من عوائق الاستعمار والتبشير .

ونقل سير آرنولد أحداثاً تدل على شدة ميل هؤلاء الأفريقيين للإسلام ، وهى أقاصيص إن لم تكن صحيحة الوقوع فهى صحيحة الدلالة .

منها قصة رجل من أبناء الجلا كان قد اختطف وبيع فى جدة بين الرقيق ، وقابله أحد الألمان بعد ذلك فسأله عما يكنه من السخط على الذين اختطفوه ، فأجابه إنها عناية الرحمن أنقذته من جهل الوثنية ، وأن حلاوة الإيمان التى يجدها فى قلبه فوق أن توصف ، وتمنى لسائله الألمانى المسيحى أن يهديه الله لهذا الدين قبل موته[1] .

وقصة أخرى مشابهة تروى أن بعض التجار العرب جنحت بهم سفينتهم إلى ساحل أفريقية الشرق ، وكانوا خائفين من الأهلين ، ولكنهم لم يجدوا ما يخيف ، بل عاملهم القوم معاملة حسنة ، وباعوا هناك ما معهم من بضائع ، وكانوا هم الذين أساءوا ، فإنهم عند رحيلهم اختطفوا ملك القبيلة وباعوه فى الجزيرة العربية بيع الرقيق ، ولم يكونوا يتوقعون أو يريدون العودة إلى هذا المكان ، لكن الرياح دفعت بهم مرة ثانية إليه ، وكانوا فى هذه المرة أشد خوفاً ، وكانت دهشتهم شديدة عندما وجدوا الملك الذى اختطفوه من قبل ، فلم ينتقم منهم بل شكر لهم صنيعهم لأنهم كانوا السبب فى هدايته للإسلام[2] .

ورغم هذه الصلات بين العرب وبين الأفريقيين فى هذا الساحل وطول أزمانهم لم يتجاوز الإسلام جوانب الساحل ، وعندما جاء المستكشفون البرتغاليون وجدوا مسلمين هنا وهناك ، ولم يجدوا مسيحية ، وكان البرتغاليون أثناء حكمهم أول من قاد التبشير ونشر المسيحية هناك ، وبعد تقلص الحكم

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ٣٨٥ .

(٢) نفسه ٣٨٠ نقلاً عن كتاب عجائب الهند .

البرتغالى كان بعض هذه البلاد تحت حكم عمان فاستراح المسلمون ولكن لم تعمل عمان على مد الإسلام داخل القارة ، وكان السود الأفريقيون دائماً يخافون الرجل الأبيض بسبب ماكان من حوادث النهب والإتجار بالأفريقيين ونقلهم إلى أمريكا لعمارة أراضيها . وكذا كان الغرب يخافون الزنوج لما شاع من توحشهم ، ولكن لا مفر من الاعتراف بقلة الدعاة الإسلاميين وتقصير المسلمين فى إعداد إرساليات على نسق الإرساليات التبشيرية .

وفى أواخر هذا القرن كان النشاط التبشيرى أقوى ، وانتشرت الإرساليات فى أوغنده وحولها ، وبفضل الحماية البريطانية نال المبشرين من التشجيع ما نال الدعوة الإسلامية من ضعف ، فقد عملت السياسة الانجليزية على تثبيط الدعوة الإسلامية فى صمت وهدوء ، ومن طرق كثيرة غير مباشرة ، وبذلت للمبشرين وللكنائس أسخى ما بذل فى هذه البلاد ، وكان الأثيوبيون أكثر صراحة وأجرأ عداوة ، إذ عملوا على تنصير المسلمين وكبت دعوتهم بقوة وعنف .

وقد كانت هرر -بمجهود السنوسيين- مركزاً للدعوة ، ومنها ينتشر الدعاة والوعاظ إلى الجهات المجاورة ، وبوجه عام كانت قبائل الجلا وقبائل الصومال أكثر القبائل قبولاً للإسلام ، بينما كانت القبائل التى فى وسط القارة تعيش على فطرتها راضية بوثنيتها بعيدة كل البعد عن سمات الحضارة الإسلامية ، وكانت تشيع بينهم عادات كثيرة قبيحة ، وكانوا جميعاً يكرهون البيض ويخشونهم بسبب مالاقوا منهم من سلب ونهب ، وكان تجار المسلمين قد تجولوا فى البلاد الساحلية وأيضاً قليلاً فى الداخل ، فأنس إليهم السكان لما رأوا من أمانتهم ولما كانوا يشيعونه من دعوة الإسلام إلى المساواة وحفظ حقوق الغير . وكان فى أوغنده بعض من المسلمين يتولون وظائف ليست صغيرة ، فساعدوا بقدر مااستطاعوا على نشر الإسلام وتعريف الناس به .

وأخيراً رجحت كفة التبشير للأسباب التى ذكرنا ، ثم شقت الماركسية طريقاً لها ، والله وحده يعلم مستقبل هذه البلاد .

٢ - الاستعمار يضر وينفع :

جاء القرن العشرون وأفريقية كلها ترزح تحت نير الإستعمار ، كما أنها كانت تغط فى ظلام الجهل والتأخر الحضارى ، وهذا -فى الواقع- ما سهل جعلها فريسة للمستعمرين ، إذ وجدوا فيها أسواقاً لمنتجاتهم ، كما وجدوا فيها من قبل منهبة للرقيق ، ولذا لم يقدموا لها من وسائل الحضارة إلّا مايكون لهم من ورائه فائدة ، مدوا بينهم طرقاً حديدية ، وعلموهم قيادة السيارات وركوب الدراجات ، وفتحوا مدارس قليلة نشرت لغة المستعمر ، واستقدموا الإرساليات العديدة لنشر المسيحية وتعليم اللغات الأوروبية ، وكان لكل دولة طريقتها ومذهبها المسيحى الذى تدعو إليه .

كانت ألمانيا ذات حظ كبير من أراضى أفريقية الوسطى ، وأول من استقدم إرسالية تبشيرية بروتستانتية إلى شرق أفريقية ، وبوجه عام عمل المستعمرون على وقف تجارة الرقيق ، ولم تكن مجرد تجارة ولكنها كانت نوعاً من الوحشية يقوم على اختطاف الزنوج أو اغتصابهم ثم سوقهم قطائع ليباعوا هناك ، وهو باب كان الأوروبيون هم الذين افتتحوه وأسرفوا فيه غداة توسعهم الاستعمارى فى أمريكا ، فقد أبادوا زنوجاً هناك ونهبوا زنوجاً هنا ، ولكنهم الآن أغلقوه وادعوا لأنفسهم فضل وقفه ، وعزوا إلى المسلمين والإسلام ابتداعه .

وقد أفادت هذه الحركة الدعوة الإسلامية إذ هيأت لتجار المسلمين الذين لم يكونوا يجاوزون، السواحل أن يدخلوا فى جوف القارة ، وفى ظل الحكم الاستعمارى ساد الأمن ومدت السكك الحديدية وشقت الطرق ، وفى الجنوب من الأقاليم الاستوائية حيث تقل الأدغال والجبال اتصل شرق القارة بغربها ، فسهل التوغل فى القارة والاختلاط بجماعات وقبائل لم يكونوا يعرفون غير الوثنية ديناً ، واختارت إدارة البلاد موظفيها من المسلمين المثقفين ، وأنشأت حكومة أفريقية الشرقية -وهى حكومة ألمانية- آلافاً من الوظائف أسندتها إلى المسلمين المثقفين ، فعملوا على نشر الإسلام وتعليمه ، وكان

المعلمون فى المدارس مسلمين أو أكثريتهم العظمى من المسلمين ، ونشأ عند ذلك دخول قبائل وقرى بأكملها فى دين الإسلام ، والواقع أن هذا حدث منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وفى أوائل القرن العشرين كان هناك معلمون مسلمون من السواحلية ، فبذلوا نشاطاً واسعاً فى إدخال الإسلام بين القبائل الكبيرة ، وامتد الإسلام مع خطوط السكك الحديدية حتى بحيرة تنجانيقا وهى نهاية أفريقية الشرقية الألمانية ، بينما كانت تشمل ما بين سمبارا Sumbara إلى كلمنجارو شمالا ، وحتى بحيرة نياسا جنوبا ، ولم يكن هناك دعاة متخصصون توفدهم هيئة منظمة ، ولكن التجار قاموا بالنصيب الأكبر ، وكان يوجد أشخاص من الدعاة المتطوعين أو من ينتمون إلى بعض الطرق الصوفية ، ولكن السكان فى هذه الجهات كلها قبائل عديدة ، وكان لكل قبيلة دينها وعبادتها الخاصة ، وكان قبولها للإسلام يختلف بين قبيلة وأخرى ، ولكن الدين الإسلامى استطاع أن يثبت نفسه وأن يجد له أتباعاً كثيرين وبين قبائل قوية كبيرة ، مثل الياوس Yaos وهم قبيلة قوية تعتبر الإسلام دينها القومى .

ولم تستمر موجة المد الإسلامى طويلاً ، إذ بدأ التبشير المسيحى يهجم على هذه البقاع ، وكانت المعركة عنيفة بين الطرفين ، وكان الإسلام أرجح كفة ، وأنجح فى اجتذاب الأتباع ، ولم يظفر المبشرون إلا بأفراد قليلين ، وبعض الذين دخلوا المسيحية عادوا إلى وثنيتهم أو آثروا عليها الإسلام ، أو انتهوا إلى عدم الإيمان لا بالمسيح ولا بالله ، والواقع أن حركة المسيحية كانت ضئيلة جداً وواهية جداً بجانب حركة الإسلام ، ولكن بفضل إصرار المبشرين وتنظيم حركتهم والمساعدة التى كانوا يمدون بها من الحكومة ومن الكنائس الأوروبية ، وبحيف الحكومات على الإسلام رجحت كفة المسيحية .

٣ - بـلاد النوبـة :

كان اسم النوبة أيام الفتح العربى يطلق على مساحات تمتد من جنوب الأراض المصرية إلى ما يشمل جزءاً كبيراً من إقليم السودان الحالى وحوض النيل الأزرق ، ودخلت المسيحية هذه البلاد من طريق مصر ، وأيضاً من الجزيرة

العربية ، ولكنها كانت بطيئة ، ولم تفش المسيحية فى هذه البلاد إلا فى القرن السادس الميلادى[١] . وكانت تمد بقسس من الحبشة ومن مصر ، وكانت كنيسة الحبشة تابعة لمصر .

ولما فتح عمرو بن العاص مصر بعث حملة إلى أرض النوبة فقابل جيشه مقاومة كبيرة ، وكان النوبيون مهرة فى الرمى فرشقوا العرب بالنبل فأصابوهم بجراحات كثيرة وحدق مفقوءة ، وكان يسمون النوبيين رماة الحدق ، حتى عد بعض المحاربين مائة وخمسين عيناً مفقوءة . ولكن عمرا لم يزل يقاتلهم حتى عزل ، وجاء بعده عبد الله بن سعد بن أبى سرح فصالحهم على أن يدفعوا له رقيقاً وأن يأخذوا فى مقابله طعاماً من القمح والعدس[٢] .

وكان الرقيق الذى يقدم يبلغ أربعمائة رأس منها أربعون للوالى ، ولم يكن ذلك شاقاً عليهم ، بل كانوا يدفعون للحاكم الذى يحضر لقبض هذه الضريبة –وكانت تسمى البقط– زيادة عن هذا العدد المقرر كما كان الشهود الاثنا عشر يأخذ كل واحد منهم رأساً ، ويأخذ أمير أسوان عشرين : ولم تكن هذه معاهدة وإنما كانت هدنة[٣] ويبدو أن الذى سهل هذا السخاء ما كان فى بلاد

---

(١) الدعوة إلى الإسلام/ ٣١ .

(٢) انظر فتوح البلدان / ٢٣٨ – ٣٩ .

(٣) انظر فتوح مصر والمغرب / ١٥٢ وما بعدها ولم يذكر ابن عبد الحكم شيئاً عن أعمال عمرو ، ولكنه بدأ بغزو عبد الله بن سعد الإساود ، وهم النوبة وبأن ذلك كان فى عهد عثمان سنة ٣١هـ – وجاءت صورة العقد الذى عقده عبد الله معهم فى خطط المقريزى ١٩٩/١ ، وقد حقق هذا العقد لهم استقلالهم كما طمأن المسلمين على حدود بلادهم ، وبه فتحت البلاد للتجار المسلمين وللحصول على الرقيق ، وبه اختلط العرب بالنوبيين وبأبناء قبيلة البجّة ، وسمح للنوبيين أن يجتازوا البلاد المصرية غير مقيمين ، وأنهم إن قتلوا مسلماً انقطعت الهدنة .

وقال ابن عبد الحكم أنهم أول عام بعثوا فيه بالبقط أهدوا عمرو بن العاص أربعين رأساً فكره أن يقبل منهم .

وظلت هذه الضريبة فى العهود التالية ، وكان المهدى العباسى يأخذ زرافة فوق الرؤوس المقررة ، وفى فتوح البلدان أنهم كانوا يأخذون هذه الرؤوس من أعدائهم . فإن لم يجدوا رجعوا على أبنائهم ، ثم كانوا يدفعون البقط كل ثلاث سنوات ، ثم كان للمسلمين مواقف منوعة مع قبائل البجة ثم فشا الإسلام بينهم .

النوبة من فقر وعوز ، وكان النوبيون كثيرى الزوجات كثيرى النسل ، ثم إننا نجد بعد ذلك جماعة من المسلمين يقدمون كل عام فتاة إلى ملك الحبشة ضمن الجزية التى كانت مضروبة عليهم لينصرها[١] .

وقد زاد عدد المسلمين بهؤلاء كثيراً ، وكان ابن أبى سرح يشترى الأسرى لبيت المال ويعلمهم الإسلام . ودخل النوبيون فى دين الإسلام تدريجياً ، ولم تنقطع صلات المصريين بهم ، ومنهم من كانوا مصرين على مسيحيتهم ، واستطاعوا أن يحتفظوا باستقلالهم زمناً طويلاً[٢] .

والواقع أن إقبالهم على الإسلام كان يختلف بين جهة وأخرى فى هذه البلاد المترامية الأطراف ، فكانت البلاد القريبة من مصر أقرب إلى الإسلام من غيرها ، وكانت مملكة الحبشة ذات قوة بها تفرض ضريبة قاسية على من بجوارها من القبائل أو الجماعات الإسلامية[٣] .

ولعل أشهر الذين برزوا فى الفكر الإسلامى المصرى هو يزيد بن حبيب ، فقد كان أبوه من سبى دنقله ، مولى لرجل من بنى عامر من أهل المدينة[٤] وهو فقيه محدث من علماء المالكية .

وعلى أى حال كان النوبيون -الأساود- على حظ من السذاجة ، وكانت فكرة المسيحية بينهم غامضة وكان بينهم من يعيشون على الفطرة ولا يعرفون عن الديانات السموية شيئاً . « جاء عن المؤرخ ابن سليم أنه قابل رجلاً نوبياً عظيم المقرّة ، ذكر له أن بلده يبعد عن النيل ثلاثة أهلة » ، وسأله عن دينه فقال : « ربى وربك الله .. ورب الناس كلهم واحد ، وهو فى السماء وحده ، وقال إنهم إذا أبطأ عنهم المطر أو أصابهم الوباء ، أو وقع بدوابهم آفة

---

(١) الدعوة إلى الإسلام / ١٣٦ .

(٢) انظر المصدر السابق / ١٣٠ .

(٣) انظر المصدر السابق .

(٤) فتوح مصر ٢٥٤ .

صعدوا الجبل ، ودعوا الله فيجابون للوقت .... ولما ذكر له بعثة موسى وعيسى ومحمد —صلوات الله عليهم— وماكان لهم من معجزات ، قال الرجل : إذا كانوا فعلوا هذا فقد صدقوا ... »[1] .

وذكر ابن بطوطة أن النوبيين ذكروا له أن السماء قد تمطر لهم سمكاً يلتقطونه لساعته ، وسألهم عن صفته فقالوا : إنه عريض به خطوط حمر[2] كما يذكر أهل دنقلة أنها من بناء جدهم[3] وانتقلت قبائل البجة . وقبائل سودانية . إلى بلاد النوبة ، كما أن العرب هاجروا إليها وكثر عددهم على النيل الأزرق ونمت ثروتهم وكانوا مسلمين فأحدثوا فجوة فى مملكة الحبشة المسيحية ، وبنوا لهم مسجداً فى سوية — وهى بلدة تبعد عن الخرطوم بنحو اثنى عشر ميلا — واندمج العرب المهاجرون —ولا سيما قبيلة جهينة— بالأهلين بالمصاهرة فغيروا من طباع النوبيين وكسروا شوكتهم .

وفى القرن الثامن الهجرى الخامس عشر الميلادى كانت دولة الفونج السودانية دولة مسلمة ، وقد مدت حدودها شرقاً إلى الحبشة والنوبة وأسست ولاية سنار ، وامتازت بقوتها فلم تكن كالولايات الصغيرة التى تدفع الجزية لملك الحبشة المسيحى .

بهذا نجد أن بلاد النوبة غمرت بالمسلمين من عدة منافذ ، وتخللت أراضيها ولايات إسلامية ، ثم كان للتجار المسلمين آثار غير هينة فى نشر الإسلام بينهم ، وبهذا كله تمشى الإسلام بينهم رويداً رويدا حتي تحولت البلاد كلها إلى الإسلام .

---

(١) ملخص من كتاب الدعوة إلى الإسلام ص١٣٣ وهو نقل عن المقريزى فى خططه ١٩٧/١ .

(٢) من مذكرات د. عبد المجيد عابدين «الأدب المصرى» .

(٣) انظر هامش ١٣٢ من كتاب الدعوة إلى الإسلام —وفيه أن دنقلة مدينة قديمة كانت موجودة أيام المصريين القدماء .

٤ - موقف المســيحية :

كان البطريق اليعقوبى هو صاحب السيادة على الكنيسة النوبية ، كما أنه السيد أيضاً على كنيسة الحبشة ، وكان النشاط التبشيرى ضعيفاً وإقامة الشعائر المسيحية مهملة حتى أن الناس ربما مر عليهم خمسون عاماً لم يذهبوا إلى الإعتراف أمام قسيس أو يحضروا العشاء الربانى أو أى قداس . ولابد أنه كان للانقسامات الداخلية والخلافات العنيفة بين القسس أكبر الأثر فى فتور التبشير ، فانحطت الحياة الروحية ولم يكن بين النوبيين دعاة من القساوسة من أى رتبة حتى أنهم طلبوا من نجاشى الحبشة أن يمدهم بقسس فلم يفعل ، وكانت بلاد النوبة مليئة بالكنائس منها ما هو مغلق ومنها ما هو خال من أى نشاط سوى وجود صور القديسين به ، وكل ذلك هيأ لدعوة الإسلام أن تجد مكاناً ، ولم يكن يعوقها إلا جمود النوبيين على ما ورثوه من مسيحية يعرفون اسمها ويجهلون قواعدها ، وقبل نهاية القرن السادس عشر الميلادى كانت المسيحية قد اضمحلت نهائياً واستسلمت لدعوة الإسلام .

وسبب آخر شديد الأهمية فى هذا الموقف ، وهو فساد رجال الدين المسيحى . وضعف ثقتهم فى أنفسهم ، وكان القسس بجانب ذلك يتصفون بالجهل الفاضح ، وكانت قلة الثقافة وعدم الدرس مما أدى إلى نقص القسس ، ومات أساقفة كبار فلم يكن ثمت من يحل محلهم .

وفى عهد صلاح الدين الأيوبى تمتع المسيحيون بتسامح لم يكونوا يحلمون به ، ولكن هذا التسامح لم يكن عاملاً لإنهاض الكنيسة بل كان من أسباب إقبال المسيحيين على الإسلام ، حتى إن رؤساء الأبروشيات تركوا المسيحية ليكونوا مسلمين .

وقد خفضت الجزية حتى كانت ديناراً واحداً على الذكور الكبار القادرين ، فرأى الكثيرون فى تسامح الإسلام ما يُغْرِى باتباعه ، وكانت الحبشة تفرض سلطانها على ساحل البحر الأحمر وعلى جزء كبير من شرق النيل

الأزرق ، ولكن وجود قبائل مسلمة مزق هذه المملكة ، وحقاً كان هناك مسلمون يدفعون الجزية لملك الحبشة ، ولكن من الناحية الدينية اهتزت المسيحية .

٥ - فى الحبشـــة :

كان بين العرب والحبشة صلات قديمة ، إذ كان التجار العرب يبحرون إلى الحبشة بتجاراتهم ويعودون ببضائع أخرى ، وقد هاجر المسلمون الأولون إلى الحبشة مرتين ، أحســن النجاشى اســتقبالهم وأكرم مثواهم ، وكان قد عاش فى بلاد العرب ورعى الغنم هناك ولذا كان يعرف اللغة العربية ، وبكى حين سمع القرآن ، ويقال إنه كان مسلماً يكتم إسلامه حتى إنه لما مات صلى النبى - ﷺ - صلات الغائب . و قد عاش المسلمون المهاجرون إلى الحبشة فى عهده عيشة كريمة . ولكن لا يعرف أنهم بشروا هناك بالإسلام أو أن الحبشيين دخلوا الإسلام بدعوتهم .

واليمنيون من قديم يبحرون إلى الحبشة ، وهاجر عرب كثيرون إلى إفريقية وأقاموا لهم مستوطنات على الشاطىء ، لسوء المناخ فى الساحل الشرقى للبحر الأحمر وما يحف به هناك من جبال شاهقة تجعل الجو خانقاً ، بينما الساحل المقابل يستقبل هواء البحر الجميل ، وتجاوز العرب المهاجرون الحبشة إلى السودان عن طريق النيل الأزرق ، فنقلوا الإسلام إلى السودان ووجدوا من السودانيين قبولاً له ، إذ كانوا وثنيين وأكثرهم يعيش على الفطرة .

ثم انتقلت قبائل الجلا السودانية إلى أراضى الحبشة ، وكانوا وثنيين فتطبعوا بطباع الحبشةوتبنوا كثيراً من عاداتهم ولغتهم ، ومن جانب آخر اتصلوا بتجار المسلمين فقبلوا الإسلام ديناً عن طواعية ورغبة .

وفى القرن الرابع الهجرى كان الإسلام يتمشى بين القبائل المتناثرة قليلاً قليلا ، فكان هناك أسر إسلامية قليلة ، وكانت معاملة التجار المسلمين وما بدا على القبائل التى أسلمت من تقدم مدنى مما يغرى الآخرين بدخول الإسلام ، وكانت الكنيسة فى حالة ركود تام .

وفى أول القرن الرابع عشر الميلادى حمل الحماس زعيماً كان يسمى أباعبد الله محمد أن يعبىء جيشاً يبلغ ٢٠٠,٠٠٠ محارب ، فقامت بينهم وبين الأحباش فى أمهرة معارك عديدة لم تأت بنتيجة حاسمة .

والواقع أن هذه البقعة ظلت مدة طويلة فى ذبذبة وتطاحن بين المسيحية والإسلام ، وكانت الصفة البارزة أن الناس كانوا يدخلون الإسلام طواعية وعن رغبة ، ويصدون عنه قهراً وغلبة ، حتى جاء الاستعمار الأوروبى فى الأراضى الحبشية وما حولها ، فبعث فى الكنائس روحاً جديدة ، وحارب الإسلام فى غير هوادة ، ثم صارت الحبشة مصدر تبشير وأكبر محارب للإسلام .

وكان الملك سيف أرعد المسيحى (١٣٤٢ — ١٣٧٠م) قرر إعدام أو نفى من لم يدخل المسيحية ، مما حمل المسلمين فى مملكته أن يتظاهروا بالمسيحية ، ولم يمض إلا نحو ربع قرن حتى قوى شأن المسلمين ، فأعلنوا استقلالهم عن الحبشة وطردوا الأحباش من بينهم ، وكان ذلك بسبب اضطراب الجلا وقيام الحروب بين قبائها — وهذا مجرد مثال من أحداث الذبذبة فى هذا القرن والذى يليه .

وفى القرن السادس عشر كانت حركة أحمد القرين فانضم إليه سلطان مسيجة Maseggia وهى ولاية كانت بين الحبشة وسنار ، وكانت مسلمة تدفع الجزية لملك الحبشة ، فانتهزت الفرصة وانضمت للقرين (وسنتحدث عنه بعد) . وكان فى جيشها نحو ١٥ ألف جندى من النوبيين المسلمين .

وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان للمسلمين شأن بارز ، إذ كانوا محل ثقة الجميع بسبب ما اتصفوا به من أخلاق كريمة وعادات طيبة فى مقابلة ماكان عليه المسيحيون من إهمال وجهل .

وفى أواخر القرن التاسع عشر دخلت قبائل الحباب الثلاث الإسلام مأخوذين بأخلاق المسلمين فكان ذلك كسباً كبيراً للإسلام ، لأنهم كثيرو العدد ويشغلون مساحة واسعة من الأرض تقع بين خطى عرض ١٦° ،

٥١٧,٣٠ إلى الشمال الغربى من الصومال ، وتحول معهم قبائل أخرى من الجهات الشمالية فزاد عدد المسلمين كثيراً فى مقابلة خمود المسيحية ، وكان المسيحيون يدخلون الإسلام بكثرة أيضاً ، حتى أن أحد نواب ملك الحبشة «رأس على» الذى كان يحكم مؤقتاً وهو مسيحى ، قسم الوظائف وما غنمه من الكنائس بين المسلمين ، وكانت هذه الحالة من أكبر ما تمتع به الإسلام فى بلاد الحبشة . ويقابلها موقف مضاد لا تزال آثاره باقية .

ففى سنة ١٨٧٨ عقد الملك جون ملك الحبشة مجمعاً ضم كبار القسس للنظر فى أمر مسلمى الحبشة ، وكانت الحرب المصرية الحبشية التى امتدت من سنة ١٨٧٥م لى سنة ١٨٨٢ - دائرة الرحى ، واتهم مسلموا الحبشة بمعاونة المصريين ، فقرر المجمع إلا يكون بالحبشة إلا دين واحد ، وألزم المسلمون بدفع العشور للقساوسة وأن يبنوا من مالهم الكنائس التى تدعو الحاجة إلى بنائها ، وأعطوا مهلة ثلاثة أعوام يستسلمون خلالها نهائياً . ليكونوا مسيحيين على المذهب اليعقوبى ، وأعطى المسيحيون الذين ليسوا من اليعاقبة مهلة عامين ليتحولوا إلى يعاقبة ، وأمهل الوثنيون خمسة أعوام ليتنصَّروا ، ولكن الملك جون لم يكتف بهذا ، فعاد بعد انتهاء المجمع بأيام قليلة فأعلن تحديد المهلة للمسلمين بثلاثة شهور يعمدون فيها أو يطردوا من وظائفهم .

واضطر المسلمون أن يذهبوا إلى الكنيسة ليعمدوا ، ولكنه كان تدينا ظاهرياً فقط ، ولم يشمل قرار الملك النساء ، فبقين على إسلامهن ونشأن أطفالهن على عقيدة الإسلام وانتهز بعض حكام أو ملوك المقاطعات فرصة انشغال جون بهذه الفتنةفى بلده ، فأعلنوا إسلامهم واستقلالهم ، لكن ذلك لم يدم أيضاً .

واستمرت ذبذبة عدد من القبائل بين التظاهر بالمسيحية وإنكارها وبين الاتجاه إلى الإسلام والإكراه على تركه مدة طويلة .

وفى القرن التاسع عشر رغم استيقاظ التبشير وعنف الحكام نما النفوذ الإسلامى تلقائياً ، وكان هذا العنف مما بغض الناس فى المسيحية ، فتحولت قبائل مسيحية إلى الإسلام وأعلنته دينها مع بقاء أسمائها المسيحية .

وأورد أرنولد على سبيل المثال أسماء ثلاث قبائل من هذا النوع هى تاكلى Taklies ومعناها بنات يسوع ، وهبتية Hebtes (عطية يسوع) ، وتى ماريام Temaryam (عطية مريم) كما ذكر أن قبيلة منساع Mansa المسيحية دخل معظمها فى الإسلام ، وأرجع هذا الإقبال على الإسلام لنشاط الدعاة المسلمين من جانب وجهل الدعاة المسيحيين وفشو الجهل فيهم من جانب آخر .

وفى النصف الثانى من هذا القرن اشتدت حركة التعصب ضد المسلمين ثم كان الملك السابق هيلا سيلاسى شديد الكراهية للإسلام شديد التعصب عليه ، شديد البغض للمسلمين فحرم وجود الإسلام نهائياً فى بلاده ، ولا يجرؤ مسلم فى الحبشة الآن أن يجهر بإسمه ، وفى المؤتمر الإسلامى الأول للأزهر سنة ١٩٦٤م أرسلت دعوات لبعض المسلمين لحضور المؤتمر ، ولم تجرؤ السفارة المصرية على تسليمها ، ولم يسلم المدعون من المعاقبة .

وموقف الحكومة الحبشية من الإسلام موقف لا ينساه التاريخ ، وهو يسجل عليها من الخزى والعار مايسجله على حكومة جنوب أفريقية ، وماسجله من قبل على حكومات العصور الوسطى .

سادساً : الدعوات الإسلامية فى إفريقية

نورد هنا لمحة عابرة عن أشهر الذين عملوا على بث الدعوة الإسلامية فى هذه القارة مكتفين بأعمالهم البارزة .

١ - الميرغنية :

جماعة تنسب إلى محمد عثمان الأميرغنى (حولت الكلمة على لسانة العامة إلى الميرغنى) وهو من تلاميد أحمد بن إدريس (سى أحمد) المعلم ذى الشهرة ، وكان له تلاميذ وأتباع فى مكة (١٧٩٧ - ١٨٣٣م) وكان داعية موفقاً ، أرسل تلميذه محمد عثمان هذا إلى أفريقية للتبليغ الإسلامى فشق طريقه من القصير إلى النيل ، فقابل بعض الجماعات التى استجابت له ، وانتقل إلى أسوان ثم إلى دنقلة فالتف حوله عدد كبير من النوبيين ، ثم رحل إلى كردفان فأقام زمناً طويلاً حيث أقبل الوثنيون عليه وتقبلوا الإسلام وتحمسوا له ، وقد تزوج منهم وارتبط بقبائلهم ، فلما مات سنة ١٨٣٥م قام أولاده بدعوته وتكونت بهم الطائفة الميرغنية ، وهى ذات أثر كبير فى هداية المسلمين وإدخال الوثنيين الإسلام ، وصادف دخول محمد عثمان فتوحات محمد على فى السودان فاتخذت مصر منه مقاوماً للمهدى وأتباعه الذين كانوا يحاربون مصر .

٢ - القادرية :

وهى جماعة تنسب إلى عبد القادر الجيلى الصوفى المعروف ، نشأت جماعته فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) - ودخلت أفريقية فى القرن الخامس عشر ، على يد جماعة استقروا فى الشمال الغربى من الصحراء الكبرى ، ثم انتقلوا إلى تمبكتو Tembectu ثم تكونت لهم فروع وشعب متناثرة فى أرجاء السودان الغربى من السنغال إلى مصب نهر النيجر ، وأقبل الوثنيون عليهم إقبالاً واسعاً فى القرن التاسع عشر ، ولم يكن الاستعمار الأوروبى قد بسط نفوذه بعد ولم يكن للمبشرين المسيحيين سناد منه ، وأهم ما كان لهذه

الجماعة من أثر أنها أنشأت عدداً كبيراً من المراكز ، وكانت المراكز الرئيسية الكبرى لهم – فى كنكا تمبكت فى جبال فوتا جالون وبلدة موزاردو Musardo من بلاد المندينجو Mandingo – تقوم بإعداد المعلمين الذين يدرسون المذهب والإسلام فى الشعب التابعة والناشئة ، وكانت ترسل بعوثاً إلى البلاد الإسلامية المعروفة مثل القيروان وطرابلس والأزهر بمصر كى يتزودوا بمعلومات أوسع ثم ليعودوا معلمين فسرت دعوتهم فى صمت وهدوء بين بلاد واسعة ، وكان منهجها السلمى يحبب الناس فيها ويجتذبهم إليها ، ولا تزال لها خلوات ومجالس عديدة فى أنحاء السودان .

٣ – التيجـــانيـة :

تعزى هذه الجماعة إلى السيد أحمد التيجانى ، نادى بها فى الجزائر قبيل انتهاء القرن الثامن عشر فما لبثت أن امتدت إلى جهات كثيرة بسرعة ، ولم تكن بعيدة عن القادرية ولكنها اختلفت عنها فى اعتمادها على القوة ، وفى عيبها الطرق الصوفية الأخرى التى تعتمد على الخوارق والكرامات ، وقد أنشأت مدارس كثيرة كانت ذات أثر كبير فى نشر اللغة العربية والإسلام[1] .

وأشهر دعاتها داعية يسمى الحاج عمر ، وهو ابن لأحد المرابطين ، واشتهر بعمله الواسع وتقواه ، خرج إلى الحج سنة ١٨٢٧ فتعرف بمكة على أحد أبناء التيجانية وكبير من دعاتها فانضم إليه بحماس وحمية ، دفعه إليها حماسه الدينى وتربيته الى نشأ عليها ، ولم يعد إلى بلده ، إلا بعد خمسة أعوام ، لأنه عبر السودان الأوسط داعياً لفكرته ومعرفاً بها فانضم إليه خلق كثير ، وأقام عدداً من المدارس ، وفى سنة ١٨٤١ كان قد بلغ جبال فوتا جالون وكثر أتباعه ونمت فى نفسه فكرة الجهاد ، فدعا أتباعه إلى التسلح ، وهجم على القبائل الوثنية التى كانت تقيم حول النيجر الأعلى والسنغال فدعاهم إلى

---

(١) انظر الإسلام والمسلمون فى غرب أفريقية – للدكتور عبد الرحمن زكى ص١١٣ ، والدعوة إلى الإسلام ٣١٦ – ٨ .

الإسلام ونهاهم عن عبادة الأوثان ، ولم يتكلف فى ذلك مشقة كبيرة ولا إراقة دماء إذ استجاب القوم لدعوته وبهرتهم كثرة أتباعه ، ولكنه قتل فى إحدى هذه الغزوات سنة ١٨٦٥ وخلفه ابنه «أحمدو شيخو» ولم تكن له كفاية أبيه ، فاختلف أتباعه بعضهم على بعض ثم أظل الاستعمار الفرنسى البلاد ، فقضى على حركة الجهاد ، ولكن الدعوة ظلت تتمشى سلمياً بواسطة الدعاة والكتاتيب التى تعلم القراءة وشيئاً من القرآن ومبادىء الدين الإسلامى .

وهناك -عدا الشيخ عمر- دعاة آخرون كانت لهم مواقف مشهودة مع الفرنسيين .

ومع دخول الفرنسيين نشطت حركة التبشير بثت كنائس عديدة فيما كان يسمى بالسودان الفرنسى ومن هنا بدأ التنافس بين الدعوتين ولا يزال .

٤ - السنوسية :

تتسم هذه الجماعة بالاتزان والهدوء ، واعتمادها على الاستنارة العقلية ، وقد استطاعت أن تبث أضواء الثقافة وتعرف بالفكرة الإسلامية فى أنحاء القارة ، إذ أنشأت زوايا وكتاتيب فى الواحات الأفريقية المسكونة كما كانت لها زوايا تمتد فيما بين مصر ومراكش ، وكانت واحة جغبوب وهى مركزها العام[١] وانتقل المهدى بن السنوسى إلى واحة الكفرة ، ثم توغل جنوباً فى بوريو Burio وتيبستى Tebusti ، وتوفى بها سنة ١٩٠٢ ، وبلغت زواياه

(١) مؤسس الجماعة السنوسية هو محمد بن على السنوسى الجزائرى ، أنشأها سنة ١٨٣٧ ، وكان هدفها أساساً إصلاح الدعوة الإسلامية على نسق ما فعل محمد بن عبد الوهاب ، ولكن كانت دونه تشددا وكان يتوقع غارة إيطاليا فجعل مقره فى الصحراء ، وانتشرت زواياه وتعاليمه ، وكان دعاته يتجهون إلى الشمال فى مصر ومراكش كما يتجهون إلى الجنوب فى السودان وإلى السنغال ، وكان يتخرج من جغبوب دعاة يبلغون المئات كل عام وكانت زواياه تضم آلافاً من جنسيات مختلفة ، وبإزائها الفرقة بين الجنسيات أقبل عليها الأفريقيون ، وامتدت إلى جهات نائية فى الشرق فوصلت بلاد العرب والعراق وسيريلانكا وأرخبيل الملايو ، وكانت عدواً للاستعمار الأوروبى وحوربت لهذا وضيق عليها (راجع الدعوة إلى الإسلام ٢٧١ وما بعدها) ، وانظر الفصل الذى جاء عنها فى كتاب «الإسلام فى القرن العشرين» .

الفرعية نحو ١٢١ زاوية كانت تتلقى تعليمها من جغبوب[١] وامتدت زواياهم ونشاطهم فى شرق القارة وغربها ، ولا يقف فضلهم عند الدعوة إلى الإسلام ، وإدخال الوثنيين فيه ، بل لهم فضل كبير فى تصحيح عقائد الكثيرين ، وقطع شوائب الوثنية من بينهم ، وتعميق الفكرة الإسلامية وقد أسلم على أيديهم قبائل بأكملها ، كما أنهم اشتروا عدداً كبيراً من الأرقاء علموهم الإسلام والقراءة والكتابة ثم أعتقوهم ، فعادوا إلى بلادهم معلمين ودعاة إسلاميين ، وبث السنوسية حضارة لا تقاس بها حضارة الأوروبيين الذين جلبوا إلى غانا زراعة الكاكاو ، فبفضل دعاتها انقطعت عادة اغتيال الآدميين وأكل لحومهم ، وانقطع شرب الخمور وكانت عادة متفشية بالغة السخف ، وهى خمور مجلوبة من أروبا وجد المستعمرون فيها ربحاً ونشاطاً لمصانعهم التى تنتجها — ولم يعن المبشر المسيحى أن يقضى على هذه العادة ، لأن المسيحية لا تحرم الخمور ولأن الإرساليات المسيحية لا تريد محاربة بلادها ، وقد تكون الإرسالية التبشيرية قادمة مع حملة تجارية ، واستطاع السنوسيون أن ينشروا عادات مدنية مهذبة ، من الأمانة واحترام حقوق الآخرين وحسن الجوار ، والإحسان إلى أبناء السبيل ، وكانوا من قبل يؤكلون ! وظهر المسلمون فى ملابس محتشمة وشاعت بينهم عادات النظافة بسبب الوضوء والاغتسال ، وبوجه عام أنشأهم الإسلام إنشاء[٢] .

وليس للدعوة الإسلامية فى هذه الأقاليم كلها تاريخ مفصل ، والإلمام به شاق جداً إذ لا توجد له مراجع إلا ما كتب الأوروبيون الذين يكتبون تقارير لبلادهم عن الأقاليم التى يوفدون إليها أو يعملون بها ، وهذه تتحدث عن الإسلام عرضاً .

---

(١) هذا ماذكره توماس آرنولد ، ولكنها كانت أكثر ، إذ ذكر برتشارد فى كتابه « سنوسى برقة » أن لها زوايا فى ١٤٦ مدينة وقرية .

(٢) انظر فى الدعوة إلى الإسلام ص٣٧٣ وما بعدها تقريراً لبعض الرحالة عن أعمال هذه الجماعة وإصلاحاتها المدنية .

وجاء فى بعض التقارير الرسمية[1] عن بلاد المانجو شمال سيراليون أن المسلمين فتحوا بها مدارس لتعليم اللغة العربية والعقائد التى جاء بها محمد (ﷺ) وأنهم جرياً على قواعد دينهم منعوا بيع الأطفال بيع الرقيق ، واستأصلوا ما كان هناك من عادات سيئة ، وجلبوا إلى البلاد حضارة عظيمة ، وأقروا بها الاطمئنان والاتحاد ، فازداد السكان وانتقل النفوذ إلى أيديهم ، ويبدو أنه من الممكن أن ينتشر الدين الإسلامى فى أمن وسلام انتشاراً سليماً فيما حول مستعمرة الماندنجو حاملاً معه المزايا التى تقضى على خرافات الزنوج .

وجاء فى تقرير آخر عن مسلمى ماندى Mendi - جنوب سيراليون ، أن كل مسلم هناك داعية نشيط ، وإذا اجتمع فى مدينة نحو ستة أشخاص للإقامة سارعوا إلى بناء مسجد لنشر دعوة الإسلام ، وهم يحرمون على من يدخل الإسلام تناول أى مسكر ، ويقول سير آرنولد نقلا عن مراجعه أن المؤثرات الإسلامية تنتشر على ساحل غينيا بوجه خاص على أيدى تجار الحوصا ، وهم يبنون المساجد ويؤثرن على الوثنيين بسلوكهم القائم على الورع ، فدخلت الإسلام قبائل وثنية دون أى جهود سوى الرغبة من الوثنيين أن يقتدوا بهم فى حضارتهم .

وفى داهومى Dahomey وساحل الذهب يتقدم الإسلام كل يوم ، حتى أن الحكام الوثنيين الذين لم يدخلوا الإسلام يبيحون لأنفسهم فى حالات كثيرة أن يخضعوا لتأثير هذا الدين .

ولعل هذا يفسر لنا شكوى نيل من دخول خمسة من الوثنيين الإسلام كلما دخل واحد فى المسيحية ، ثم أنه واضح كل الوضوح أنه لا جبر ولا إكراه على قبول الإسلام ، لكن الأمر الذى لا محيد عن الاعتراف به هو قلة المعلومات عن الإسلام ، وهذا لقلة الدعاة المثقفين ولعدم معرفة اللغة العربية وإلى أن تقوم فى هذه الأرجاء مدارس لتعليم مبادىء الإسلام واللغة العربية يعلم الله وحده ما يصيب الإسلام والمسلمين .

---

(١) هو التقرير الذى طالب بحل شركة - سيراليون - طبعته الحكومة البريطانية سنة ١٨٠٢م انظر الدعوة إلى الإسلام ص ٣٧٥ وما بعدها .

وليست هذه الأعملال جميعاً راجعة إلى الحركة السنوسية – ولكن معظمها يرجع إليها عن طريق مباشر وغير مباشر ، وينظر المبشرون إلى مشيخة الطرق بوجه عام وإلى الحركة السنوسية بوجه خاص نظرة اشمئزاز وضيق ، إذ يرونها ألد الأعداء الذين يواجهونهم ، وجاء فى كتاب تاريخ التبشير للقس بلس Bless شكوى نقتطف منها هذه العبارات :

« إن الدين الإسلامى هو العقبة القائمة فى طريق التبشير فى أفريقية ، والمسلم فقط هو عدونا اللدود » .

« إن الخصم المعارض هو الشيخ أو الدرويش صاحب النفوذ فى أفريقية أكثر مما هو كذلك فى فارس، فالشيخ والدرويش يجوبان شواطىء البحر الأحمر والنيجر والمغرب ... ، ويبثان فى السكان ظهور المهدى ونشر الإسلام .

أما الشيخ السنوسى – العدو الألد للنفوذ الفرنسى والانجليزى – فله تقاليد أخرى[1] .

وتقاليد السنوسية تختلف حقاً كثيراً عن أعمال الدراويش، لأنها تقوم على تعليم وبث ثقافة ، ثم هى فى جملتها لون من الجهاد فى ميدانين فى وقت واحد، لأنها من جانب تدعو إلى تصحيح الفكرة الإسلامية ونفى الخرافات وشوائب الشرك عنها ، ومن جانب آخر تحث أتباعها على نشر الإسلام وتعليمه ، وتجعل ذلك كله فرضاً لابد من القيام به .

ويقول بلس تعليقاً على هذا كله : إن المغاربة لاتزال تُرَاودهم فكرة الجهاد ، وأن المعركة الكبرى بين أوروبا والإسلام ستكون فى غرب أفريقية أو شمالها ، ولا ينبغى أن نستدل على حقيقة هذه المعركة المرتقبة بالقتال الذى وقع فى السودان بين المهدى والانجليز .

ولعله يعنى أن معركة الانجليز والمهدى كانت سياسية لادينية ، ولكن

---

(١) انظر الغارة على العالم الإسلامى ص١٥ .

الباعث على الحركة أساساً كان دينياً ، وإن أفضاءه إلى السياسة كان بسب مايقرره الإسلام من أن الله لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا .

وعلى أى حال كانت حركة السنوسيين فى هدوئها وبعدها عن المعارك والسياسة أنفع للإسلام من أخواتها من الجماعات الأخرى ، وكانت طريقتها تمثل وسطية محمودة فليست على شاكلة مشايخ الطرق تعتمد على الخوارق والكرامات ، ولسيت دعوة سياسية تقوم على الجهاد المسلح .

وأثرها الحضارى كبير فى أفريقية ، فقد أنشأت مدارس وزوايا ، ولعلها أول من فتح مدارس للبنات فى أفريقية كلها ، وكانت مدارس عديدة ، من أهمها تلك المدارس التى أقاموها بين قبائل توبو Tobo فى شمال بحيرة تشاد ، فقد كانت الفتاة التى تعلمت فى هذه المدارس مرموقة المكانة تتمتع بنفوذ فى محيطها ولها تأثير على من يتصلن بها من الأفريقيات والبربر ، وكان خريجات هذه المدارس يمتزن بمشاعر دينية عميقة ويبذلن جهداً لإدخال الأفريقيات الإسلام .

وهذه ولا ريب من حسنات السنوسية الكبرى .

٥ - حركة المهدى فى السودان :

مهدى السودان اسمه محمد أحمد ، ولقب المهدى غلب عليه من دعوته إلى هداية الناس للقرآن ، وينتسب إلى الحسن بن على - حفيد رسول الله - ﷺ - ، ويقال أن أجداده الأقربين كانوا بمصر وانتقلوا إلى بلاد النوبة ثم إلى دنقلة . وكان عبد الله والد المهدى هو الذى انتقل إلى الخرطوم ، وكان من صناع السفن ، ومات فى قرية كررى بأم درمان - ومن المصادفات أن ابنه جمع اسمى رسول الله (ﷺ) - محمد وأحمد - وأن أمه كانت تسمى آمنة[1] ، وأنه فقد والديه صغيراً . وقد أخذ نفسه وهو صغير بالدراسة التى كانت سائدة فى بلده فحفظ القرآن ودرس شيئاً من الفقه والتاريخ ، ولكن الذى تميز به هو شدة نسكه وعبادته ، وعزوفه عن كل أنواع اللهو ، ويبدو أنه عرف بذلك

---

(١) ويقال كانت تسمى زينب (الأصول الفكرية لحركة المهدى /١٧) .

فى بلاده قبل أن يخوض حروبه السياسية ، ثم كان لقاؤه مع الشيخ عبد الله التعايشى فكان من أكبر مشجعيه على نشر دعوته باسم المهدى المنتظر ، ويقال أنه فى أول دعوته قال أنه الإمام الثانى عشر الذى ينتظره الشيعة .

وتاريخ المهدى السياسى وحروبه من الأحداث المعروفة التى لا داعى لإعادتها[1] والذى يعنينا هو موقف المهديين من التبشير ، وليس لهم حملات ولا إرساليات إلى جنوب السودان ، وليس لهم باسمهم معاهد أو مدارس دينية خاصة ، ويرجع ذلك إلى أن المهدى الكبير مات سنة ١٨٨٥ ، ولم يكن قد فرغ من حروبه وجهاده ووقعت البلاد تحت سيطرة الانجليز وخضع التعليم لسياستهم ، وانضم إلى المهدية جماعات من الجنوب ودخل بسببهم كثير من الوثنيين الإسلام ، وآثروه دون دراسة ، ولكنه مجرد تقليد ، وأثره على أى حال أنه بغضهم فى المبشرين ، وحال بينهم وبين التنصير ، وجمع حوله جمهوراً كبيراً من المسلمين وجههم للعبادة والإخلاص للإسلام .

وكان فى سيرة السيد ٪ محمد أحمد المهدى ، وسلوكه الخاص فضلاً عن قوة شخصيته ما يحمل على التعلق به وحبه .

امتاز منذ صغره بالورع الشديد والترفع عن حطام الدنيا ، -أنكر على شيخه « الشيخ محمد الخير » أن يتقاضى راتباً من الحكومة ، لأنها فى نظر المهدى حكومة ظالمة ، ومالها حرام ، فكان وهو تلميذ عند هذا الشيخ يأكل مما يأتيه من إخوته ، ولا يأكل ما يأتيه وحده ، بل يتصدق بمعظمه وربما كله ، ويخرج هو إلى الغابة فيحتطب ويقطع الأشجار ، ثم يحملها إلى السوق فيبيعها ويأكل من ثمنها ويتصدق ، ويروى عنه أكثر من ذلك أنه كان يصيد السمك من النيل فيتورع أن يضع له الطعم فى الشص حتى لا يقوم صيده على خديعة ، ولا ندرى الطريقة التى كان يصطاد بها ، واغتيال السمك وخديعته سواء ، ويبدو أن كتب المناقب تضيف إلى أصحابها كثيراً . وكان يعمل عند أستاذه

(١) انظر فى هذا الأصول الفكرية لحركة المهدى .

هذا - مع جارية وعبد له - فى حرث أرضه وسقيها ليكون ما يأكله من مزرعة أستاذه حلالاً .

وأنكر على أستاذه أن يقيم فى حفل لختان أولاده غناء ورقصا ، كما لم يرض ذلك لنفسه عندما تزوج .

أما بداية لقب المهدى فرجع إلى أن أحد شيوخه وهو الشيخ القرشى -وكان من العلماء وشيوخ الطرق وله أتباع كثر ، وكان مسناً جاوز التسعين- قال لأتباعه مرة إن زمن المهدى المنتظر قد أظل ، وأن علامته أن يبنى على ضريحه قبة ويختن أولاده ، فلما مات كان محمد أحمد المهدى هو الذى قام بهذا العمل ، وقدم عليه أثناء بنائه القبة الشيخ عبد الله التعايشى من قبيلة التعايشة ويسمون البقارة وقال إنه جاء لأخذ الطريقة عليه وقال إن أباه قال له إنك ستقابل المهدى المنتظر .

وهكذا تضافرت عوامل أخرى حتى سنة ١٨٨١م إذ أعلن محمد أحمد أنه المهدى المنتظر الذى سيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جورا ، وقال : « أخبرنى سيد الوجود محمد - ﷺ - بأن من شك فى مهديتى فقد كفر بالله ورسوله . كررها لى ثلاث مرات » يقظة فى حال الصحة[1] وقبل شهوده قوله واشتهر أمره فجاءته الوفود من كل أنحاء السودان يبايعونه ، وكانت صيغة بيعته كالتى جاءت فى الحديث : بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم .. إلخ » .

واكتسبت دعوة المهدى الدينية قوة بسبب زعامته السياسية والحربية . وهو لم يتجه بجيشه نحو الجنوب بل اتجه إلى مصر ، لهذا كانت جهوده التبشيرية فى أفريقية من طريق غير مباشر ، ثم بعد انكسار جيشه وموته ظلت دعوته تمتد ، وكل ما يؤخذ عليها أنها كانت مليئة بالخرافات . وأنها خلعت عليه صفات الألوهية والنبوة ، ومن يقرأ « منشورات المهدية يجد بها أمثلة كثيرة لهذا ، ومنها :

---

(١) الأصول الفكرية لحركة المهدى السودانى / ١٣٤ ، ١٣٨ .

« تفضل (الله) على عبده .. بالخلافة الكبرى من الله ورسوله ، وأخبرنى سيد الوجود (ﷺ) بأنى المهدى المنتظر ، وخلفنى - عليه الصلاة والسلام - بالجلوس على كرسيه مراراً بحضرة الخلفاء الأربعة ، والأقطاب ، والخضر عليه السلام ، وأيدنى تعالى بالملائكة المقربين وبالأولياء - الأحياء والميتين - من لدن آدم إلى زماننا هذا ، وكذلك المؤمنين (كذا) من الجن والإنس ، وفى ساحة الحرب يحضر معهم سيد الوجود - ﷺ - بذاته الكريمة وكذلك الخلفاء الأربعة ، والأقطاب ، والخضر - عليه السلام - وأعطانى سيف النصر من حضرته ، - ﷺ - وأعلمت أنه لا ينصر على معه أحد ، ولو كان الثقلين - الجن والإنس ، ثم أخبرنى سيد الوجود - ﷺ - بأن الله جعل على المهدية علامة وهى الخال على خدى الأيمن ، وكذلك جعل لى علامة أخرى .... تخرج راية من نور وتكون معى فى حالة الحرب ، يحملها عزرائيل - عليه السلام - فيثبت بها أصحابى ، وينزل الرعب فى قلوب أعدائى فلا يلقا نى أحد بعداوة إلا خذله الله »[١] .

ومنشورات المهدية مليئة بهذا ، ويبدو أن هذه الأفكار تسربت إلى ذهن المهدى من كتب الصوفية وعلى الأخص محيى الدين بن عربى ، وتوسع الشيعة فى هذا الباب ، وقد أخذ مهدى السودان عنهم كثيراً ، وأعلن أول أمره أنه الإمام الثانى عشر[٢] .

والذى يعنينا من أمره هو دعوته للإسلام ومدى انتشار الإسلام بها .

وقد كانت لهذه الحركة أثر سياسى كبير ، واهتمت بها انجلترا أكثر ، وقد رأينا قبل كيف ذهب بعض الانجليز إلى أحمد عرابى - فى سيلان - ليسأله عن هذه الحركة ، وحقاً دخل بها كثير من الأفريقيين الإسلام ، وكان لها صدى فى المستعمرات الانجليزية خصوصاً بعد أن هزم المهدى وجيشه الانجليز ، وقتلوا

---

(١) المصدر السابق /١٣٣ - ٤ .

(٢) الإسلام فى القرن العشرين ١٣٩ .

القائد « هكس » - وكان هذا القائد قد أوفد من بريطانيا فى جيش كثيف ليقضى على المهدى . فقضى المهدى عليه وعلى جيشه . هذا ما جعل المستعمرات الانجليزية تطمع أن تتخلص منهم كما فعل المهدى ، وهو قد تخلص بدوافع الإسلام وقوانينه، فرغب هؤلاء فى الإسلام ليتخصوا مثله من المستعمرين.

بهذا نجد أن الدعوة المهدية نشرت الإسلام بطريقين - طريق سياسى ، وطريق روحانى هو الذى أخذ به الأفريقيون ، ومظاهره هي الكرامات ورؤية رسول الله والأخذ عنه .

وبعد هزيمة المهدى رأى المستعمرون أن يستكثروا من إرساليات التبشير ومن إنشاء الكنائس المختلفة .

٦ - حركة أحمد القُرين :

كان أحمد القرين - وهذا اسم اختاره لنفسه بعد أن أسلم - ابنا لقسيس فى مقاطعة أَيْجُو Aijo ، وقد اتصل بالمسلمين وسمع بعض دعاتهم فى مقاطعة « عدل » فدخل الإسلام مقتنعاً به متحمساً لدعوته وكان حب السيادة والقيادة فى دمه فقد صار أميراً لهذه المقاطعة ، وتاريخه غامض ، ولكن أكبر الظن أن نفوره من المسيحية واعتناقه الإسلام وتحمسه له أمور ترجع إلى طبيعته أكثر مما ترجع إلى دعاة الإسلام ، ولما قام بثورته انضمت إليه قبائل وجماعات كانت ضائقة بحكم المسيحية الذى أثقلها بالجزية وضايقها فى عبادتها . وكانت هناك قبائل مسلمة تمتد أراضيها شمال الحبشة من البحر الأحمر حتى سنار ، وقبائل أخرى فى الجنوب والجنوب الشرقى للحبشة ، أى أن الدولة كانت محاطة بالمسلمين فى معظم جوانبها ، ولكنهم كانوا جميعاً فى حالة ضعف ، وليس لهم استقلال ولا جيش فرضخوا لأوامر الملوك ودفعوا الجزية لهم صاغرين . فلما قام أحمد القرين بثورته انضموا إليه فشنَّ حرباً على الحبشة حرباً استمرت من سنة ١٥٢٨ حتى سنة ١٥٤٣م وظفر بانتصارات جعلت الكثيرين ينضمون إليه . انضم إليه المسلمون الذين ذكرنا وانضم إليه زعماء وثنيون فأسلم معهم

أتباعهم ، وانضم إليه مسيحيون أسلموا وآخرون دفعوا له الجزية ، وتخوفه بعض آخرون فأسلموا ليظفروا بالمساواة مع قومه ، وهكذا ظفر الإسلام فى هذه الحركة بأعداد كثيرة ، وانتهز الذين أجبروا على ترك الإسلام وتظاهروا بالمسيحية هذه الحركة فرجعوا إلى الجهر بإسلامهم . وبلغ عدد المسلمين المستجدين نحو عشرين ألفاً ، وهو عدد غير قليل ، ولكن مالا ريب فيه أنهم قبلوا الإسلام لأسباب عديدة ليس من بينها درس أصوله وفهم فلسفته ، وهذا ظاهر جداً .

وأثارت هذه الحركة البرتغاليين الذين كانوا يرغبون فى تملك هذه البلاد ، فانضموا إلى الحبشة وانتصروا على القرين وأتباعه فقتل فى سنة ١٥٤٣م . وقد كانت ثورته خليقة أن تحول البلاد إلى إقليم مسلم ، وكان هو خليقاً بالانتصار لولا تدخل البرتغاليين .

٧ - موقف المسيحية من مصرع القرين :

لم تستفد المسيحية من مصرع القرين إلا استراحة من عدو زاحف ، ولكنها فيما بينها كانت تعانى نزاعاً وجهلاً واختلافاً بين دعاتها ومذاهبها ، فشغلها صراعها الداخلى عن مقاومة التيار الإسلامى ، كانت هناك إرساليات تبشيرية من مذاهب مختلفة كل إرسالية تضارب الأخرى ، وكان البرتغاليون قد مدوا أصابعهم إلى مرافق الحياة ديناً وسياسة واقتصادا - فضايقوا الناس ، وولدوا فى نفوسهم حب المقاومة لكل أجنبى حتى ولو كان مسيحياً . وأدى هذا الشعور من جانب آخر إلى حب الإسلام والدخول فيه ، وكان مما حببه إلى الناس أنه ليس خصماً لهم ولكن للمستعمر الأوروبى .

وخرج البرتغاليون أو أخرجوا قبل منتصف القرن السابع عشر أو حوالى سنة ١٦٣٢م ، وشملت البلاد فوضى واضطرابات أطمعت فيها الأعداء ، فاحتل بعض من قبائل الجلا Galla . أراضى منها ظلوا فيها حتى الآن وهم مسلمون أو كانوا مسلمين .

وحيث كانت حكومة البلاد تعانى الضعف استقل رؤساء العشائر وجنحوا إلى الإسلام أو على الأقل عاملوا أبناءه بشيء من العطف ، وبذا ظل للإسلام تفوق على المسيحية ، وقدر عددهم فى ذلك الوقت بثلث سكان البلاد ، والثلثان الآخران أكثرهم مسيحيون وفيهم قلة من الوثنيين .

وكان من قوانين الحبشة ألا يتولى عرشها ولا رياسة إماراتها إلا المسيحيون ، وهذا مما جعل المسلمين دائماً تحت سيادة المسيحيين ، ولكن كثيرين من كبار العشائر المسلمين انقلبوا مسيحيين نفاقاً فلما تبوأوا مناصبهم استخدموا نفوذهم فى تعضيد الإسلام ومساعدة دعاته وبنيه من طريق مباشر ، وغير مباشر ، وهكذا ظل المسلمون متفوقين فى كل بقاع الحبشة ، وكان تفوقهم الأكبر والأهم فى رقيهم الأدبى ، والأخلاق الإسلامية المهذبة وحسن النظام والنظافة ... كل ذلك مما دعا إلى الاقتداء بهم وحب الإسلام من أجلهم .

وفى القرن العشرين أدرك المسلمين الكسل وتغلبت عليهم القوى الحاكمة فمازال الإسلام يضعف ويستكين فى الحبشة حتى أصبح محرماً نهائياً .

ترى هل يدرك الإسلام فى الحبشة ماأدركه فى أسبانيا ؟

يعلم الله وحـــده مستقبل العباد .

***

الفصل الثالث

فى

أوروبــــــــــا

أولاً : غرب أوروبـــا

١ - لمحـــة تاريخيـــة :

احتك المسلمون بالدولة الرومانية منذ عهد رسول الله (ﷺ) وذلك فى موقعتى مؤتة وتبوك ، ثم استمرت الحروب بين المسلمين وهذه الدولة الكبرى فى ممتلكاتها الشرقية ، فانتزعوا منها أهم الأقطار التى كانت تعتمد عليها فى تموينها .

ومنذ عهد الخليفة عثمان بدأ غزو المسلمين البحرى ، إذ غزا معاوية جزيرة قبرص ، ونقل إليها جماعة من بعلبك وبنى بها مدينة ، وبعث إليها باثنى عشر ألفاً فبنوا بها المساجد وعلموا اللغة العربية والقرآن ، وأقام المسلمون فيما فتحوه من الجزيرة يعطون الأعطيات ، فلما كان عهد ابنه يزيد أقفل هذا البعث ، وهدم أهل الجزيرة المدينة والمساجد[١] .

وفى عهد معاوية غُزِىَ عدد من جزر البحر المتوسط ، وشنت حملات على بلاد الأناضول ، وأرسلت حملة لفتح القسطنطينية ، وتوالت عليها حملات فى عهد خلفائه الأمويين وكان أشد ما غزيت به على يد مسلمة بن عبد الملك فى عهد أخيه سليمان[٢] .

ودخل المسلمون أسبانيا قبل نهاية القرن الأول الهجرى ، ثم دخلوا صقلية وجنوب إيطاليا ، وأعادوا فتح الجزر التى فى البحر الأبيض وحولوها جزراً إسلامية ، ثم فتح السلطان التركى القسطنطينية وتوغل فى جنوب القارة ، فهذه هى الجوانب الثلاثة التى تلاقى فيها الإسلام والمسيحية فى القارة الأوروبية .

---

(١) كان ذلك سنة ٣٥هـ أو ٣٣ - ويقال أن يزيد أعطى رشوة على ذلك من الروم ، انظر فتوح البلدان / ١٥٨ - ٩ .

(٢) نفســه ٢٣٧ .

٢ – المسلمون فى أسبانيا :

فى سنة ٩٢هـ (٧١١م) غزا طارق بن زياد أرض أسبانيا بجيش كله من البربر وبه أفراد من العرب ، ثم تتابعت الهجرة إلى تلك البلاد ، فكانت أولاً ولاية أموية ، ثم حكومة مستقلة ، ثم تقسمت دولاً وطوائف مستقلة ، وهانت أمام أعدائها حتى كانت نهايتها بخروج بنى الأحمر من غرناطة آخر معاقلها سنة ٨٩٧هـ ١٤٩٢م .

وكان المسلمون قوة مرهوبة الجانب طوال ماكانوا مستقيمين على الإسلام ولهم وحدة ، ثم تقسموا ودب فيهم الضعف واستشرى ، ثم سقطت إماراتهم تباعاً فى أيدى أعدائهم بسبب تفرقهم وانقسامهم .

وأبعد ذبذبة للفتح العربى كانت محاولاتهم اقتحام جبال البرانس ودخول بلاد الغال (فرنسا) وقد أبدى آخر قواد معاركها عبد الرحمن الغافقى شجاعة وإقداماً فى محاولته ، ولكنه لقى حتفه فى موقعة بلاط الشهداء ، بين مدينتى تور وبواتيه سنة ٧٣٢م ، وانسحب الجيش الإسلامى ولم يعاود هذه المحاولة بعد .

وكان خصم المسلمين وقائد جيش عدوهم هو شارل مارتل (المطرقة)[1] فاكتسب بهذا النصر شهرة واسعة ، واعتبره الأوروبيون حظاً سعيداً وعَدُّوا هذا اليوم عيداً بهيجاً ، ولم ينقطع العرب بعد ذلك نهائياً عن هجومهم على البلاد الأوروبية ولكنها كانت محاولات خاطفة لم تؤدّ إلى استقرارهم فى فرنسا ولا إيطاليا إلا قليلاً .

اتجه العرب بعد ذلك إلى نشاط حسى وإصلاحات داخلية ، حتى جاء عبد الرحمن الداخل وحفيده الناصر فبلغوا بالبلاد الأسبانية أسمى ماكان من التمدن والتفوق العلمى فى ذلك العصر ، ولم تنقطع حملات المسلمين على أوروبا بعد موقعة بواتيه .

---

(١) انظر حتى /٦٨٢ ، ولوبون / ٢٧٣ .

٣ - حضـارة الإسـلام فى أسـبانيا :

رفع المسلمون أسبانيا من حضيض التخلف الحضارى والاجتماعى فى كل جوانب الحياة إلى أعلى مستوى وصلت إليه حضارة تلك القرون ، فكان فى العالم كله ثلاث عواصم ذات حضارة متميزة وهى بغداد وقرطبة والقسطنطينية ، ويكفى أن يجعل المسلمون مستوى الحياة فى عاصمتهم «قرطبة» وأيضاً «الزهراء» أرقى من مستوى الحياة فى عاصمة الدولة الرومانية وكانت قرطبة تمتاز عن القسطنطينية بمركزها الثقافى فكان بها سبعون داراً عامة للكتب عدا المكتبات الخاصة وحوانيت الكتب ، وكان بها مساجد اختلف فى عددها وبلغ بها بعض المؤرخين ثلاثة آلاف ، وبالمساجد - الكبيرة على الأقل - مكتبات عامة أيضاً .

وكانت أبنيتها من طراز ممتاز يستهوى السائحين ، فكان قصر الخليفة فى مدينة الزهراء يحوى أربعمائة حجرة وجناح[١] ، وله حديقة نادرة وفيها البركة المشهورة التى تعد من عجائب الدنيا[٢] ، وكما يقول جوستاف لوبون كانت قرطبة طوال ثلاثة قرون أرقى مدن العالم القديم[٣] وكان بها طرق تمتد إلى أميال طويلة كلها مرصوفة ومضاءة ، ولم يكن فى أى عاصمة أوروبية مثلها .

وأدخل المسلمون نظاماً جديداً ورواجاً فى التجارة والصناعة والزراعة فباتت البلاد تنعم بثراء وتقدم علمى واجتماعى فى جميع مظاهر الحياة .

التقـدم العلمى :

هذا الجانب الحضارى أهم مايعنينا فى هذا الحديث ، وهو لا يسجل فضل المسلمين على أسبانيا وحدها بل على أوروبا كلها ، وغير أوروبا أيضاً .

---

(١) انظر حتى / ٦٨٠ .

(٢) يأتى وصفها فى كتب الأدب أنه كان فى وسطها أسد يمج الماء فى تلك البركة من فيه وأنه كان دقيق الصنعة عظيم الروعة لم يشاهد الملوك أبهى منه فيما خلف الأولون .

(٣) حضارة العرب ٢٧٣ .

وكان عهد عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم قمة ما وصلت إليه هذه النهضة العلمية فهما استقدما العلماء من الشرق ، وبعثا الرسل والنساخ لنقل الكتب إلى عاصمتهم ، وأغدقا العطايا والمكافآت للعلماء ، وكان جامع قرطبة الكبير جامعة تدرس فيها العلوم المختلفة وكان الطلاب مسلمين ومسيحيين يفدون للتعلم فى هذه الجامعات من أنحاء مختلفة من أوروبا من فرنسا وألمانيا وانجلترا ومن أفريقية وآسيا .

وقدرت الكتب التى كانت فى مكتبة الحكم وحده فى قرطبة بنحو (٤٠٠,٠٠٠) أربعمائة ألف كتاب ، وكان الفهرس الذى يحوى دواوين الشعراء مكوناً من ٤٤ مجلداً بكل مجلد عشرون صفحة .

وكان هناك عدد من الجامعات - عدا جامعة قرطبة - تدرس الفلك والرياضيات والكيمياء (الحيل)[١] - وكانت الفلسفة تدرس أيضاً قبل مجىء دكتاتورية بنى عامر - وظلت بقية العلوم الأخرى ، وكان تقدم الطب ملحوظاً .

٤ - حـــرية الـــدين :

على عادة المسلمين فى كل بلد نزلوه كفلوا حرية الدين وتركوا للنصارى كنائسهم وأديرتهم ، كما تركوا لليهود معابدهم ، وكان الأساقفة يعقدون مؤتمراتهم الدينية حتى فى قرطبة مقر الخليفة وعاصمة أسبانيا الإسلامية ، وقد بنوا عدداً كبيراً من الكنائس أيام حكم المسلمين ، وهذا من الأدلة الواضحة على تسامح المسلمين[٢] وكانت هى البلد الأوروبى الوحيد الذى يتمتع فيه اليهود بحماية الدولة ورعايتها وهذا سر كثرة اليهود فى أسبانيا فى ذلك الوقت[٣] .

---

(١) انظر لوبون / ٢٧٤ - والفصل كله - « حضارة العرب فى أسبانيا » قيم يستحق المراجعة والدرس .

(٢) انظر لوبون / ٢٧٦ - ٧ .

(٣) نفســه .

وقد هذب المسلمون طباع الشعب الأسبانى الخشنة ، وعلموه فى بطء شديد كثيراً من التسامح الذى لم يكن يعرفه ، بل كانت الغلظة والشدة والتعصب المتغالى أبرز صفاته ، وقد ظلت هذه باقية فى رجال الدين المسيحى الذين جنوا على بلادهم وعلى أوروبا كلها أشنع جناية بسوء معاملة المسلمين بعد أن دالت دولتهم ووقعوا تحت حكم المسيحيين .

وأرجع جوستاف لوبون هذه الخصال العربية الكريمة إلى صفات المروسية العربية[١] كما أرجع إليها أكثر مما أرجع إلى الدين صفة التسامح التى قال أنها أثمن ما يتصف به الإنسان ، وقد وازن بين ما فعله القائد العربى حين حاصر طليطلة فى سنة ١١٣٩م فاستعطفته ملكتها النصرانية قائلة أنه لا يليق ببطل شهم كريم أن يحاصر امرأة ، فرجع عن حربها من فوره ، وبين أحداث وقعت من « البطل المتحدى »[٢] ، ومن ملك غرناطة المدعو بطره (بطرس) .

فالبطل المتحدى الذى لقبه العرب بالسيد Cidy The Chaling لم يكن إلا رئيس عصابة وضع نفسه تحت المزايدة جندياً مرتزقاً —وقد شوى حاكم بلنسية على النار ، لأنه ظن أنه يخفى عنه كنوزا فى القصر[٣] ، وكان قد قطع لبلنسية

---

(١) صفات الفروسية فى هذا الوقت تعادل صفات النجدة والشهامة العربية ، نقلها العرب إلى أوروبا ولخصت إذ ذاك فى عشر صفات عامة هى : الصلاح والكرامة ورقة الشمائل والفصاحة والقريحة الشعرية ، والقوة البدنية والمهارة فى ركوب الخيل واستعمال آلات الحرب التى كانت سائدة ، ونقل الأوروبيون لقب الفروسية حتى كان من الألقاب التى تمنح من الملك لقب فارس Knight ولكن كانت لهم صفات أخرى منها الغدر والخيانة والوصول إلى الغرض بأى وجه . مما يوضح أن تمدن المسلمين يرجع إلى الإسلام .

(٢) البطل المتحدى ، أو السيد المنازل —هو « رودريك الفيفارى » قشتالى محارب مرتزق مع النصارى ومع المسلمين أيضاً ، ومن بطولاته أنه رد الموحدين من دخول بلنسية فاعتبر ذلك مجداً تغنى به شعراء عصره ، ويحفظ الشعر الأسبانى القديم روائع قيلت فيه ، وكما يقول (سيد يو) أنهم جعلوه يمثّل أبطال الألياذة والأوديسة —أنصاف الآلهة اليونانية ، ويصفه هو بأنه كان رئيس عصابة جشعاً حقوداً ، شديد الجلافة مستخفا بالقيم الأخلاقية .

(٣) سيأتى حديثه .

وساغونته عهد أمان لم يرع منه شيئاً بل عذب الأسرى ، وحرق بعضهم وأطعم آخرين الكلاب . ونقل عن المؤرخ الثبت سيد يو تأكيده تفوق العرب على الأوربيون فى الأخلاق ، وأن ملوك قشتالة – وبيرة كانوا يعرفون فيهم صفاتهم الحميدة فكانوا يذهبون إلى قرطبة ليقابلوا أطباءها ويحصلون منهم على الدواء .

وليس من همنا هنا أن نفيض فى المدنيات التى نقلها العرب إلى أسبانيا واستفادت منها أوروبا كلها ، وحسبنا هذه اللمحة لنذكر فى موازاتها لمحة موجزة أيضاً مما عمل أعداؤهم .

ونسجل قبل المضى فى هذا العرض أن فتوحات المسلمين هذه لم تكن تتسم بسمات عسكرية ولا أطماع مادية وأنهم أعطوا البلاد كثيراً جداً من التقدم المادى والعلمى والاجتماعى والأخلاق ، وأن الذين دخلوا الإسلام من مسيحيى أسبانيا أو يهودها لم يدخلوه تحت رهبة أو إكراه وأن روح التسامح والإخاء الإنسانى كانت بادية فى كل أعمالهم ، ولا نستطيع أن نجارى لوبون فى ردها إلى نظام الفروسية ، لأن العرب فى حروبهم الجاهلية لم يكونوا يتسمون بهذه الصفات ، ولهم حرب معروفة باسم حرب الفجار ، استباحوا القتال فيها أثناء الأشهر الحرم .

٥ – بداية التراجع الإسـلامى :

كانت آخر ذبذبة لمد الفتوحات الإسلامية فى أوروبا هى موقعة تولوز ، ولكن المسلمين ظلوا بعدها فى قوة حتى القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى ، إذ غلب عليهم طابعهم العربى والجاهلى ، وعملوا لأنفسهم أكثر مما عملوا لأمتهم ، فتقسمت أسبانيا إلى عدد من الدويلات ، فدب فيها الضعف بينما بدأت فى خصومهم بوادر الوحدة والقوة .

وكان أول اتحاد بين قشتالة وليون على يد فرديناند الأول وابنه الفونسو السادس ، فتكونت دولة موحدة ذات قوة ، وتلقب الفونسو بلقب

الامبراطور ، وجاء بعده الفونسو السابع فتسمى بملك الديانتين –المسيحية والإسلامية– خديعة للمسلمين ، ومنذ عهد هذا الإمبراطور بدأ تنصير المسلمين ، وطمس اللغة العربية .

وفى القرن الخامس عشر بدأت الحركة الكبرى ، إذ تزوج الملك فرديناند صاحب أراجون من الملكة إيزابيلا صاحبة قشتالة ، وبذلك اتحد التاجان اتحاداً أبدياً ، ثم ظلت مملكتهما تتسع وتتداح حتى أخرجت آخر أمير مسلم سنة ١٤٩٢ ، وهو العام الذى أبحر فيه كولومب إلى أمريكا –وكانت رحلة كولومب ذات دافع دينى إذ كان مبحراً إلى الهند بهدف حصار المسلمين هناك بين مسيحيى الحبشة من الغرب والذين يهاجرون معه من الشرق .

ظل فرديناند يستولى على معاقل المسلمين الكبرى طليطلة فقشتالة فقرطبة... وبقيت غرناطة تحت أمرة بنى الأحمر ، وهم أسرة متنازعة بعضهم لبعض عدو ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، فكانوا باختلافهم عوناً لأعدائهم ، على أن اختلاف المسلمين فى الأقطار الشرقية كان عاملاً آخر فى تعجيل سقوط أسبانيا– فقد استغاث بهم الأسبان فى أفريقية ومصر وسوريا ، وبالملك العثمانى بايزيد فكان لكل منهم شأن يغنيه ، وكان كل قطر يتخوف جاره ويتربص به ، فاضطرت غرناطة آخر معقل إسلامى إلى الاستسلام سنة ٨٩٧هـ (ديسمبر ١٤٩١م) –وبذا طويت صفحة من تاريخ الإسلام فى تلك البلاد .

٦ - محنة الإسلام العظمى :

فى اليوم الثانى من يناير ١٤٩٢ دخل صاحبا الجلالة الكاثوليكية غرناطة ، ورفع الصليب على الشرفات العليا فى المدينة ، وأصبحت أسبانيا كلها مملكة كاثوليكية ، وأزيل عنها اسم الإسلام وكل شاراته ، وبقى المسلمون المساكين فى حماية المسيحية ، ومرت سبعة أعوام وهم فى حرمان من غذائهم الدينى ، ولايمارسون طقوسهم إلا بمشقة ، وفى سنة ١٤٩٩ ، قاد الكاردينال شمينيه حملة اضطهاد عنيفة تحمل المسلمين على ترك دينهم واعتناق النصرانية ورأى

أن يبدأ حملته بإحراق الكتب الإسلامية حتى لا يقرأها المسلمون ، فأحرقت ، ثم بدأت محكمة التفتيش أعمالها الوحشية ، فكانت تعاقب كل من بدا عليه مظهر إسلامى . وسموا المسلمين «الموريسكو» أى المسلمين الصغار ، وحرموا اللغة العربية ، وكان هذا العمل شاقاً على المسلمين واضطروا من أجله إلى النفاق ، فتكلموا اللغة العربية فيما بينهم سراً ، واتخذوا لهم أسماء عربية غير الأسماء الرسمية المسيحية أو الأوروبية ، وعملوا على إخفاء كتبهم فكانوا يضعونها بين جدارين فى بيوتهم ، ولا زال يكشف إلى الآن عن مخطوطات دفينة بين الجدران القديمة ، وأعلنوا المسيحية ديناً لهم وأبطنوا الإسلام ، وكانوا يعقدون عقود زواجهم فى الكنيسة ثم يرجعون ليعقدوا عقوداً إسلامية .

وكانت حركة التنصير هذه تشتد عاماً بعد عام . ففى مستهل القرن السادس عشر صدر قرار ملكى بارتداد المسلمين فى قشتالة وليون عن دينهم إلى النصرانية أو الجلاء عن البلاد ، ثم بعد مدة وجيزة صدر قرار مثله فى أراجون ، ثم أصدر فيليب الثانى سنة ١٥٥٦م قراراً أجرأ وأوسع دائرة ، قضى فيه أن يهجر المسلمون لغتهم وعاداتهم ، وأفتى بعض القسس بأن المسلمين نجس حتى حمّاماتهم وأبنيتهم ، وهدمت الحمامات فعلاً ، وكان هذا عملاً سيئاً جداً على البلاد .

وفى سنة ١٦٠٩م أصدر فيليب الثالث أمراً بطرد المسلمين من البلاد نهائياً ، فقد عاش المسلمون إذن قرناً وبعض القرن فى هوان ومعاناة ثم طردوا .

وقد لاقوا كثيراً من أعمال الوحشية ، فبينما هم يهمون بمغادرة البلاد يكمن لهم فى الطريق كمين ينقض عليهم ليبيدهم ، وقضت محاكم التفتيش بإحراق كثير من المسلمين الذين تنصروا لاتهامهم بالنفاق ، وقال كردينال طليطلة إن كانوا قد أخلصوا فى نصرانيتهم فسيدخلون الجنة ، وإن كانوا قد نافقوا فهم أهل للإحراق ، وكان هذا الكاردينال رئيس محاكم التفتيش فقضى بقطع رقاب الذين لا يتنصرون من العرب رجالاً ونساء وشيوخاً وولداناً ، وتفضل الراهب الدومينكى «بليدا» فأشار بضرب رقاب العرب جميعاً ، وأيده

رجال الاكليروس فى رأيه ولكن الحكومة لم تأخذ به خوفاً من الثورة ، وفى سنة ١٦١٠م أمروا بالجلاء فقتل أكثرهم فى الطريق ، وبارك بليدا هذا العمل ، – وأعمال الاضطهاد والقتل والتعذيب التى عملوها مما تقشعر له الأبدان[١] .

وقد أبدى جوستاف لوبون أسفه البالغ لما أصاب أسبانيا بعد أن خسرت مليون مسلم من رعاياها فى بضعة شهور ، وذكر أن مذبحة بارتلمى الفظيعة[٢] لا تعد شيئاً بجانب المذابح الكثيرة التى حدثت إذ ذاك ، وأن عدد المسلمين الذين خسرتهم البلاد يبلغ ثلاثة ملايين وكانوا أئمة البلاد فى مظاهر حضارتها .

عادت أسبانيا بعد خروج المسلمين تغط فى ظلام الجهل والتأخر ، وظلت متعصبة للكاثوليكية حتى القرن العشرين ، ومنذ سنوات نالها شىء من التسامح فسمحت بالمذاهب الأخرى ، وأذنت بإقامة مركز إسلامى .

كانت هذه الاضطهادات غريبة وعجيبة فى حينها ولكن تلتها اضطهادات أخرى فى أقطار متباعدة ، وقد مر بنا ما يصيب المسلمين فى جنوب أفريقية وفى بلغاريا والصين وما يعانيه الآن مسلمو الفلبين .

٧ – حصاد هذا التعصب :

إذا رجعنا إلى الوراء ثمانية قرون لنقدر نتائج دخول العرب أسبانيا ، وما أفاده كل من العرب والأوروبيون ، وجدنا أن الأوروبيون استفادوا من دخول العرب ودخول الإسلام بلادهم أكثر مما استفاد المسلمون منهم، وأن أوروبا جنت من المسلمين حضارة وعلماً ورقياً اجتماعياً ،وأن آثار العرب مثلت خطوة إيجابية واسعة فى تاريخ الأوروبيين ، والآن خسرت أسبانيا وخسرت

(١) راجع معلومات أوسع عن هذا فيما كتبه الدكتور عبد العزيز الشناوى فى كتابه « الدولة العثمانية » جـ١/٩٥ – وكتابه « أوروبا فى مطلع العصور الحديثة (٥٧٨ – ٥٨٠)- وتاريخ العرب المطول لفيليب حتى – ٧١١ وما بعدها- وجوستاف لوبون (حضارة العرب) .

(٢) كانت مذبحة كنيسة سان بارتلمى بسبب الخلافات بين الكاثوليك والبروتستانت ، وقد ذبح المجتمعون فى الكنيسة حتى كانت دماؤهم تسيل من تحت أبوابها إلى الشوارع .

أوروبا كلها خسارة فادحة بطرد المسلمين من بلادهم ، وكما قال جيبون لو نجح العرب فى معركة بلاط الشهداء ودخلوا فرنسا لتقدم وجود الجامعات الأوروبية قرنين من الزمان .

خسرت أوروبا بطرد العرب وطمس حضارتهم فى حياتها العلمية وحياتها المادية جميعاً .

أغلقت الجامعات وأبيدت الكتب وهدمت المكتبات ، وقد كان فى قرطبة وحدها سبعون دارا للكتب ، وكانت دار الحكمة التى أسسها ونماها الخلفاء الأمويون تضم ٤٠٠,٠٠٠ أربعمائة ألف مجلد ، وأنفق الناصر وابنه الحكم أموالاً طائلة فى جمع الكتب ، وكان رجال الحكم يحضرون له المخطوطات من مختلف العواصم الشرقية – من القيروان والإسكندرية ودمشق وبغداد.... ، وحين يتعذر شراء الكتاب يكلف الوراقون بنسخه ، كذلك استقدم الخلفاء مشهورين كباراً من العلماء منهم أبو على القالى ، ووفد عليهم تلقائياً أبو الحسن على بن نافع المعروف باسم زرياب[1] ، وفد على عبد الرحمن الناصر وازدهر وازدهرت أعماله فى عهد الحكم ، وكان الأمويون ينافسون العباسيين فى النشاط العلمى .

ولم تكن جامعات المسلمين فى الأندلس وقفاً على المسلمين ، ولا على الأسبانيين ، بل كانت تنمى طلاباً من مختلف الأقطار ومختلف الديانات ، وكان الذين يعشون إلى نور العلم يفدون من الأقطار الأوروبية البعيدة ، وكان الشعب الأسبانى يفوق الشعوب الأوروبية كلها فى مدنيته وثقافته ، إذ بينما كانت الأمية فاشية فى كل هذه الأقطار ، كان الشعب الأسبانى –فيما يقدر المستشرقون المحدثون وعلى رأسهم دوزى –كله يقرأ ويكتب ، هذا لرواج

(١) هو المغنى المعروف تلميذ الموصلى ، وزرياب اسم للعندليب ، أو لطائر مغرد أسود ، وهو أيضاً الذهب أو ماء الذهب ، وقد أدخل زرياب على حياة الأندلسيين كثيراً من التغير وتعلموا منه كثيراً من العادات .

دور التعليم وكثرة الكتب والمكتبات . أما فى الأقطار الأوروبية الأخرى ، فلم يكن يعرف القراءة والكتابة إلا أفراد معظمهم من رجال الاكليروس .

وكانت أسبانيا قبل دخول العرب قطراً متأخراً ، بل أشد أقطار أوروبا تأخراً فى كل شيء ، وقد وثب بها العرب هذه الوثبة الواسعة ، إذ ملأوها علماً وأدخلوا عليها عدالة اجتماعية ونشاطاً اقتصادياً ونهضة زراعية ، وبثوا فيها التمدن فى المساكن والملابس ونظم الحياة العامة والعادات ، ومظاهر الحفلات والاجتماعات ، وظلت أرقى مدن العالم لمدة ثلاثة قرون[1] والذى تجدر ملاحظته أن هذا الرقى جاء باسم الإسلام وفى ثوب إسلامى .

وكان الطلاب يفدون من الأقطار البعيدة – من ألمانيا وسويسرا وانجلترا ، وترك لنا المقرى صورة رسالة من جورج الثانى ملك انجلترا إلى الخليفة الإسلامى فى قرطبة وقد أرسل بعثة من البنات الأشراف الانجليز ترأسها إبنة أخيه « دوبانت » وأرسل مع البعثة كبير موظفى القصر الملكى ومعه رسالة إلى الخليفة ، وفيها يثنى على معاهد العلم الإسلامية ، ووقعها بكلمة : « من خادمكم المطيع جوج » – وأرسل له هدية ثمينة . ورد هشام بهدية أيضاً ورسالة مهذبة[2] .

---

(١) انظر حضار العرب ٢٧٣ .

(٢) جاء فى رسالة الملك جورج :

من جورج الثانى ملك انجلترا والغال والسويد والنرويج ، إلى الخليفة ملك المسلمين فى مملكة الأندلس ، صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام ، .. بعد التعظيم والتوقير فقد سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافى معاهد العلم والصناعات فى بلادكم العامرة ، فأردنا لأبنائنا اقتباس هذه الفضائل لتكون بداية حسنة فى اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم فى بلادنا التى يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة ، وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة دوبانت على رأس البعثة ... وقد زودت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص .

وكانت هديته شمعدانين من الذهب الخالص طول الواحدة ثلاثة أذرع ، وأربعة وعشرون قطعة ذهبية رصعت بالنقوش البديعة .

وجاء فى رد الخليفة :

وكانت هناك بعثات أخرى من بلاد أخرى ، وبلغ عدد أفراد البعثات سبعمائة طالب وطالبة فى عهد عبد الرحمن الناصر . ولا ريب أنهم تعلموا فنوناً كثيرة ، ولكن لم تمدنا المصادر بتفاصيل المناهج التعليمية التى اتبعوها ، ولابد أنهم تعلموا اللغة العربية ، ولا تعرف مدى ماعلموا من مبادىء الإسلام ، ونلمس فى هذا العمل مدى تسامح المسلمين ، ويكفى أن المسلمين كانوا أرقى من انجلترا ، وقرطبة أرقى من لندن ، ويقول جوستاف لوبون : إن رخاء أسبانيا القليل قبل أن يدخلها العرب ، وثقافتها الضحلة [فى العهد القوطى] لم تكن تناسب غير الأجلاف[1] .

كان المسلمون فى أسبانيا يستمدون أسس تمدنهم من ينبوعين كريمين - الشهامة العربية ومبادىء الإسلام ، فقد كانوا حقاً يتسمون بالفروسية التى تقوم على نبل الأخلاق وشرف الطباع ، واستقاها منهم الأسبان النصارى فى بطء بالغ ولكن لم يصلوا إلى مكانة العرب[2] وقد اتخذ الأوروبيون بعد ذلك لقب فارس Knight - من ألقاب الشرف التى يمنحها الملوك .

وبدت بين المسلمين - على غير ما كان مألوفاً بين الأوروبيين فى العصور الوسطى - صفات الرحمة بالعدو المغلوب ، والعفة عن النيل من الضعاف والنساء والجرحى ، ويذكر المؤرخون مثالاً لذلك أن والى قرطبة حاصر مدينة طليطلة فى سنة ١١٣٩م فأرسلت إليه الملكة « بيرنجر » أنه لا يناسب بطلاً شهماً

= « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف أنبيائه سيد المرسلين ، .... إلى ملك انجلترا وايقوسيا واسكندناويا . الأجل ، لقد اطلعت على التماسكم فوافقت -بعد استشارة من يعنيهم الأمر- على طلبكم ... نعلمكم أنه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم ، أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد ، وبالمقابلة أبعث إليكم بغالى الطنافس الأندلسية ، وهى من صنع أبنائنا ... »

(من كتاب زرياب « من سلسلة أعلام العرب رقم ٥٤ - بقلم الدكتور محمد أحمد الحنفى » .

(١) حضارة العرب / ٢٧٣ - وتقدمت صفات الفروسة ص ١٣٠ .

كريماً أن يحاصر امرأة ، ... ففك حصارها فى التو وحياها ويقابل هذا الحادث أن « رودريك الفيفارى » الذى يضفى عليه الأوروبيون صفات البطولة حاصر شيخاً مسنا ولم يجد لديه ما يطمع فيه من مال ، وظن أنه يخفى أمواله عنه فقدمه طعمة للنار غير راث لشيخوخته ، وكان هذا العنف خلقاً متبعاً وشائعاً بينهم .

أدخل المسلمون على أسبانيا المال والعلم والحضارة وسمو االإنسانية ، وكان نشاطهم موجهاً إلى كل فروع العلم والصناعة والفنون ، وأنشأوا فى أسبانيا الطرق الفسيحة الطويلة المضاءة بالأنوار الكاشفة ، وأكثروا من إنشاء الجسور والفنادق والمساجد ، وكانت مساجدهم مدارس وجامعات ، واستغرق تأسيس هذه الحضارة جهداً كبيراً وعاد بنفع كبير ، ولكن هدم هذه الأسس الحضارية كلها كان سهلاً ميسوراً وفى وقت قصير .

هذا كان موقف بناء الحضارة الإسلامية فماذا كان موقف خصومهم .

مثل أكزيمنيس كبير الأساقفة أحط أنواع الوحشية إذ محا معالم هذه الحضارة مبتدئاً بوسائل المعرفة ، أحرق ثمانين ألف كتاب ٨٠,٠٠٠ ، وصار إحراق الكتب سنة متبعة . وفرح رجال الدين المسيحى برفعهم الصليب مكان الهلال ، ولم يلتفتوا إلى الفرق الهائل بين الحالتين ، فالهلال كان يرفرف على ربوع علم وحضارة ، وعلى أثرى مدن العالم بالعلم والأخلاق ومعانى الإنسانية ، أما الصليب الذى حل محله فكان يشرف على أطلال مظلمة وجهل فاضح ووحشية لا تليق بالإنسان ، وإذا كانت هذه إحدى المحن التى واجهها الإنسان – وما ذكرنا منها إلا قليلاً – فهى توضح فرق ما بين التبشير الإسلامى والآخر المسيحى .

وكأن قتل المسلمين والتنكيل بهم من أعمال القربان أو تطهير المسيحية ، وقدمنا شيئً من هذا وليس من المهم أن نستقصى أنواع التعذيب .

كان فيليب الثالث هو بطل الرواية الأكبر ، وهو الذى أصدر قراراً فى سنة ١٦٠٩ بطرد المسلمين نهائياً من بلاده ، ودفعتهم القوى الغاشمة إلى مغادرة

البلاد . بينما وقف القسس ينظرون إليهم فى شماتة وفرح ، وكانوا يساقون إلى البحر جماعات متتالية يحملون أمتعتهم وأطفالهم فى حزن وإجهاد ، بينما كانت الكمائن تترقبهم فتنقض عليهم ، وقتلت مرة ثلاثة أرباعهم وهم آلاف والراهب الدومينكى بليدا يبارك هذا العمل ، ومرة كانت قافلة مؤلفة من ١٤٠,٠٠٠ مائة وأربعون ألفاً من المسلمين المهاجرين قتل منهم بمشورة بليدا وأمام عينيه ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف ، وتقدر عدد الذين أبيدوا فى هذه المحنة بنصف مليون مسلم ، أما عدد الذين نفوا بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٦ وحتى أوائل القرن السابع عشر ١٦٠٩م فيقدر بنحو ثلاثة ملايين ، وكانوا يمتازون بما لهم من تقدم ثقافى وصناعى وزراعى .

هذا يوضح خسارة أسبانيا ويوضح صدق العبارة : « أن الحضارة قد تأخرت فى أسبانيا ثمانية قرون » - لأنه بإبادة العرب تناقص السكان وتعطلت الزراعة والصناعة وانحطت البلاد إلى درجة بالغة من الانحطاط ، وظلت كذلك لعدة قرون ، وهذا حصاد التبشير الإجبارى والتعصب الأعمى .

٨ - أحـــداث تاريخيـــــة :

يجدر بنا فى هذا الصدد أن نورد بعض الأحداث التاريخية الخاصة بخضوع كل من المسلمين والمسيحيين لحكم الآخر ، لنرى ما يوسم به كل من الدينيين من تعصب وتسامح ، وقد ذكرنا من قبل لقاء الديانتين منذ ظهور الإسلام .

والمسيحيون الذين عاشوا تحت حكم المسلمين كانوا مواطنين من الدرجة الثانية ليسوا على قدم المساواة مع المسلمين ، وكانوا قد أعفوا من الجهاد وتكفل الحاكم المسلم بحمايتهم ، وفرضت عليهم فى مقابلة هذه الحماية جزية ذكرناها من قبل ، وقد شارك بعض المسيحيين فى حروب المسلمين ، والذى قتل الهر مزان - القائد الفارسى - يوم القادسية شاب نصرانى من قبيلة تغلب ، وكانت قبيلة تغلب تدفع الزكاة مثل المسلمين ولا تدفع الجزية . وكان للمسيحيين ولليهود محاكم تفصل فى شئونهم الخاصة والشئون المتصلة بالدين .

وعندما دخل المسلمون أسبانيا كثر بينهم المستعربون – وهم سكان البلاد الذين تكلموا العربية – وظلوا على نصرانيتهم ، وفى المدن الكبيرة كانت لهم أحياء خاصة بهم ، ليكونوا على مقربة من كنائسهم ، وليسهل على القسس جمعهم وتعليمهم ، وخلال العهد الأموى وحين استحكام قوة الدولة – كان لهم حكامهم ، ولكنهم اندفاعاً مع تيار الحضارة الإسلامية كانوا يظهرون بمظهر عربى ، وتسموا بأسماء عربية مع أسمائهم المسيحية ، وكانوا يختتنون ، وكانوا يستعملون اللغة العربية فى كتابة القانون والأعمال العامة ، وكانت النقود تسك باللغة العربية ، مما يدل على تأصل الطابع العربى وثباته لديهم[١] .

ولم يبق اليهود بعد الفتح الإسلامى على الحال التى كانوا عليها فى العهد القوطى إذ كانوا مزدرين مهانين ، ينظر إليهم على أنهم طبقة وضيعة تستحق المهانة فقط ، فقد أعطاهم القانون الإسلامى حقوقهم الإنسانية ، ولذا هاجر عدد كبير منهم إلى أسبانيا ، جاءوا من الأقطار الأوروبية الأخرى ، وكانوا يلبسون الملابس العربية ويتكلمونو العربية وكانت لهم فى قرطبة مدرسة تلمودية بها ازدهرت الثقافة اليهودية هناك[١] .

هذا التسامح الإسلامى مع الكتابيين منهج متبع منذ العصور الأولى . ومنذ امتدت فتوح الإسلام إلى أقاليم بها كتابيون ، وكان المسلمون يأكلون ذبائحهم وينكحون نساءهم طبقاً لما فى الآية : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم . وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذآ ءاتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ﴾[٢] ، وقد عامل المسلمون المجوس عباد النار فى العراق بقريب من هذا ، إذ قبلوا منهم الجزية ولم يحلوا نكاح نسائهم[٣] .

وكذلك ظل المسلمون فيما بعد على هذا المنهج ، وسنرى منهج الأتراك بعد

---

(١) حتى /٧٠٥ – ٦

(٢) سورة المائدة الآية ٥ .

(٣) الخراج لأبى يوسف ١٣٩ – ٤١ .

ولابد أن نكون على ذكر من أن المسلمين المتسامحين مع الأديان الأخرى كانوا متشددين مع أنفسهم ، وحملهم حب الرياسة على إيقاد نار العداوة والبغضاء فيما بينهم ، وكانت حربهم على أنفسهم أقسى من حرب أعدائهم عليهم .

وقد ظلت دويلاتهم فى أسبانيا تتساقط واحدة بعد الأخرى فى يد المملكة المتحدة - أراجون وقشتالة - وكان آخر معاقلهم هى غرناطة - فى الجنوب الغربى من أسبانيا ، وكانت القلة الذليلة من المسلمين فيها تدفع الجزية للمملكة المتحدة القوية ، وكانت منقسمة مع هذه الذلة على نفسها .

وكانت المعاهدة التى كتبت بين الطرفين - بنى الأحمر المسلمين والمملكة المتحدة - مذلة لبنى الأحمر ، وكانت تقع فى ست وخمسين مادة[1] ولكن أعمال فرديناند وإيزابيلا كانت تقوم على الخديعة ، فقد نصت هذه المعاهدة على حرية العقيدة الإسلامية واحترام المساجد ، وبقاء مواردها المالية لها ، كما نصت على تأمين المسلمين على أنفسهم وأموالهم ... وأن يمنح ملك المسلمين مقاطعة صغيرة فى المراعى الجبلية جنوب صحراء سيرانفادا فى إقليم « البشرات » Alpujarras . - واضطر الملك أن يوقع على المعاهدة وأن يقسم يمين الولاء والطاعة منه ومن حاشيته ومن الشعب كله .

واستنجد الملك المسلم بالدول الشرقية وكان يأمل أن يقوموا بعمل كعمل المرابطين ، ولكن الدول الإسلامية كلها فى الشرق كانت عنه فى شغل ، لما كان بين بعضها وبعض من نزاع ، وكانت الدولة العثمانية - مع بعدها عن أسبانيا تستطيع عمل شىء للملك المسكين لكن صادف أن أبناء الملك العثمانى وهم أربعة تنازعوا ملك أبيهم وهو ما يزال على قيد الحياة ، فكان له فى داخلية مملكته ما يشغله عن إنقاذ مملكة أخرى نائية ، بعبارة أخرى أن الخلافات وعدم اتحاد الكلمة بين المسلمين كان من أهم الأسباب التى قضت عليهم .

---

(١) ترجم الباحث الكبير محمد عبد الله عنان المتخصص فى تاريخ المغرب والأندلس هذه المعاهدة من نصوصها القشتالية فى كتابه « نهاية الأندلس » وذكر أن العرب لم يكونوا نقلوها نقلاً دقيقاً .

تنكر فرديناند وإيزابيلا لمبادىء المعاهدة التى أبرماها ، وكانت إيزابيلا قوية الشخصية ضيقة العقل شديدة التعصب مظلمة التفكير الاجتماعى ، لذلك كانت مندفعة إلى الانتقام والتشفى من غير أن تقدر عواقب تعصبها ، وكانت تنقاد لكبار القسس من الكاثوليك الذين يملأ صدورهم الجهل والتعصب ، وهى صفات لا تقرها الحضارة ولا الإنسانية ، ورثتها أسبانيا حتى وقت قريب .

بدأ إكراهها المسلمين على التنصير فى سنة ١٤٩٩ ، أى بعد خروج بنى الأحمر بسبعة أعوام ، وكان رائدها فى هذه الفكرة الكاردينال شمينيه Ximunez de Cianeros[1] الذى كانت تعترف أمامه وتقدر مشورته ، وقد أفتى بأن المسلمين نجس وكل آثارهم وممتلكاتهم نجسة يجب التخلص منها . وكانت الكارثة الكبرى على الشعب كله إحراق الكتب ، وهدم المساجد ، وقد حول المسجد الكبير الذى بناه الموحدون إلى كاتدرائية ، وأحرقت كتب المكتبة التى كانت بجواره ، وأكره سكان غرناطة على التنصر سواء المسلمون منهم واليهود ، وصدر قرار فى العام نفسه ١٩٤٢ بأن يتنصر اليهود الذين فى مملكة قشتالة جميعاً أو يغادروا البلاد الأسبانية إلى غير عودة ، وأمهلوا أربعة أشهر يترحلون خلالها ، وكانت عقوبة المخالفة هى الموت ومصادرة الأموال ، فتنصر بعضهم نفاقاً وهاجر بعض إلى شمال أفريقية ، ولم يسلم الذين بقوا من التعذيب والمهانة[2] . وقد انتاب الشك رؤساء الاكليروس فاتهموا اليهود جميعاً بالنفاق فزجوا بهم فى السجون وصبوا عليهم جام عذابهم ، وهلك كثيرون فى سجنهم .

ويأسى المؤرخون جميعاً لهذه الأعمال غير الإنسانية والتى دمغت الكاثوليكية بعار لا يمحى ولا ينسى .

---

(١) قسيس معروف فى هذا التاريخ - وقد قام بترجمة التوراة .

(٢) الدولة العثمانية جـ ٩٧/١ .

وليس عار إحراق الكتب وإعدام التراث الإسلامى بأقل عاراً من إعدام الآلاف الأبرياء ، والمسلمون حين دخلوا بلاداً إسلامية ذات حضارة أبقوا على تراثها العلمى ، بل أكثر من هذا أنهم - كما هو معروف - نقلوا التراث اليونانى والرومانى إلى لغتهم .

وإنصافاً لشمنيس وبليدا وكبار الأرثودكس الذين عنوا بإعدام المكتبات العربية نقول أنهم أبقوا على ثلاثمائة كتاب من كتب الطب والعلوم . حملت إلى جامعة أنشئت فى مدينة تسمى قلعة النهر ، أما الآلاف من الكتب الذى كانت تذخر بها المكتبات فكانت تجمع أكداساً ثم تشب فيها النار فى ميدان يسمى « باب الرملة » ، وهو أكبر وأفسح ميادين غرناطة ، وقد قدمنا قبل إعدام كتب قرطبة ، وهو إحراق شمل البلاد كلها .

لم يكن هينا على أى مسلم أن يتخلى عن دينه ، فكان منهم من يفر بدينه مهاجراً إلى الله فى أى مكان مغادراً أمواله وممتلكاته ، ومنهم من يبيع ممتلكاته ولو بثمن زهيد ليهرب إلى بر العدوة - شمال أفريقية .

٩ - تاريخ أسود للكاثوليكية :

يُسجل تاريخ العصور الوسطى وتاريخ النهضة أسوأ ما يحفظه فى التاريخ من الأعمال غير الإنسانية ، سواء فى ذلك تاريخ رجال الدين أو تاريخ الملوك الذين انقادوا لهم ، ولسنا بصدد التاريخ ، ولكن هذه الأعمال الإجرامية كانت لوناً من ألوان نشر المسيحية وأسلوباً من أساليب التبشير بها . وقد كان العداء مستحكماً بينها وبين دعاة المذاهب البروتستانتية . حتى استساغ الكاثوليك فى سنة ١٥٢٩م أن يحرقوا علناً أحد أتباع زونجلى البروتستانتى ، وزونجلى نسه بعد أن هزم فى معركته الحربية ، وسقط جريحاً منزوف الدم ، أسرع الكاثوليك إلى جسده الهامد فقطعوه أقسامًا أربعة . ثم أشعلوا فيها النار وأذروا رمادها فى الهواء .

ولا نقف طويلاً عند حرب الكاثوليك وزعماء الإصلاح الدينى ، وهؤلاء

أيضاً لم يكونوا بحق رجال إصلاح ، وقد أحرق كلفن أيضاً أحد معارضيه ، وهو العالم الكبير ميشيل هرفى الذى كان له دور هام فى كشف الدورة الدموية فى جسم الإنسان ، وكان من دعاة الإصلاح الدينى ، ونشر كتاباً سماه إصلاح المسيحية ، وكان يود أن يقابل كلفن ليتبادل معه الرأى فى دعوته ، ولكنه قبض عليه وقدم لمحكمة بروتستانتية كان لكلفن تأثير عليها فحكمت عليه بالإحراق وأحرق سنة ١٥٥٣ ، وكان رجلاً صالحاً تقدم إلى النار وهو يدعو الله أن يرحم الذين أحرقوه .

ومما يذكر للكاثوليكية فى هذا الصدد ، أن الكونستابل دون ميجويل لوكاس Don Miguel Lucas . وكان من كبار القواد وكبار الأثرياء فى قشتالة – ذبح أمام مذبح الكنيسة سنة ١٤٧٣ لأنه كان يعطف على اليهود ، واشتدت موجة المذابح على اليهود أواخر القرن الرابع عشر حتى اضطروا إلى النفاق والتظاهر بالمسيحية ، وكانوا يهاجرون إلى الدولة العثمانية فيظهرون يهوديتهم . ورأت الدولة وقفاً لتيار الهرطقة –وكل ماعدا الكاثوليكية فى نظرها هرطقة– أن تنشىء محاكم التفتيش .

١٠ – محـــاكم التفتيـــش :

إزاء ماواجهته الكنيسة الغربية الكاثوليكية من نشاط الجماعات البروتستانتية ، وإصرار المسلمين الباقين فى أسبانيا على إسلامهم ، رأى البابا بول الثالث أن ينشىء المحاكم التى عرفت باسم محاكم التفتيش أو دواوين التحقيق[١] ، فأخرج بها مرسوماً بابوياً سنة ١٥٤٢م أى بعد خروج آخر حاكم مسلم بخمسين عاماً .

كان البابا قد عقد مجمعاً مسكونياً فى مدينة ترانت فى فرنسا ، وقد طالت أيام هذا المجمع وانفض ثم اجتمع ، ثم أصدر قرارات لإصلاح الكنيسة ، وأخرى تحدد العقيدة الكاثوليكية وتوضح حقائقها إزاء هرطقة البروتستانتين ،

(١) ديوان التحقيق هى التسمية التى اختارها البحاثة المرحوم محمد عبد الله عنان .

ولم تنل قراراته قبولاً ، بل زادت الطين بلة ، فقد قامت قرارات إصلاح الكنيسة على العناية برجال الكنيسة – من الكرادلة والأساقفة والقسس والرهبان وتلاميذهم ، وتزويدهم بالمال والثقافة ، وعلى التأكيد أن سلطة البابا مستمدة من السيد المسيح ، وأن له السلطة العليا فى الكنيسة الكاثوليكية ، وأن زواج القسس محرم ... إلخ .

وأما قرارات تحديد العقيدة الكاثوليكية فكانت كلها منصبة على رفض المذهب البروتستانتى سواء من مارتن لوثر أو كلفن أو تلاميذهما أو غيرهم ، وقرر أن الكتاب المقدس هو المصدر الأساسى للعقيدة ، وأن تقاليد الكنيسة المتبعة مكملة له ولها قداسة كقداسته .

وعنى البابوات بهذه القرارات لما أضفتها عليهم من قداسة ، وتمسكوا بأن من حقهم وحدهم تفسير قرارات المجمع . ثم عنى البابوات لبث المذهب الكاثوليكى بإنشاء ومساعدة الجماعات الدينية وقد كثرت فى هذا الوقت كثرة ملحوظة[١] هذا بينما كان اليهود المنافقون قد انكشف أمرهم وأنهم يكونون خطراً على العقيدة الكاثوليكية وعلى أسبانيا كلها . وأنشئت محاكم التفتيش لصد هذا التيار .

دخلت محاكم التفتيش أسبانيا سنة ١٤٨٣ ، وبدأت عملها فى قشتالة ثم أرجون ، وعارضها الأهلون معارضة شديدة ، فلم تلق إيزابيلا ولا فرديناند – لمعارضتهم بالاً ، ورحب بها قوم من السذج محبى التشفى والميالين للتعصب الدينى ، وبه طرد اليهود والمسلمون من أسبانيا ، طرد نحو ١٥٠ – مائة وخمسون ألف يهودى ، وآلاف من المسلمين بلغ عددهم بعد ذلك نحو ثلاثة ملايين[٢] .

---

(١) تحدثنا عن أهم هذه المنظمات فى كتاب «الإرساليات التبشيرية» .

(٢) اعتنق نحو ألف يهودى المسيحية نفاقاً ، وهاجر الآخرون إلى البرتغال وشمال أفريقية وإيطاليا وفرنسا فلم يجدوا معاملة حسنة ، ورجع بعضهم إلى أسبانيا يدعى المسيحية ولجأ آخرون إلى الدولة العثمانية (انظر أوروبا العصور الوسطى للدكتور عبد الفتاح عاشور ص٥٤٤ – ٥٥ .

وفى سنة ١٥٤٢م أصدر البابا بول الثالث مرسومه بإنشاء أو تأييد محاكم التفتيش ، وجاء فيه « .... إن أعمال المجمع المسكونى تتعثر بينما تزداد موجة الهرطقة ، فأصبح الموقف يقضى باتخاذ إجراءات معينة »(١) .

واتخذت محاكم التفتيش بهذا القرار صبغة دينية ، ولم تعد بعد مجرد هيئة قانونية أو عملاً حكومياً خالصاً . بل أصبحت محاكم دينية ليس للحكومة فيها إلا تنفيذ أحكامها .

وغنى عن الذكر أنها لم تكن تستحق اسم المحاكم لمجافاتها العدالة وعملها فى الواقع هو الإكراه على الكاثوليكية والعقوبة على التخلى عنها ، وكانت جلساتها أول أمرها سرية ، واستخدمت ألواناً من التعذيب لإكراه المتهمين على الاعتراف ثم تعاقبهم عليه ، وكان البابوات يصدرون تعليماتهم إلى قضاة هذه المحاكم ألا تأخذهم رأفة بالمتهمين ، وكانت عقوباتها هى الإحراق ومصادرة الأموال .

وكان قضاتها من رجال الدين ، وكانوا يحكمون بإدانة المتهم ، فيكفى هذا الحكم باستحقاقه الإحراق(٢) .

كان المحكوم عليهم يحرقون فى ميادين عامة ، وكان الملك فيليب الثانى يحرص على حضور هذه العمليات ، وكانت تسمى «أفراح الموت» لأن الشعب كان يجتمع فيها ، ويكثر صيحات الشماتة والابتهاج بإحراق الهرطوقيين(٣) .

---

(١) أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ص٥٧٦ .

(٢) كان القسس أعضاء المحكمة يتحاشون النطق بحكم ينص على إحراق المهم ، ولكنهم كانوا يعرفون عاقبة حكمهم ويحضرون مشاهد الإحراق والتعذيب .

(٣) كان الملك يجلس على منصة تجاه المحرقة ، ويعلق على الحائط من خلفه صليب ضخم أخضر اللون -وهو شعار محاكم التفتيش ، وكان رئيس المحكمة يتقدم نحو منصة الملك ، فيقف الملك ويرفع سيفاً بيده دلالة على رضاه ورغبته فى إبادة معارضى الكاثوليكية ، ثم يقرأ رئيس المحمة صيغة قسم يفصح أن الملك نصير لهذه المحاكم يبذل كل جهده لعونها ... فيقول الملك أقسم على هذا فيسلمه رئيس المحكمة صليباً يقبله .. =

وكان نجاح هذه المحاكم محدود الزمن محدود التأثير ، وقد رغب الباباوات فى توسيع نطاقها فى فرنسا والأراضى المنخفضة - فلم تلق نجاحا ، وكانت سبباً فى انشقاق دول الأراضى المنخفضة وحربها أسبانيا واستقلالها .

وليس من همنا أن نفيض فى الحديث عن هذه المحاكم ، وكتب التاريخ تفيض بمساوئها وإنما ذكرناها لأنها كانت عنصراً من عناصر نشر المسيحية ، وتبشيراً إجبارياً يحتم اعتناق المذهب الكاثوليكى .

= ويمر المحكوم عليهم بالإعدام حرقاً فيدفعهم الحراس إلى المحرقة - ثم يمر المحكوم عليهم بالسجن الأبدى ، وهم يرسفون فى قيودهم وأغلالهم الحديدية ، والحراس يلهبونهم بالسياط ، وبهذا يتخذ حكم المحكمة صفة حكومية ملكية .

وسأل أحد الضباط الكبار الأثرياء للملك فيليب الثانى عما ارتكبه حتى يحرق ، فقال الملك : لو كان ابنى فاسد مثلك لأحضرت بنفسى الخشب لإحراقه (انظر أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ص٥٨٢) .

ثانياً : فى صقليـــة

١ - لمحة تاريخية عن المسلمين فى صقلية :

بدأ غزو المسلمين البحرى منذ عهد عثمان بن عفان (رضى الله عنه) - إذ أغزاه واليه على الشام - معاوية ابن أبى سفيان - ، ولما تولى معاوية أمر المسلمين وجه نشاطاً واسعاً نحو حرب الروم ، وقد حطم أسطوله أسطول الرومان فى موقعة ذات السوارى ثم فى الأسكندرية ، ومنذ سنة ٦٥٢م التى انتصر فيها العرب فى الأسكندرية أصبح العرب سادة هذا البحر ، ويعزى إلى يزيد ابن معاوية أنه أخذ رشوة من الروم فسحب الجيش الإسلامى وترك الجزر للرومان فهدموا مساجدها[١] .

وكان فتح صقلية فى عهد معاوية على يد معاوية بن خديج الكندى ، وهو أول من غزاها ثم ظلت تغزى بعده[٢] ، ولم يثبت المسلمون بها حتى كان عهد بنى الأغلب فى القيروان ، فسنحت الفرصة لفتح إسلامى واستمر حكمهم فيها نحو قرنين ونصف قرن .

كانت هذه الجزيرة ولاية بيزنطية ، يولى عليها حاكم من قبل الامبراطور وقد حدثت ثم اضطرابات جعلت فرصة الإبحار إلى الجزيرة سانحة[٣] ، وقاد القاضى أسد بن الفرات صاحب المدونة الفراتية فى فقه الإمام مالك حملة الفتح ، وقد مات ودفن هناك ، واستمرت حروب العرب نحو خمسة أعوام حتى استولوا

---

(١) كان معاوية يغزى براً وبحراً ، وبعث جناده بن أبى أمية الأزدى - التابعى الصالح لغزو رودس سنة ٥٢هـ وأقام المسلمون فيها سبع سنين ، وفتح جناده أيضاً جزرا أخرى منها جزيرة كريت ، وغزيت بعده فى عهد الوليد والرشيد والمأمون وكانت إسلامية كلها (انظر فتوح البلدان/ ٢٣٧ - ٨) .

(٢) غزاها عبد الله بن قيس بن مخلد وأصاب فيها أصنام ذهب بعث بها إلى معاوية فوجه بها إلى البصرة ثم أرسلت إلى الهند فبيعت هناك (المصدر نفسه) .

(٣) كان أمير البحر بالجزيرة قد قتل حاكمها ونصب نفسه حاكماً ، ثم ثار الناس عليه فذهب يحرض المسلمين على غزوها وعاد معهم قائداً لحملتهم .

على أرض الجزيرة كلها ، وكان الجيش الذى فتحها كالذى فتح أسبانيا معظمه من البربر الأفريقيين ، ومعه قليل من العرب ، ثم هاجر العرب إليها بعد ذلك- وقد غزوا بعد ذلك جنوب إيطاليا وأصبحت روما - مقر البابوية مهددة بغزوها ، إذ هجموا على أقدس كنيستين - وهما كنيستا بولس وبطرس- اللتين كانتا خارج أسوارها ، مما اضطر البابا إلى دفع الجزية لهم .

وفتح العرب أيضاً مدينة بارى على الشاطىء الشرقى للبحر الأدرياتيكى ، وجعلوها قاعدة حربية لهم .

والحق أن العرب باستقرارهم فى صقلية كانوا جديرين أن يظلوا سادة البحر لمدة طويلة ، وأن يمدوا حضارة الإسلام داخل أوروبا إلى مدى أوسع ، ولكن أصابهم بسرعة داء العرب فى كل مكان فاختلف بعضهم على بعض وتفرقت كلمتهم ، فسطا عليهم النورمان وقوضوا ملهكم فى القرن الحادى عشر الميلادى .

٢ - سكان صقلية :

كان الشعب الصقلى بعد أن استقر العرب فى هذه الجزيرة يتكون من خمسة أجناس لكل جنس لغته وتقاليده - كان هناك الأغارقة والفرنجة واللومبارد والعرب واليهود ، ويدخل فى جنس العرب أولئك البربر الفاتحون .

وكان لكل طائفة شريعتها ، فالإغريق يدينون لقانون جستنيان واللومبارد لهم فقههم الخاص بهم ، واليهود يتبعون التوراة والتلمود والمسلمون - عربا وبربرا- يتبعون القرآن الكريم ، واقتضى التسامح الإسلامى ، أن يترك كل جماعة لشريعتهم ، وأن يكون لهم قضاتهم الذين يفصلون فى منازعاتهم ، واكتفوا بتحصيل الجزية منهم وكانت هى الجزية المتبعة فى كل مكان ، وأعفى منها النساء والصبيان والعجزة غير القادرين عليها ، وبقى للمسلمين الحكومة العليا ، وكان من عمل العرب أن قسموا الجزيرة إلى ثلاثة أقاليم جغرافية - وكانت قسمين فقط فى العهد البيزنطى - وكان لكل إقليم حاكمه وقاضيه ، وكان المفتى العام يقيم فى « بلرم » .

وكان للعرب التفوق فى الصناعة والزراعة والتجارة ، وكانوا لتفوقهم الحضارى هم العنصر الممتاز .

٣ – الثقـــافة العـــربية :

قامت للمسلمين حركة ثقافية فى صقلية كانت على مستوى رفيع ، وهى –لصغر الجزيرة وقصر المدة– لم تصل إلى ما كانت عليه فى أسبانيا ولكن تأثيرها فى أوروبا كان عظيماً واستمر بعد نهاية العهد العربى ، كان فى بلرم مركز ترجمة كالذى كان فى طليطلة ، وكان بها حلقات درس للعلوم المختلفة ، وكان بها كثرة عظيمة من المساجد ، وكما يقول ابن حوقل لم يكن الإنسان يقف بجانب مسجد إلا وهو يرى المسجد الآخر ، وربما وجد فى الشارع الواحد مسجدين متقابلين أو أكثر ، لأن الأثرياء كانوا يحرصون على بناء مساجد فى بيوتهم ، وبلغ عدد المساجد فى هذه الجزيرة ثلثمائة مسجد[١] ويعدون ذلك من مفاخرهم أو الواجب عليهم .

واختلفت الدراسة الفقهية فيها ، فبنوا الأغلب كانوا سنيين أسسوا فيها المذهب السنى ثم انتزعها الفاطميون فأسسوا بها المذهب الشيعى ، ثم أخذها الكلبيون[٢] .

وقد خرجت صقلية شعراء وجغرافيين وقواداً ، ويكفى أن نذكر جوهر الصقلى فاتح مصر للفاطميين ، والجغرافى الكبير الإدريسى ، والمؤرخ ابن حوقل .

٤ – نهـــاية العـــرب :

لم تغفل بيزنطة يوماً عن كنزها المفقود ، فكان لها دائماً تدخل فى إثارة القلاقل والتنفير من العرب ، ولكن هذا كان شيئاً هيناً لا يؤثر كثيراً وكان

---

(١) انظر ابن حوقل ٣٢٧ – ٢٨ .

(٢) انظر ابن الأثير جـ٨ ، لترى تفاصيل واسعة ممتعة محزنة .

العامل الأكبر فى نهاية الحكم العربى هم العرب أنفسهم ، كان الشعب مفككاً يتكون من عدد من الشعوب واللغات والمذاهب ، وضعف سلطان الدين عن كبت العصبيات العربية ، فكان التافس بل التطاحن مستمراً بين اليمينيين والشماليين من العرب ، وكان ثم تطاحن آخر بين العرب والبربر ، وبين الأسبانيين والأفريقيين ، وبين الإغريق والفرنجة ، وأذكى الكلبيون هذا النزاع مما سهل على النورمانديين غزو الجزيرة .

٥ - الحكم النورماندى :

لم يفعل النورمانديون مافعل فرديناند وإيزابيلا ، من محاربة الثقافة الإسلامية بل رأى الملك روجر الأول المسيحى (١١٠١م) أن يستفيد من هذه الثقافة ، ولم يكن هو نفسه مثقفاً ولكن هداه ذكاؤه إلى الإبقاء على هذا الكنز الثمين ، وحاكى العرب فى تسامحهم الدينى فسمح لغير المسلمين بأداء طقوسهم ، وكان بلاطه يزدان بالفلاسفة والأطباء ورجال الفلك من المسلمين ، وكان فى جيشه مسلمون أيضاً ، وحذا خلفاؤه حذوه ، فكان ابنه روجر الثانى على شاكلة أبيه واستمر حكمه بين سنتى (١١٣٠ - ٥٤) أى نحو ربع قرن ازدهرت فيه الثقافة الإسلامية بكل أنواعها ، وكذا فعل حفيده وليم الثانى (١١٦٦ - ١١٨٩م) وكان هذا ذكاء وحكمة ، فالعرب كانوا هم الطائفة ذات الخبرة والتفوق فى العلوم والفنون والتجارة والصناعة -وقد أصيبت أسبانيا بأشنع كارثة فى تاريخها بطردها المسلمين- لكن صقلية تحاشت هذا ، الانهيار فأبقت للمسلمين بعد زوال حكمهم مكانتهم واستفادت منهم ، ولم يكن من السهل التخلص أو القضاء على هذه الحضارة .

وقد بنيت فى هذا العهد كنائس زينها الفنان المسلم بنقوش كوفية وكتبت على جدرانها زخارف عربية وكان النساء يلبسن الملابس الإسلامية مزينة بالحلى العربية ، وكانت ملابس الملك إسلامية عربية تطرز حواشيها بحروف عربية .

وبلغت هذه الحضارة الإسلامية المسيحية النورماندية - قمتها فى عهد

الملك فريدريك الثانى (١٢١٥ - ٥٠) الذى كان يوصف بأنه نصف شرقى ، ولم يكن محباً للإسلام ، ولكنه لذكائه حرص على الاستفادة من علم المسلمين ، واستقدم إلى بلاطه علماء من الشرق ، وكان على صلة بملوك الأيوبيين ، وفى عهده بلغ نشاط الترجمة من العربية إلى اللاتينية قمته فترجمت آثار ابن رشد ربما ترجمت كلها ، وكان فى بلاطه هذا الرجل الأندلسى العجيب -ميشل سكوت ، وانتقلت هذه الترجمات كلها إلى الجامعات الأوروبية ، فكانت صقلية برزخاً بين الشرق والغرب نقلت إلى أوروبا أثمن كنوز الشرق .

وقد تلقت كل من صقلية وأسبانيا علوم الأقدمين بعد أن صفاها العرب وزادوا عليها ، وكانت مهمة كل منهما هى الترجمة والنقل وكان لليهود فى كلا البلدين نشاطهم المعهود فى الترجمة والبحث أيضاً .

وفى سنة ١٢٢٤م أسس الملك فريدريك الثانى جامعة نابل ، وهى أول جامعة ملكية أسست بقرار إمبراطورى ، وكانت الجامعات تقوم بجهود الشعوب ، وكانت مكتبة هذه الجامعة تحوى مجموعات ضخمة من الكتب العربية ، وفيها درست مؤلفات أرسطو وابن رشد التى ترجمت وأرسلت نسخ منها إلى الجامعات الأوروبية ، واستفادت منها جماعات التبشير إذ استخدمت معلوماتها لمساعدة المبشرين فى البلاد الإسلامية .

بعبارة عامة ، كان القرن الثالث عشر عصر النشاط فى نقل علوم الشرق وهو عصر استنامة المسلمين وتعرضهم للهجوم من جوانب عديدة ، وكان القرن الرابع عشر عصر استخدام علوم المسلمين فى حربهم وظهور التفوق عليهم .

٦ - نهـــاية المســـلمين فى صقليـــة :

بعد عهد النورمانديين تبدلت حال الجزيرة ، واضمحل سلطان المسلمين العلمى ، إذ نالت البلاد الأوروبية كلها حظاً كبيراً من العلوم ونمت ماأخذت عن المسلمين ، وظهرت النهضة الأوروبية ، وبدأ تخلف الشرق . وظهر التحامل على الإسلام ، فهدمت المساجد وأزيلت حتى لم يبق فى صقلية مسجد واحد ، وبها الآن مسجد واحد مستحدث تتبناه ليبيا -وهو منزل اتخذ مسجداً ، وليس مسجداً حقيقياً .

ثالثاً : المسلمون فى شرق أوروبا

١ - مقـــــدمة :

رأينا أن الإسلام عاش فى أسبانيا ثمانية قرون ، ولم يدخل جوف القارة عن طريقها ، وفى صقلية امتد جنوب إيطاليا ، والآن ننظر إلى الجانب الشرقى وامتداد الإسلام فيه ، وقد كان الأتراك العثمانيون هم الذين نقلوه إلى هذا الجانب ، وحولوا العاصمة البيزنطية إلى عاصمة إسلامية .

وفى حديثنا عن الأتراك نرجع إلى بدايتهم وبداية الإسلام فى إيجاز .

٢ - بـــداية العـــثمانيين :

فى أواسط القرن الثالث عشر كانت هذه القبيلة التركية قبيلة متجولة شأنها فى ذلك شأن القبائل العديدة التى كان تنبعث من وسط آسيا ومناطق الاستبس ، وكان رئيسها هو أرطغرك بك والد عثمان الذى تنسب إليه هذه الأسرة ، وانتهى بها تجولها إلى شبه جزيرة الأناضول فصادفت وجود معركة حربية بين السلطان السلجوقى علاء الدين الأول (١٢١٩ - ١٢٣٥م) زعيم الأتراك السلاجقة إذ ذاك - وبين فرقة مغولية من جيش أوكطاى ابن جنكيز خان . وكانت هذه الفرقة قد جاءت لاستكمال فتح آسيا الصغرى كى تضمها إلى ممتلكات جنكيز خان ، وكانت أقوى من جيش علاء الدين ، وموشكة أن تقضى عليه ، فانضم إليه طغرك بك بجيشه ، فأنقذه من هزيمته وطرد عنه محاربيه ، وكان ذلك سنة ١٢٣٢م قبل وفاة علاء الدين بنحو ثلاثة أعوام .

كانت آسيا الصغرى مقسمة إلى ولايات صغيرة ، وقد أعطى علاء الدين طغرك بك منها مقاطعة «نيقية» مكافأة له على مساعدته إياه ، ونيقية أرض واسعة تجاور الدولة البيزنطية ، واتخذ طغرك مدينة «سوكود» عاصمة له ، واستقر هو وقومه بها ومات سنة ١٢٩٩ ، فخلفه ابنه عثمان .

٣ - عثمان يدخل الإسلام :

كان لهؤلاء الأتراك ديانة غير معروفة ، ولكنها كانت وثنية ، وكان من حولهم السلاجقة المسلمون ، والبيزنطيون المسيحيون بجانب وثنيات أخرى ، وقد اختار عثمان الإسلام ديناً له ولقومه بعد دراسة وأناة ، وكان له قائد ذو لحية كثة ، اسمه ميخائيل ذو اللحية الفرجون أو الشوكة M. Fork Beard وهو بيزنطى ارتد عن مسيحيته ليعتنق الإسلام ، وذكر هذا القائد مما يوضح أن الميل إلى الإسلام لم يكن خاصاً بالعثمانيين ولم يكن ثم إكراه عليه .

كان هؤلاء القوم -شأن التتار جميعاً- يمتازون بالشجاعة وحب الحرب وقد وسع أرطغرك وعثمان من بعده نطاق قونية ، وضموا إليها ولاية «أسكى شهر» وهى مدينة ذات تاريخ ، وفى سنة ١٣٠٠م أغار المغول على السلاجقة وقضوا على آخر سلاطينهم علاء الدين الثالث سنة ١٣٠٧م نهائياً فانتهت هذه الدولة ، وقد كانت فى حالة ضعف ، فاستقل أمراؤها كل بما تحت يده ، واستقل عثمان أيضاً بإقليمه ، وعنى بشئونه فاعتبر مؤسس الدولة ونسبت إليه ، وظل يوسع ممتلكاته حتى أطل على البسفور ، وفى سنة ١٣٢٦ فتح أورخان بن عثمان مدينة بروسة ، على بحر مرمرة ، وكان أبوه على فراش موته فسر بهذا الفتح وطلب أن يدفن فيها ، واتخذوها عاصمة وكانت ذات شأن فى تاريخ الإسلام بعد ذلك .

٤ - خلفاء عثمان :

كان عثمان قد اعتنق الإسلام وثبته فى قومه وفيمن حوله ، ثم كان ابنه أورخان هو الذى نقله إلى أوروبا وأفشاه رغم كثرة الأعداء والمقاومين ، ففى سنة ١٣٥٣ عبرت جيوشه بحر إيجه ، فاستولت على اليونان وبلغاريا ورومانيا والصرب والمجر وترانسلفانيا وبعض الجزر ، واتخذوا أدرنة عاصمة تركية فى أوروبا ، وفى سنة ١٤٥٣ دخل محمد الفاتح القسطنطينية[١] فحقق الأحلام

---

(١) هى بيزنطة سميت القسطنطينية بعد أن نقل قسطنطين إليها عاصمته سنة ٣٢٣م ، وتسمى أيضاً الاستانة وهى كلمة فارسية معناها العتبة ، وسماها محمد الفاتح استامبول ، وهى كلمة تركية معناها دار السلام ويقال أيضاً «إسلامبول» . =

التى راودت المسلمين منذ عهد معاوية ، وحقاً قد عبر الإسلام بحر إيجه من قبل ، ولكن الاستيلاء على العاصمة البيزنطية كان له مغزى آخر وقد اهتز له العالم الغربى والعالم الشرقى على السواء .

لم ينظر الأوروبيون إلى حروب العثمانيين على أنها أعمال سياسية ، كما كانت حروب شارل– التى شملت معظم أوروبا ، أو إلى حرب نابليون التى جاءت بعد ، ولكن نظروا إليها على أنها حرب بين الإسلام والنصرانية ، وقوى هذا الشعور بسبب ما كان بادياً فعلاً على العثمانيين من مشاعر إسلامية وما حرصوا عليه من أعلان قوانين الإسلام وشريعته ، ثم اهتمامهم ببناء المساجد الكبيرة ، وتحويلهم بعض الكنائس الكبيرة إلى مساجد[1] .

وقد عثر السلطان محمد الفاتح على مقبرة الصحابى الجليل أبى أيوب الأنصارى فابتهج به جيشه وثارت حماسته للجهاد ، وبنى السلطان بجانبه مسجداً بالغ فى تزيينه وزخرفته .

كل هذا وغيره من المظاهر الإسلامية أوغر صدور الأوروبيين المسيحيين ، وجعلهم يعتبرون حروب المعثمانيين رد فعل للحروب الصليبية ، وعملوا جميعاً على حروبهم ، وصارت كلمة تركى تعنى مسلم .

وفى الشرق فرح المسلون فى كل مكان بهذا الفتح ، وأرسل إليهم محمد

= وعن دخول عثمان الإسلام –انظر «الدولة العثمانية» للدكتور الشناوى ص١١ ، ٣٨ ج١ وقارن تاريخ الشرق الأوسط الحديث للدكتور محمد أنيس ، فآراؤه لا تخلو من جموح إذ يرى أن عثمان اعتنق الإسلام لأسباب سياسية ، وأدلته غير قوية ، وأورد الدكتور الشناوى مايروى من أنه كان يتردد على شيخ مسلم يسأله عن الإسلام حتى اقتنع به ، وانقلب داعية له .

(١) حول محمد الفاتح كاتدرائية أياصوفيا إلى مسجد كبير فخم ، وهو الذى رده أتاتورك إلى مخزن ، وبنى له مسجداً فى قلب العاصمة على أنقاض الكنيسة الرسولية وكانت مدفن العظماء مثل الآبى The Appy فى وستمنستر ، وتلاه خلفاؤه فى الاهتمام بهذه المظاهر الإسلامية ، من بناء المساجد العظيمة هنا وهناك ، ومن الاهتمام بتطبيق الشريعة الإسلامية وإعلاء شأن المظاهر الإسلامية ورجال الدين .

الفاتح بهذه البشرى ، وأقام الحاكم المملوكى احتفالات رائعة فى مصر وكذلك فرحت وابتهجت الأقطار الإسلامية الأخرى .

زال سلطان الكنيسة الشرقية وحل محله سلطان الحكومة الإسلامية ، أما الكنيسة الغربية فى روما فكان عليها أن تناصب العثمانيين العداء ، وأصر محمد الفاتح على إذلالها ، وإخضاعها لسلطانه ، وزينت له قوته أن يستمر فى حربه ، وأن يقضى على الكنيستين جميعاً لهذا كان عداؤه لكنيسة روما ظاهراً ، وقد نزل فى نابلى - فى إيطاليا - واتجه شمالاً إلى روما ليدمر كنيستها حتى أنه أقسم ليقتحمنها وليقدِّمَنّ الطعام بيديه إلى حصانه وهو واقف على مذبح الكنيسة البابوية ، ولكن المنية عاجلته ، واعتبر موته هبة من السماء للمسيحيين ، وأمر البابا أم تقام صلاة الشكر ثلاثة أيام[١] وظلت فتوحات الأتراك بعده تمتد فى أوروبا حتى وصلت فيينا واستولت على بلغراد ، وعلى جزيرة رودس ، وكانت معقلاً لفرسان القديس يوحنا ، واستولى الذعر على الأوروبيين حتى كان الصيادون فى هولاندا يخشون الابتعاد فى بحر البلطيق خوفاً من العثمانيين ، وكانت هذه الحركة فى جملتها رد فعل للحملات الصليبية ، ونفر الأوروبيون من الشرقيين أو من المسلمين ، وقالوا أن العثمانيين مصدر رعب للعالم[٢] كما وصفوهم بأنهم البلاء الموجع[٣] وظلوا حتى القرن الخامس عشر عدواً رهيباً ، وكانت قبائل البربر التى اجتاحت غرب أوروبا واقتطعت جزءاً كبيراً من الإمبراطورية الرومانية قد دخلت المسيحية منذ القرن الحادى عشر ، وبقى المسلمون هم العدو الدائم[٤] لهذا صور المؤرخ الأوروبى أعمال العثمانيين بصورة النهب والسلب ، ونحى عنهم أعمالهم الحسنة ، ولعلنا لانجد فى التاريخ أمة ظلمت كهذه الأمة ، ولانقول أنها خلت من العيوب ولكن محاسنها طويت وأغضى عنها نهائياً .

---

(١) انظر الدولة العثمانية دولة مفترى عليها للدكتور عبد العزيز الشناوى جـ١/١٤ - ١٥ .
(٢) نفســه .
(٣) تراث الإسلام ١/٢٨ - ٢٩ .
(٤) نفســه

وكان الأتراك فى أوروبا - كما كان العرب فى الشرق ملاذ المسيحيين من المسيحيين ، فقد كان المذهب البروتستانتى قد ظهر ومال إليه الكثيرون ، فكان الكاثوليكيون يعاقبونهم على ذلك عقاباً أليماً حتى ضاقوا وتمنوا الخلاص منهم بوجه عام ، وكان الذين يستطيعون الإفلات يفرون إلى الأراضى التى استولى عليها المسلمون ، وفى هذا يقول مارتن لوثر أن الفقراء المسيحيين يفضلون أن يعيشوا تحت حكم الأتراك على العيش تحت حكم المسيحيين الذين يعاملونهم معاملة ظالمة[1] . هذا فضلاً عن سوء المعاملة الذى كانوا يلقونه من الإقطاعيين .

وفوق هذا وجدت الكنيسة فى روما فرصة سانحة للتخلص من الكنيسة الشرقية ، فطلب البابا فى روما لكى يساعد القسطنطينية ضد الأتراك أن تخضع الكنيسة الشرقية لنفوذه ، وكان ذلك أمراً مستحيلاً وقد كتب إليه وزير الدولة البيزنطية بكلمته المشهورة « إنى أفضل أن أرى فى شوارع القسطنطينية عمامة محمد علىَ أن أرى تاج البابا أو قبعة الكاردينال » وكانت الفكرة الصليبية قد اندثرت نهائياً فى نفوس الأوروبيين ، وكان لابد للقسطنطينية أن تستسلم .

والدولة العثمانين لذلك كريهة لدى الأوروبيين ، لأنها تمثل الإسلام عدو أوروبا الألد ، وهى - حيث عاصرت الحروب الصليبية - حاربت الصليبيين فى أوروبا ، ونالت منهم نيلاً بليغاً وكانت تعنى بالشعائر والمظاهر الإسلامية والمحافظة على آثار الرسول ﷺ ، وتعنى بالحرمين الشريفين .. وكل هذا بَغَّضَـهَا لدى الأوروبيين ، وحتى كانوا يسمون المسلم تركياً .

٥ - تسامح العثمانيين :

بدخول محمد الفاتح مدينة القسطنطينية - عاصمة الدولة البيزنطية سنة ١٤٥٣م توطدت علاقة صداقة بين الحكومة الإسلامية والكنيسة الشرقية

---

(١) من كلمة طويلة انظر : الدولة العثمانية ١/١٥ .

بصفة لم تكن مرتقبة ، فقد أعلن السلطان الفاتح نفسه حامى الكنيسة الإغريقية ، وأصدر مرسوماً يضمن للبطريق كل الحقوق التى كانت له وتولى بنفسه تسليم أول بطريق عين فى عهده عصا الأسقفية وكيس الذهب الذى به ألف دوكة ذهبية ، وأمر له بجواد ممتاز كان يتجول به فى المناسبات خلال المدينة تحف به حاشيته ، وأكثر من هذا أن كان مخولاً له الفصل فى قضايا الإغريق بجانب شئون العقيدة والشريعة المسيحية ، وكان له وللأساقفة حق الفصل فى بعض القضايا المدنية وبوجه عام شعر المسيحيون –وهم فى ظل الحكم التركى – أنهم يتمتعون بمزايا عديدة وباحترام لم يكن لهم من قبل[١] .

كان الإغريق وهم كثرة بجانب الأتراك الغزاة – يفضلون سيادتهم عليهم ، ويعتبرونهم مخلصين لهم من أنواع الظلم الفادحة التى عانوها من الفرنجة وأهل البندقية ، وكان من الطبيعى أن يوازنوا بين حالهم فى ظل الحكم التركى الذى اعتبر المساواة قانوناً طبيعياً ، وحال القبارصة الذى مازالوا تحت حكم البنادقة إذ كان البنادقة يعتبرونهم عبيداً ، ويدفع الواحد منهم ثلث ماله للبنادقة ، بينما كانت الجزية المفروضة على المسيحيين تحت حكم الأتراك تتراوح بين مايبلغ نحو ٢ ، ٥ ، ١٠ قروش على كل ذكر بالغ ، وذلك بحسب دخله ومقدرته المالية ، وأعفى النساء والصغار والمسنون والعجزة ، وقد اختلفت هذه الضريبة بين حين وآخر ولكن هذا كان هو الحد الأقصى[٢] .

إزاء هذا التسامح وحسن المعاملة أقبل الكثيرون على الإسلام ، ولكننا لا ننسى أن دعوة الأتراك للإسلام كانت فى مهد الدولة المسيحية ، وفى بلاد

---

(١) انظر تفاصيل واسعة مفيدة فى كتاب الدعوة إلى الإسلام ص ١٧٠ وما بعدها .

(٢) نفسه ١٧٦ – ٧٨ –وإعلان محمد الفاتح حماية الكنيسة الشرقية يعنى حمايتها من كنيسة روما وتحدث العالم اللاهوتى Tumothy Ware فى كتابه The Arthodox Church عن تسامح الأتراك وعدم إكراههم على الإسلام ، وقد كان منصب البطريركية شاغراً حين مجىء محمد الفاتح فعين بطريركا : وسلمه بيده العصا وكيس النقود ومنحه جوادا ، انظر الفصل الخامس من ص٩٦– ١١٢ ، وانظر الدولة العثمانية .

تجاور روما والكنيسة الأم للعالم كله ، لهذا كان الصد عن الإسلام والتحذير منه متوفراً ، ومن جانب آخر كان غزو العثمانيين أوروبا أمراً شاقاً أليماً لدولة تعتبر نفسها سيدة الشرق . ومن جانب ثالث كان العصر عصر الغزو الصليبى ، عصر تحفز الكنيسة والدول الكبرى المتحالفة لنسف الإسلام والقضاء عليه ، وكل هذا يوضح سبب تحامل الكتاب الأوروبيين على الدولة العثمانية ، وهو تحمل شابه كثير من تزييف الأحداث ، وافتراء الأكاذيب على الأتراك وهو يشبه أن يكون دعايات حربية .

٦ - لا إكــراه فى الــدين :

كانت الوصايا من السلاطين الأتراك بحسن معملة المسيحيين مرعية ، وكان الوعيد الصارم لمن يضطهد واحداً منهم مرهوبا ، وكانت الجزية كما رأينا هينة ، لا تكفى أن تكون سبباً لتحول شخص عن دينه ، وفيما كتبه غير واحد من هؤلاء الأعداء يبدو إقبال الذين أسلموا على الإسلام كان عن طواعية ورغبة .

يقول أحد الكتاب الانجليز فى كتاب أخرجه سنة ١٧٠٠م عن إسلام قبائل الكانديوت Candiot وهو ينحى عليهم باللوم لقبولهم الإسلام : إن هؤلاء التعسين يبيعون أرواحهم بما يسوى بنسا بإعفائهم من ضريبة الرأس التى لا تجاوز خمسة ريالات فى العام[١] .

ويقول آخر : إن دوكة واحدة لكل رأس شيء « تافه »[٢] .

وهكذا يقرر أعداء الأتراك من حيث لا يشعرون حسن معاملة المسلمين .

أما عن الأسباب الحقيقية التى دفعت إلى اعتناق الإسلام فهى قبل كل شيء فساد الحكم فى هذا الوقت إذ كان رعايا الحكومات المسيحية يعانون مظالم لا تحتمل بينما كان الأتراك يعلنون عدالة الإسلام ورفقه ببنى الإنسان ، ثم كانت حال

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام ١٨٢ .

(٢) نفسه والدوكة عملة تركية تعادل القرش .

الكنائس ورجال الدين . والتناحر بين الكاثوليك والأرثوذوكس قد بلغت درجة الوحشية ، وتحدث بطريق إنطاكية فى ذلك الوقت عن عدوان البولانديين الكاثوليك على الروس التابعين للكنيسة الشرقية الأرثوذوكسية فجاء فى كلامه :

« إننا ذرفنا الدموع غزيرة على آلاف الشهداء .. فيأيها الخونة ... ماذا صنع الراهبات والنساء ، وماذنب هؤلاء الفتيات والصبية والأطفال الصغار حتى تقتلوهم » .. أدام الله دولة الترك خالدة إلى الأبد[١] .

فهم يأخذون مافرضوه من الجزية ولايعارضون الدين ، سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين[٢] يهودا أم سامرة ، أما هؤلاء البولانديون الملاعين فلم يقنعوا بأخذ الضرائب والعشور ... بل وضعوهم تحت سلطة اليهود الظالمين أعداء المسيح ، الذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا الكنائس ، ولا بأن يتركوا لهم قسسا يعرفون أسرار دينهم[٣] .

هذا مايوضح سبب التحول إلى الإسلام ، ولكنه للأسباب التى سبقت - لم يكن تحولاً واسعاً - وكانت الآراء التى أشاعها لوثر وكالفن ، عن الكنيسة الكاثوليكية قد كشفت أن روح الإسلام وقوانينه أولى بالاتباع . وفى القرن السابع عشر ، وحين كانت الدولة التركية أقل بأساً زاد عدد المرتدين عن المسيحية زيادة هائلة لم تحدث فيما سبق ، وتدل كثرة المرتدين من الطبقة الوسطى والدنيا على أنهم كانوا يعانون ظلماً فادحاً ممن فوقهم ، ومع ذلك فإن عدداً غير قليل من رجال الكنيسة ومن ذوى المناصب العليا وأسماها مقاماً دخلوا الإسلام ، كذلك دخله بعض الرهبان ، وفى إحدى المناسبات دخل الإسلام فى مدة ثلاثة عشر يوماً مالا يقل عن مائتى شخص[٤] .

(١) نفسه والأتراك هم المسلمون .

(٢) الناصريون النصارى الأصليون من الشرق ، والمسيحيون الذين دخلوا المسيحية من أهل أوروبا .

(٣) نفســه ١٨٣ .

(٤) نفســه ١٩٢ .

وكتابات الكثيرين من المعاصرين تكاد تحصر أسباب الارتداد عن المسيحية فى أسباب ثلاثة هى تسامح الأتراك ، وفساد رجال الدين المسيحى وتناحرهم ، وتقرير الإسلام حقوق الإنسان من عدالة ومساواة وحرية ، وكان المضطهدون من البروتستانت يلجأون إلى الدولة التركية ، لا ليسلموا ولكن لينعموا بالأمن وحرية العقيدة ، وكذلك اليهود الذين حاف عليهم حكام أسبانيا كانوا يلجأون إلى دولة العثمانيين[1] وحين شاخت الدولة التى عمرت أكثر من ستة قرون توالى على مسلميها ألوان من الظلم ، وأسرف الكتاب الأوروبيون فى وصفها بالصفات الذميمة ، ولكن مع هذا كله لم يمح الإسلام نهائياً من مملكتها التى انتزعت منها ، ولا يزال فى اليونان والمجر وبلغاريا وغيرها مسلمون ، وفى بلغاريا الآن حركة تنصير تقوم بها حكومتها الماركسية ، وهى من أشنع وأحط ما شهد التاريخ .

وأود فى هذا الصدد أن أراجع طرفاً من حياة المسلمين فى بلغاريا .

٧ - الخلافة الإسلامية فى العهد العثمانى :

منذ سقطت بغداد فى يد هولاكو سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) - وقتل الخليفة العباسى سنة ١٢٤٢ - صارت الدولة الإسلامية بدون خلافة ، وفى سنة ١٢٦٢م استطاع القائد المملوكى بيبرس أن يحطم الجيش المغولى فى عين جالوت[2] ولم يكن هولاكو فى هذه الموقعة ولكنه لم يستطع استرداد شيء مما فقده فى أرض سوريا ، ومع أن الخليفة العباسى فى ذلك الوقت ، ومنذ زمن سابق كان قد فقد سلطانه السياسى بقيت له قوة روحية ، ولذا رأى الظاهر بيبرس البندقدارى (١٢٦٠ - ٧٧م) أن يؤيد مركزه الحكومى بوجود خليفة إسلامى فى مصر يمده بالقوى الروحية إلى جانب انتصاراته الحربية وأعماله

(١) نفسه ١٨٢ ، وكان ذلك فى القرن الخامس عشر ، وكانوا جموعاً كبيرة .

(٢) كان السلطان المملوكى فى مصر هو قطز ، وكان هولاكو قد استولى على عدة مدن وحاصر دمشق وبلغه موت أخيه فى فارس فرجع إليه .

الإسلامية[1] فاستقدم عما للخليفة القتيل ، كان قد أفلت من بغداد إلى دمشق ، فأحضره إلى مصر سنة ١٢٦١م ، وأعلنه خليفة ولقبه المستنصر . وأقام احتفالاً بالغ الروعة ، وفرح به المسلمون ، ومشى فى موكبه اليهود والمسيحيون يحملون كتبهم المقدسة ، وانعقد مجلس من العلماء حكم بصحة نسب الخليفة وبصحة بيعته خليفة ، وبعد أن تبوأ هذا الخليفة المسكين منصبه أصدر قراراً يعطى الظاهر بيبرس حق ولاية البلاد الإسلامية ، وبذا ظفر السلطان بما كان يريد .

ولم تطل حياة الخليفة المسكين ، فقد حمل الطموح بيبرس أن يسترد بغداد وأن يعيد الخليفة إلى عاصمة أجداده منذ عهد أبى عبد الله السفاح ، ولكن حملة بيبرس لم تنجح واستولى المغول على الخليفة فى صحراء الشام فابتلعه التاريخ ولم يعرف عنه شيء بعد ، ثم جاء إلى مصر عباسى آخر أقامه بيبرس خليفة أيضاً وسماه الحاكم ، وبقى الحاكم وحفدته يتقلدون الخلافة فى مصر حتى دخلها السلطان سليم العثمانى ١٥١٧ فوجد بها آخر خلفائها وكان يسمى المتوكل[2] فأخذه معه إلى القسطنطينية ضمن الذين نقلهم من القضاة والعلماء ، ولم يكن راضياً عنه لسوء سلوكه وعدم إخلاصه له فسجنه ، وجاء بعد سليم سليمان القانونى (سليمان المشرع) فأعاده إلى مصر ، فكان ينضم إلى الثائرين وأعداء العثمانيين حتى مات سنة ١٥٤٣ .

ويبدو أن عداءه المستمر للعثمانيين سوغ المبالغة فى ذمه ووصفه بأشنع

(١) انظر عن بيبرس تاريخ أبى الفداء جـ٤ ولبيبرس حروب ضد الصليبيين ويعتبر المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر – ثم هو الذى مهد لخلفائه – قلاوون والأشرف – مد الدولة والقضاء على الفرنجة وله إصلاحات اجتماعية كثيرة .

(٢) كان السلطان الغورى قد اصطحبه إلى الشام واصطحب قضاة المذاهب وأرباب الطرق ، وأعاد السلطان سليم الخليفة معه إلى مصر ، وكان طومان باى قد خلف الغورى حاكماً على مصر ، فأعاد الخليفة المستمسك والد المتوكل خليفة ، وكان قد تنازل عن الخلافة لابنه لكبر سنه ، ولكن السلطان سليم ثبت المتوكل رجاء أن ينال منه تأييداً ، وكان الجميع غاضبين على العثمانيين .

صفات السوء . وبموته انتقلت الخلافة إلى السلطان سليمان ، ولا يعرف لنقلها إليه سند حقيقى ، ولكنه أعلن إذ ذاك أن الخليفة المتوكل كلن قد تنازل لأبيه عنها وسلمه شعائرها ، وهى بردة النبى ، وبعض شعرات من لحيته وسيف عمر ، وهذه الشارات كانت فى الاستانة منذ فتح سليم مصر ونقله منها مانقل[1] .

٨ - بنو عثمان خلفاء المسلمين :

مهما يكن من شأن تنازل المتوكل فإن الخلافة أصبحت فى بنى عثمان بعد موته وظلوا يتوارثونها حتى سنة ١٩٢٤ ، وكان سليمان القانونى آخر سلاطين العثمانيين الأقوياء ، وجاء بعده سلاطين لم يرعوا حق الخلافة ولا واجب الدين ، وكانت الدولة الواسعة المترامية الأطراف الراسخة الأركان ، قد ألفت الأمن وحب الدعة ، وانغمس الخلفاء فى الملذات وحياة اللهو والترف حتى كانوا يسمون أحياناً السلاطين التنابلة[2] والواقع أنه لم يعترف بالعثمانيين خلفاء إسلاميين فى خارج دولتهم حتى سنة ١٧٧٤م فى المعاهدة التركية الروسية ، هذا على الرغم من أنها قبل ذلك كانت قد أخذت فى الانكماش ، فقد واجهت هزيمة حربية نكراء اضطرت بسببها أن تعقد معاهدة ذليلة سنة ١٦٩٩م وبها خرجت مساحات واسعة من ممتلكاتها ودخلت تحت حكم أعدائها المسيحيين ، ومنذ سنة ١٨٦٤م أخذت روسيا تقتص من أراضيها فى تركستان ، وفى مدة وجيزة استولت على طشقند وسمرقند ، ثم استولت على بعض الأراضى الأفغانية وقسمت فارس بين روسيا وبريطانيا ، ثم امتدت الأطماع الاستعمارية إلى إفريقية ، وتكالبت الدول الأوروبية الكبرى على ميراث «الرجل المريض» الذى ظل فى أمراض لا يموت فيها ولا يحيا .

---

(١) كان أمير مكة هو الشريف بركات ، وقد أرسل ابنه على رأس وفد للسلطان سليم معه مفاتيح الكعبة ، وبردة رسول الله - وسجادة صلاة ، والعلم النبوى ، وقوساً وسهماً وحذاء فرس ، وسنا من أسنانه الشريفة وشعيرات من لحيته ، ونسختين من القرآن قيل أنهما كانتا للخليفتين عثمان وعلى ، عدا مجموعة أدوات وثياب .. وخصصت لها الدولة مكاناً خاصاً ، وحرساً يقوم عليها (انظر الدولة العثمانية ١/٢٠ - ٢٣) .

(٢) بمعنى الكسالى والمتعطلين .

وحين وصلت الدولة العثمانية إلى هذا الضعف وقفت الدول الأوروبية كلها منها موقف العداء وظلت تتحين نهايتها ، وكانت قد أخذت فى التقلص ، وأخرجت من أواسط أوروبا ونابلى ، وكانت هذه المعاداة فى حقيقتها معاداةً وحرباً صليبية من نوع جديد .

٩ - العثمانيون فى الشرق :

امتد نفوذ العثمانيين فى الشرق منذ فتح السلطات سليم سوريا ومصر ، فبسطت سلطانها على ساحل البحر الأبيض حتى المحيط الأطلسى ، وامتد من الجانب الشرقى فشمل الجزيرة العربية والعراق ، وسرت تقاليد العثمانيين ونظمهم فى الملابس والأبنية والعناية بالمساجد والتكايا والطرق الصوفيه إلى أرجاء أخرى بعيدة ، ولا تزال توجد آثارها فى الهند وما حولها ، وقد أكسبت العالم الإسلامى وحدة لم تتوفر للدولة العباسية ، وحين الت حكوماتها إلى الحكام الضعاف توثبت الدولة الأوروبية للنيل منها ، ووقفت الكنيسة من وراء السياسيين تشجعهم تارة وتستفيد من نفوذهم فى تنشيط التبشير تارة أخرى ، وكانت النهضة الأوروبية آخذة فى الازدهار حين كان هؤلاء الحكام يغطون فى نومهم العميق ، وقبل الحرب العالمية الأولى بزمن غير قصير كانت انجلترا وفرنسا تتدخلان أكثر من غيرهما فى شئون الرجل المريض ، وتتقاسمان ميراثه قبل موته ، وكان حادث أحمد عرابى هو القشة التى قصمت ظهر البعير ، وبجانب أعمالها السياسية أعطت التبشير دفعة جريئة .

١٠ - جهود العثمانيين الإسلامية :

كانت الدولة العثمانية حريصة دائماً على أن تظهر بمظهر إسلامى ، وأن تكون سماتها العامة سمات إسلامية ، وكان وضعها السياسى يقتضى ذلك ، ومع أن رعاياها غير المسلمين كانوا يتمتعون بحرية دينية لا يوجد مثلها فى البلاد الأخرى لم تخل تصرفاتها من تعصب . وكان أهم مواقفها ضد المسيحية هى

حروبها فى أوروبا التى سبق ذكرها ، وبسبب هذه الحروب كانت الدول الأوروبية دائماً عدوا لها ، وفيما عدا هذه الحروب كانت مظاهرها الإسلامية وحرصها على صبغ الدولة بالصبغة الإسلامية مقاومة ذاتية للتبشير . وحيث أنها كانت تعاقب من يخالف التقاليد الإسلامية فأحرى ألا تسمح بنشاط تبشيرى مسيحى فى بلادها .

وعلى سبيل المثال كان الناس فى شهر رمضان يبلون جميعاً صائمين ، ولا يسمح لغير المسلم أن يجهر بفطره ، ومن تجرأ على الإفطار جهراً أو تناول مسكراً عوقب وجرس(١) .

وعنيت الدولة ببناء المساجد وزخرفتها ولا تزال مساجدها باقية(٢) .

وبنى محمد الفاتح بجانب المسجد الكبير مسجد آخر كان يسمى المسجد المحمدى أو الجامع المحمدى نسبة إليه ، بناه على أنقاض كنيسة كانت تسمى الكنيسة الرسولية ، وكانت مدفناً للأباطرة ، وعندما كشف موقع مقبرة أبى أيوب الأنصارى(٣) فرح بهذا الكشف ، وهو على مقربة من أسوار القسطنطينية ، وفرح به الجيش العثمانى ، وشيد الفاتح له مسجداً وصالة تقام فيها الحفلات الدينية الرسمية عندما يرتقى سلطان عثمانى عرش الدولة .

---

(١) كان الشخص الذى يشهر به هو المفطر أو من يشرب كحوليات نهاراً ، والتشهير أن يحلق جانب من لحيته وجانب من شاربه ، ثم يركب حماراً ووجهه إلى خلفه ويقبض بيده على ذنبه .... ثم يطاف به ، فيصفع ويسب ويشتم ويصيح الصبية من حوله ... وبعد هذا كله يسجن ، ولذا كانت المحافظة على المظهر الدينى مرعبة دائماً .

(٢) كان الباشوات وحكام الأقاليم يطلب منهم بناء مساجد فى بلادهم ، ومسجد سليمان باشا فى القلعة بمصر من هذه الآثار ، وكذلك كان الولاة يقومون كطلب الخلفاء بإصلاح المساجد القديمة وترميمها وتوسيعها أحياناً ، وقد نال الأزهر من هذا حظاً كبيراً .

(٣) أبو أيوب الأنصارى هو الصحابى الذى نزل رسول الله -ﷺ- فى داره عندما هاجر إلى المدينة وكان محارباً شارك فى فتح صقلية على عهد معاوية ، وكان فى حملة بقيادة يزيد لفتح القسطنطينية فمات هناك ودفن قريباً من سور القسطنطينية ، ورأى الرومان أضواء عند قبره ، فاعتبروه قديساً وعظموه - فكان معظماً من المسلمين والمسيحيين ثم الأتراك .

وكان العثمانيون منذ أن هزموا الشاه إسماعيل ودخلوا تبريز عاصمة بلاد فارس سنة ١٥١٤ ، ثم بعد تسليم الحجاز إليهم مفاتيح الكعبة ودخوله تلقائياً فى دولتهم - قد شعروا بسيادة إسلامية ، واعتبروا أنفسهم حماة الإسلام وأصحاب دولته الكبرى ، ورأوا أن من واجبهم أن يعززوه ويعملوا على نصره ، وأن فى هذه الأعمال تأييداً لسلطانهم ، وكان الخليفة العثمانى منذ عهد السلطان سليم ، ومنذ أن أرسل شريف مكة ابنه إليه بالقاهرة ليسلمه مفاتيح الكعبة ويعلن ولاء الشريف له واعتراف الحجاز بالسيادة العثمانية عليه - منذ ذلك الحين تمسك وتمسك من بعده بألقاب حامى الحرمين الشريفين وخادم الحرمين .

وأولى العثمانيون إقليم الحجاز عناية خاصة ، وأعفوه من الضرائب ، ولا تزال بالمسجد النبوى بالمدينة المنورة آثار تركية من الخطوط الجميلة والمحاريب .

وشىء آخر ذو أهمية فى حياة أوروبا الاجتماعية وهو أن العثمانيين أشاعوا بينهم نظام الفتوة والفروسة الإسلامية ، وكان أصحاب هذا النظام يسمون الآخية الفتيان ، من كلمة «آقى» التركية وهى تعنى الشجاع الكريم أو الشهم .

وإذا كان جوستاف لوبون قد أسف لفقدان صفات الفروسة العربية والإسلامية التى أدخلها العرب المسلمون أسبانيا ، فإن الأتراك قد أحيوا صورة منها فى شرق أوروبا .

إزاء شيوع الروح الإسلامى فى جميع أنحاء الدولة العثمانية الكبيرة لم يكن للتبشير المسيحى مجال فى ربوعهم ، وقد انتشرت التيارات الصوفية وأرباب الطرق فى أنحاء البلاد ، ومهما يكن من أمرهم فقد كان أثرهم كبيراً فى إشعار الشعب بالروح الإسلامى واستقامة سلوكه وتعلقه بأهداب الدين ، وفى هذه الأوساط لا مكان للتبشير .

١١ - حركة الجامعة الإسلامية :

هذه الحركة دعا إليها الشيخ جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ - ١٨٩٧م) -وهى دعوة إلى توحيد صفوف المسلمين حكومات وشعوبا ، وانقيادهم جميعاً لمبادىء واحدة هى مبادىء الإسلام ، ولم تكن الدعوة مقصورة على أبناء الدولة العثمانية ، بل كانت تدعو المسلمين فى كل أنحاء الأرض إلى الالتفاف حول القرآن وراية الإسلام ، واحتضن العثمانيون هذه الفكرة وتحمسوا لها ، وكان فيها رفع لشأن الخليفة ، ولكنها لم تكن قائمة لتأييده ، وإنما كانت أهدافها إيقاظ المسلمين وتخليصهم من سيطرة الغرب ، ومما تورطوا فيه من الجهل والخرافة وأزمات الاقتصاد وتخلف الصناعات ، مما سوغ للغرب أن يستولى عليهم ويدخل فى شئونهم .

وخشيت أوروبا عواقب هذه الدعوة ، وزادَ نشاطُها كراهة الغرب للأتراك ، فعمل الغرب كله على مقاومتها .

وقام فى أوروبا حركتان على نسق الجامعة الإسلامية هما الجامعة الصقلية والجامعة الجرمانية :

دعت الجامعة الصقلية إلى تلاحم الصقالبة فى أوروبا كلها ، وإعدادهم عدة كافية لصد النفوذ العثمانى والتخلص من العثمانيين على نحو ما دعا هؤلاء إلى التخلص من الأوروبيين ، وكان الصقالبة يضيقون بالألمان ويريدون أيضاً زوال نفوذهم ، وكانت روسيا تطمع أن تحقق من وراء هؤلاء نفوذاً واسعاً يمتد إلى غرب أوروبا .

وعملت حركة الجامعة الجرمانية على تكوين وحدة جرمانية تسيطر على وسط أوروبا وطرد العثمانيين ، ثم السيطرة على بقية أجزاء القارة لتقهر فرنسا والصقالبة والأتراك جميعاً[١] .

---

(١) أنظر أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ص ٧١ هامش .

١٢ - إلغـــاء الخــــلافة :

كانت تركيا بحكم العداء بينها وبين جارتها روسيا تقف مع دول المحور فى الحرب العالمية الأولى، وأدت هزيمتها إلى اقتطاع ممتلكاتها الواسعة، وكان كمال أتاتورك وحزبه من قبل يناوىء السلطان عبد الحميد الثانى حتى كان حزبه يكون هيئة ثانية حاكمة، وبعد الحرب قاد حروباً أحرز فيها انتصارات كان الناس يعتبرونها نصراً للإسلام وبها تغنى شوقى أمير الشعراء، ثم فاجأ الناس بما لم يكن يتوقعه أحد إذ أعلن إلغاء الخلافة الإسلامية نهائياً، وزاد فأعلن أن تركيا دولة علمانية[1] ليست بذات دين أصلاً وأثبت ذلك فى دستورها .

وقد اختلف الناس كثيراً فى شأن أتاتورك (أبو الترك) فقيل إنه من أصل يهودى، وأنه لم يدن بالإسلام من قبل ولا من بعد، وقيل مسلم ارتد وألحد، والله أعلم بحقيقته، وأعماله ضد الإسلام قريبة الشبه بأعمال الأسبانيين والنورمانديين، وأعداء الإسلام فى أوروبا كلها، أغلق كثيراً من المساجد فى الآستانة، ومنها مسجد أياصوفيا العظيم وحول عدداً من المساجد إلى مصانع ومتاحف ومخازن، وبقى المسلمون على إسلامهم مع كل هذا التضييق الذى أوذوا به، ولكنه جعل اللغة التركية تكتب بالحروف اللاتينية، وكانت تكتب بالحروف العربية، فحال بين النشء التركى وبين قراءة التراث الإسلامى الذى كتب بالحروف العربية .

وهكذا قدم أتاتورك لأعداء الإسلام من المستعمرين ورجال الكنيسة والمبشرين هدية ماكانوا يحلمون بها . وأصيب الإسلام والمسلمون بفقدان الرباط الروحى والسياسى الذى كان يربطهم جميعاً ويشعرهم على بعد الديار بوحدة وإخاء، ويجمعهم تحت مشاعر وعواطف مشتركة، وصار العالم الإسلامى مفككا يعتدى على أى دولة منه فلا تشعر الأخرى بعدوان ولا تجد لها حقاً فى التدخل .

---

(١) العلمانية نسبة إلى علم (بفتح العين) بمعنى الكون —أى أنها دهرية لا تؤمن بوجود الخالق .

ويروى الكثيرون أن أصابع الصهيونية كانت وراء عزل السلطان عبد الحميد الثانى منذ سنة ١٩٠٩م ثم ظلت تلعب فى الخفاء من بعده[١] .

ومن أعمال أتاتورك أنه ألغى منصب شيخ الإسلام ، ووزارة الأوقاف ، ونادى بأن الإسلام عبادة فقط ولا علاقة له بشئون الدنيا ، وجعل الصلاة تؤدى باللغة التركية ، حتى الآذان بها أيضاً ، وأمر بترجمة القرآن إلى اللغة التركية ، لا ليفهم معناه بل ليتعبد به المتعبد فى هذه الترجمة ، وترجم الأحاديث النبوية ، ورصد مبالغ كبيرة لهذه الترجمة ، وهى فى الواقع إفساد للإسلام وهو لم يبق على ما ترك من المساجد إلا اتقاء لغضبة الشعب ، وحارب كل مظهر إسلامى وحرم الملابس العربية ، ومنع أئمة الإسلام من لبس العمامة ، وسمح لهم فقط بلبس العباءات أو الجبب داخل المسجد ، وحتى اسمه منع منه كلمة « مصطفى » واكتفى بكلمة كمال[٢]

كانت أعمال أتاتورك ذات أثر كبير على الإسلام كله ، وكانت نصراً كبيراً للصهيونية ورجال التبشير جعلت الغاضبين على السلطان عبد الحميد يتمنون عهده .

ومما لا ينسى للسلطان عبد الحميد الثانى وقفته الصلبة الحميدة ضد البناء الصهيونى ، فقد حال دون هجرة اليهود إلى فلسطين ، وسمح لهم بأداء عبادتهم على ألا تزيد إقامة الزائر منهم على شهر ، ولما اشتد ضغط الدول عليه زاد المدة إلى ثلاثة أشهر ، أما فى سائر أجزاء الدولة فأباح لهم التوطن على ألا يكونوا كثرة ولا متجمعين وأن يحملوا الجنسية العثمانية وكان يهود روسيا عقب كشف المؤامرة على القيصر سنة ١٨٨١ تعرضوا لإهانات وتعذيب بالغ وكانوا يريدون الهجرة إلى فلسطين ، فلم يسمح لهم الخليفة ، وبذا انضم إلى أعدائه المسيحيين

---

(١) راجع أعمال هذا الخليفة ضد الصهيونية وإقامة اليهود فى فلسطين وقد سبق الإشارة إليها - (انظر الدولة العثمانية) مرجع سابق .

(٢) انظر الدولة العثمانية جـ٢/١٢١ - ٢٢ ولم يتم له الأذان ولا التعبد بقرآن مترجم ، وبعد موته نال المسلمين شيء من التحسن .

عدو جديد من اليهود ، ودبر اليهود والانجليز مكايد خفية للإطاحة بهذا الخليفة .

وبزوال الخلافة نهائياً انكسر الحاجز أمام المستعمرين والمبشرين ، إذ كان التبشير أحد الأسلحة التى يستخدمها الاستعمار ، وخدعت الأقطار العديدة باسم الاستقلال ، وكان من الممكن أن تكون ولايات ذات رياسة واحدة على نحو ماهو جار فى الولايات المتحدة ، فتظل لها قوتها وتماسكها ولأن الإسلام لا يعترف بهذا التقسيم ويرى المسلمين أمة واحدة مهما تباعدت أماكنهم يرى الأوروبيون فى دعوته خطراً يسجب أن يقاوم ، ويرون فى دعاته عدواً لدوداً لهم ، وبهذا الشعور كانت مساندة التبشير وتشجيع دعاته إن لم يكن على تنصير المسلمين فعلى إضعاف الروح الإسلامى وقتل حميته ، وهو من جانب آخر تخطيط لتكفير المسلمين بمحو الفكرة الإسلامية من أذهانهم .

رابعاً : فى بلغـــاريا

١ - مقـــدمة :

دخل المسلمون بلغاريا - كما ذكرنا من قبل - فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر ، حين عبر السلطان أورخان بحر إيجه ، ومنذ ذلك الوقت ظلت الدول الأوروبية تحمل الكراهة والأحقاد للدولة العثمانية ، كما ظلت تعمل لكيدها وتأليب الشعوب عليها ، وعندما ضعفت الدولة كثرت الثورات ضدها ، وعملت الدول الأوروبية على تأليب الثائرين وإمدادهم بالقوى والأسلحة ، وتغذية أفكارهم ببغض العثمانيين ، وتضخيم سوءاتهم ، وتنفير الأوروبيين من الإسلام والمسلمين ، ونجحت هذه الدول فى الدسائس ، وإثارة العداء بين المسلمين والمسيحيين فى الأراضى العثمانية ، وساعد على هذا النجاح غفلة الدولة العثمانية ، وتركها المجال فسيحاً أمام العابثين ، فقام فى جنوب أوروبا عدد من الثورات كانت الخسارة فيها على الدولة غير هينة ، فى اليونان وأراضى المورة ، وفى البلقان وبلغاريا وغيرها ، وكان القرن التاسع عشر مليئاً بالمذابح الدينية .

وفى سنة ١٨٧٥ بدأت الثورة تندلع فى بلغاريا ثم امتدت إلى البلقان كلها ، وامتازت هذه الثورة بأن عدداً أكبر من الدول والشعوب الأوروبية انغمس فيها ، ووجد هؤلاء فرصة جديدة لإعادة المسألة الشرقية ، وتقاسمهم ممتلكات الدولة المريضة ، وكانت روسيا أسبق وأكثر اهتماماً لما بينها وبين تركيا من عداء ، فدست عدداً من المسيحيين الصقالبة الأرثوذوكس ، فبثوا بين الثائرين أن روسيا ستمدهم بالأسلحة والمؤن ، كما أشاعت أن الدولة العثمانية متعصبة ضدهم وتعمل على كيدهم .

٢ - أســباب هينــة :

ضاق الشراكسة المسلمون فى روسيا بما تصبه عليهم من ظلم ، ففر جمع منهم إلى تركيا احتماء بها على الأقل كما احتمى بها اليهود من ظلم الأسبان ،

فاتخذ الروس من هذا الحادث حجة لإفهام ابلغاريين أن الدولة أحضرت هؤلاء المسلمين لتقطعهم أرضا ، وترد البلغاريين عبيداً لهم .

وفى سنت ١٨٧٦م قام البلغاريون بهجوم على المسلمين العزل فذبحوا منهم وقتلوا ، ولم يبالوا بحال الشيوخ أو النساء أو الأطفال ، واضطر الوالى العثمانى أن يمد المسلمين بما لديه من أسلحة ليدافعوا عن أنفسهم ، فقتلوا من المسيحيين أيضاً وذبحوا ، وقد كانت مدينة « باتاق » أشنع ماتمثلت فيه هذه الوحشية إذ كان سكانها سبعة آلاف بقى منهم ألفان اثنان .

ورد فعل لهذه الأحداث قامت مظاهرات ضد السلطان عبد العزيز انتهت بعزله ، وخلفه مراد الخامس ، فعزل بعد ثلاثة شهور ، وتلاه عبد الحميد الثانى وكان ذا نزعة دينية وحرص على الإسلام ولكنه جاء فى فزع الأحداث واضطرابها ، واطمع الموقف المضطرب ثوار البلغار فأمعنوا فى تذبيح المسلمين وأسرفوا فى العدوان على الضعاف من الشيوخ والنساء والأطفال .

وكان موقف الخليفة الجديد أمام الدول الأوروبية غاية فى الحرج ، ففى هياج الثورة اتهم بالضعف وعدم الصلاحية، ولما أرسل قوة لإخماد الثورة أرجفوا بأنه يعامل البلغاريين بوحشية وضراوة وأنه يريد القضاء على المسيحية .

وتصادف فى هذا الوقت العصيب أن فتاة مسيحية اعتنقت الإسلام ، ولبست الحجاب ، فانقض عليها جماعة مزقوا حجابها واختطفوها وكانت فى طريقها إلى القاضى لتعلن إسلامها ، وأخفوها فى دار القنصل الأمريكى ، وغضب المسلمون وذهبوا إلى الوالى العثمانى طالبين إنقاذ الفتاة ، فلم يستطع ، وبينما كان المسلمون مجتمعين فى بعض المساجد ، غاضبين على الوالى وعلى قناصل أمريكا وفرنسا وألمانيا ، لأن الآخرين أيضاً ممن شايعوا الثورة ضد المسلمين ، وكانت الإشاعة قد فشت بأن الفتاة فى بيت القنصل الألمانى ، خلال هذه الضجة ، حضر القنصلان -الفرنسى والألمانى- إلى المسجد فشغب عليهما المجتمعون فقتلوهما .

٣ - مؤتمـــــر دولى :

انعقد فى برلين مؤتمر ضم بسمارك الداهية الألمانى ومندوبين من النمسا والمجر وروسيا - وجميعهم من أعداء تركيا وأعداء الإسلام ، فرأوا كتابة مذكرة تهديدية عنيفة إلى تركيا تطالبها بحماية المسيحيين فى أراضيها ، وهددت باستخدام القوة لتنفيذ ما جاء فى المذكرة وكان ما جاء فيها مهيناً مذلا .

وطلب المؤتمرون من الدول الأوروبية أن توافق على مذكرتها . ولم توافق انجلترا لأسباب سياسية ، ولكن الوزير الشهير «جلادستون» وهو رجل لاهوت وصليبية - ولم يكن إذ ذاك فى الحكم - خب ووضع فى إثارة الفتنة والتحريض على الدولة العثمانية حتى بلغ حماسه أن كان يطوف فى المدن والشوارع محرضاً على الأترك الذين ظلموا المسيحيين ، ولأن هذه الإثارة كانت من رجل سياسة كبير انتشرت فى أوروبا كلها ، وألقت فى روع العالم الغربى كله أن الإسلام عدو للمسيحية ، وأن العثمانيين لا يصلحون للبقاء وهيأت لروسيا أن تشن حربها الرابعة على تركيا ، وفيها كبدتها خسائر لا تحصى[١] وغنى عن الذكر أن الموقف فى كل جوانبه كان موقفاً صليبياً ، وأنه مع ما دخله من أطماع سياسية ، كان موجهاً ضد الإسلام ، وفيه أغضى القوم جميعاً عما فعله المسيحيون ، وعن بدئهم بالثورة ضد المسلمين وأنهم بدأوهم بالقتل والذبح بغير ما سبب ، ولم تكن دماء المسلمين ذات قيمة فى نظرهم وكأنما اعتبروها عملية تنظيف وتطهير للبلاد من المسلمين .

٤- نهايـــة محــــزنة :

كان للهزائم المتتالية التى منيت بها الدولة العثمانية -دولة الخلافة الإسلامية- فى القرن التاسع عشر ثم بهزيمتها مع دول المحور فى الحرب العالمية الأولى -آثار سيئة على مسلمى أوروبا ، فالدول التى اقتطعت منها حورب

---

(١) أورد هذه الأحداث فى اسفاضة وشرح صاحب «الدولة العثمانية» من ص٨٤١ إلى ص ٨٦١ .

المسلمون فيها حرباً قاسية ، وهدمت مساجدهم وكانت كثيرة ، وحرموا من التعليم الدينى ، وبحكم التعلم فى مدارس مسيحية نشأ أطفالهم مسيحيين وبمضى الزمن تناقص عددهم وعاملتهم حكوماتهم معاملة مهينة بدت فيها التفرقة العنصرية ، ومع كل مانالهم من قسوة وظلم وكبت بقى هناك مسلمون ، ورأت بعضا من سكان البوسنة والهرسك ، وهم غاية فى التأخر الحضارى .

وأزيل الإسلام من دولة البلقان كلها ، وبقيت فى بعض المدن مساجد أثرية قد تفتح للزائرين ، ولكن لا تقام بها الصلوات ، وكان موقف بلغاريا أشد المواقف شذوذاً ، فهى دولة شيوعية لا تؤمن بأى دين ولكنها أبرزت للإسلام والمسلمين عداوة ظالمة وقحة ، إذ ظلت تحرم عليهم مزاولة شعائرهم الدينية بأى وجه ، وأخيراً رأت أن تجبرهم جبراً على محو أى شىء إسلامى فى حياتهم حتى أسمائهم .

حولت بلغاريا مساجد المسلمسن إلى مخازن للخمور ، وإلى اصطبلات للخيول وأجبرتهم أن يغيروا أسماءهم إلى أسماء أوروبية مسيحية ، وحرمت اقتناء نسخ القرآن أو أى كتب إسلامية ، وعاقبت على ذلك عقوبة شديدة(١) .

وتذرعت لذلك بأن الأسماء العربية والإسلامية تجعل أصحابها على صلة وارتباط بتركيا وأنها تريد محو العنصر التركى وإشعار سكانها بالبعد عنه .

وقد جأر المسلمون بالشكوى من هذه المعاملة المجحفة التى تنكر حقوق الإنسان ولكن بلغاريا الشيوعية لم تأبه بشىء من ذلك كله .

---

(١) انظر فى مجلة Arabia عدد مارس ١٩٨٥ حديثاً مستفيضاً عن هذا الوضع المحزن .

الفصل الرابع

تنصير المسلمين ومؤتمرات التنصير

﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾

(قرآن كريم)

١ - تنصير المسلمين :

رأينا فى الفصول السابقة ألواناً من تنصير المسلمين وتكفيرهم ، وقد اقتنع خصوم الإسلام - بعد فشل الحروب الصليبية - بأن استعمال القوة فى تنصير المسلمين ليس بذى جدوى ، فلجأوا إلى أساليب أخرى ، ولكن عوامل الضعف التى انتابت الدول الإسلامية ، والهزائم التى توالت أيقظت فكرة التنصير فى نفوس الصليبيين ، وعملت على إضعاف المسلمين فى بعض الدول وتكثيرهم نهائياً فى الدول اللادينية ، وكانت هذه الدول - من قبل - تتظاهر بأنها تكفل حرية الدين لرعاياها ، وأنه وهى تتسمى باسم الديمقراطية ولا تتدخل فى الحريات الإنسانية ، ولكنها الآن تبجحت ولم تعد تبالى بغضب المسلمين ، ثم هجمت على دول إسلامية مستقلة ، ورعايا مسلمين فى دول غير إسلامية ، ولم يستطع المسلمون أن يعملوا شيئاً ، وأيضاً أمام ضعف الروح الإسلامى لا يريدون أن يعملوا .

والقاعدة الإسلامية العامة تقول : « لو اعتدى على امرأة فى أقصى المغرب لوجب على المسلمين فى أقصى المشرق أن يهبوا لنصرتها فإن لم يفعلوا فليسوا بمسلمين » بمعنى أن إسلامهم - بسبب تقاعسهم يكون منقوصا - وقد اعتدى على أقطار وجماعات ، وليس على امرأة واحدة - ولم يهب أحد لنصر المعتدى عليهم ، وهذا لضعف الروح الإسلامى ، لأن فى استطاعة الدول أن تعمل كثيراً من غير حرب ولا استعمال أسلحة ، ولو كانت الخلافة الإسلامية باقية وبين الدول الإسلامية رابطة ما حدث هذا العدوان .

وإذاً فالإسلام أمام تيارين قويين : تيار تبشير يقوم على الدعاية ، وتيار تنصير وتكفير يعتمد على القوة وعدم المبالاة ، ولا ينبغى للمسلمين أن يخلدوا للاستكانة والاستسلام ، أو أن يستسلموا لليأس ، ويدعوا الأمر للمقادير ، بل عليهم أن يواجهوا كل هذه المواقف بما ووجهت به من قبل ، والإيمان بالله تعالى وبكتابه يحول دون هذا الاستسلام ، ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن

لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ﴾[1] ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم وثبت أقدامكم ، والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم ﴾[2] .

٢ - صحوة التبشير فى الشرق :

منذ غزا المسلمون أطراف الدولة الرومانية فى الشرق الأدنى نال المبشرين يأس بالغ من نشر المسيحية فى هذه الأقطار ، وولوا وجوههم شطر الجهات الأخرى ، وتجدد لهم أمل فى محو الإسلام بالحروب الصليبية فلما باءت بفشلها الذريع رأى مفكروهم أن الحرب لم تعد وسيلة صالحة لتنصير المسلمين ، فجنحوا إلى الوسائل الأخرى التى سبق ذكرها ، وظلت منطقة الشرق الأوسط خالية من النشاط التبشيرى ، أو ليس بها إلا نشاط راكد ، بينما كان تياره مستمراً متدفقاً فى الجهات الأخرى ، وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بدأت مواجهة قوية بين التبشير والإسلام ، وكانت حال الضعف التى انتهت إليها الدولة العثمانية أهم مسبب للجرأة على هذه المواجهة ، وقد كانت الحملة الفرنسية التى قام بها نابليون على مصر ، من آثار الشعور بهذا الضعف ، ولم تستيقظ الدولة ، وهى دولة «الخلافة الإسلامية» ، وأطلق عليها الرجل المريض ، وتدخلت الدول الأوروبية فى سياستها ، وانبعثت تبعاً لذلك تيارات جديدة للتبشير وآمال فى التأثير على المسلمين ، وأهم ما كان فى اتجاههم عنايتهم بدرس الدين الإسلامى للبحث عما يعاب به ، وفى هذا المجال كان المبشرون والمستشرقون يعملون فى حقل واحد ، ولكن لكل وجهته فكان هم المستشرقين أن يدرسوا الشرق لغة وفكراً واجتماعا ثم تأتى الدعوة إلى الديانة المسيحية عرضا ، وهم أسبق فى دراستهم من المبشرين لأنهم بدأوا - كما سبق - بعد الحروب الصليبية ، وكان هَمُّ المبشرين هو بث التعاليم المسيحية وتعريف الناس بالإنجيل ، وهم أسبق من المستشرقين وجوداً لا دراسة والدراسة

---

(١) سورة النور .

(٢) سورة محمد .

الاستشراقية ليست إلا وسيلة لما يريد المبشرون ، وبرزت بينهم الفكرة التى يجرون عليها منذ ذلك الوقت ، وهى أن جهل المبشرين بالدين الإسلامى هو الذى حال دون تنصير المسلمين فبدأوا درسه لإزالة هذا الحائل .

من هذا نرى أن درسهم الإسلام لم يكن درساً خالصاً للرغبة فى معرفة حقائقه وإنما هو بحث عن مواطن الضعف التى يمكن أن يهجم عليه منها ، وأيضاً دراسات المستشرقين لم تكن دراسة حرة بريئة ، لأن الباعث الأساسى عليها كان تبشيرياً كما رأينا فى تفكير لول وتوما الاكوينى ومن كانوا معهما ، ولأنهم اعتقدوا أولاً بطلان الإسلام فهم يدرسونه ليستخرجوا حججاً لعقائدهم لا ليستدلوا أو يبحثوا عن الحقيقة ، ولذا كانت دراسة الجماعتين مجحفة بالإسلام . ومع كل ذلك أغرت الدراسة الإسلامية بعض اللاهوتيين والمبشرين أن يتحولوا إلى حقل استشراقى بحت ، كما فعل وليام بوستيل (١٥١٠ - ٨١) وتلميذه اسكا ليجر J. Scailiger (١٥٤٠ - ١٦٠٩)[١] ، وكما فعل حديثاً كنيث كراج Kennith Cragg[٢] ، ونشر المبشر الانجليزى سير وليم مويير كتاب « اعتذار الكندى »[٣] Apology of Al-Kindi وهو فيما ذكر دفاع عن المسيحية كتب فى بغداد فى القرن التاسع الميلادى . ولموير كتاب « حياة محمد » الذى ذكره الدكتور هيكل فى كتابه » حياة محمد » ، وقال أنه نفى فكرة الصرع عن النبى محمد - ﷺ - ولكن الكتاب ملىء بالطعون ،

---

(١) تراث الإسلام جـ١/٩٦١ .

(٢) مبشر إنجليزى تحول إلى الدراسة الاستشراقية وترك العمل التبشيرى ، وكان أستاذ الفلسفة بالجامعة الأمريكية فى بيروت فلما عاد إلى بلاده كان يدرس اللغة العربية والإسلام فى كلية القديس أوغسطين وله كتب « العالم الإسلامى » و « نداء المئذنة » و « أحذية عند المسجد » .

(٣) لم أجد هذا الكتاب فيما ذكر من مؤلفات أبى يعقوب الكندى - الفيلسوف الإسلامى المتوفى سنة ٨٦١م وذكر المستشرق الإيطالى ناجى Nagi أنه مات سنة ٢٥٨هـ فهو قد مات فى القرن الثالث الهجرى -وانظر « تاريخ فلاسفة الإسلام » جـ٣ عن حياة الكندى وفلسفته ، وانظر تاريخ الفكر العربى لعمر فروخ ص٣٠٥ وفيه أن الكندى ولد سنة ١٨٥هـ/ ٨٠١م ومات سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٦م وانظر الفهرست ٣٥٨ .

ويعتبره المبشرون أصل الشجرة فى أعمالهم التبشيرية[١] وأخرج المبشر الكبير فندر G. G. Phander كتابه « ميزان الحق » فاتهم فيه القرآن الكريم بالتحريف وعابه بأن فيه نسخاً، وأنكر نبوة النبى محمد -ﷺ-، وكان فندر حينئذ بالهند أيضاً، عضواً لإرسالية بازل التبشيرية فى فارس وما يتصل بها من أقطار، وقد قامت حول هذا الكتاب ضجة وكانت الحكومة الانجليزية تساند مؤلفه، وعارضه الشيخ رحمه الله الهندى (١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م - ١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م) فى كتابه « إظهار الحق »[٢] على أثر مناظرة بينهما لم تتم. وقد فر فندر عقب المناظرة، ثم ظهر فى الآستانة على عهد الخليفة عبد العزيز خان، وأشاع أنه هزم علماء المسلمين فى الهند فى مناظرة علنية، وأرسل الشيخ رحمه الله ليناظره هناك، فلما علم فندر بوصوله هرب واختفى.

وكان فندر قد أتم كتابه سنة ١٨٢٩، وصدر بعده كتاب الهداية، ولم يذكر اسم مؤلفيه فى الطبعة التى رأيتها وهو مجموعة شتائم وتنفير من الإسلام، ورفع لشأن الكتاب المقدس وملحقاته، وهو فى جملته قائم على كتاب ميزان الحق، ولم تستطع الهيئات التبشيرية أن تنصرأحداً من المسلمين فى البلاد التى تأصل فيها الإسلام، وكان العرب يبدون دائماً أشد استعصاء بحكم البيئة ولأنهم أقدر على فهم القرآن الكريم، وبلادهم بها كثيرون من دارسى الإسلام الذين يردون بسهولة أباطيل المبشرين، وأولى الانجليز بلاد الهند اهتماماً أكبر

---

(١) انظر Neil P. 366 وموير (٨٢١ - ١٩٠٥) عمل فى خدمة الحكومة الانجليزية بالهند مدة طويلة، وأقام مدة أخرى فى البنجاب - وفى وظيفة أكبر، وأثناء عمله عنى بدرس الإسلام، وهو مبشر مستشرق.

(٢) كتاب إظهار الحق طبع عدة مرات، وبعضها على هامشه أربع رسائل أولاها للسيد عبد الله الهندى ذكر فيه وصفاً شافياً للمناظرة، وأسماء الذين حضروها، وبيان أن فندر نكص وفر وأصبح الشيخ رحمه الله فى خطر من الانجليز ففر إلى مكة، والرسالتان الثالثة والرابعة للشيخ محمد الطيبى الشافعى وفيهما بيان صحة الإسلام ودحض حجج النصرانية، فهما تجريان مع إظهار الحق فى طلق واحد، أما ارسالة الثانية فهى للشيخ رحمه الله أيضاً تتحدث عن البعث والحشر. وقد ذكر هذه المناظرة والظروف التى وقعت فيها د/ E. stock فى كتاب له سماه «تاريخ جماعة إرسالية الكنيسة»: History of the church Missionary society: وأضاف إليها من وجهة نظره مايخفف وقعها على المسيحيين.

وكثرت بها الإرساليات الإنجليكانية ، ومن المشهورين الذين يحفل بهم تاريخ التبشير « روبرت بروس R. Bruce فبعد أن قضى عشرة أعوام بين مسلمى البنجاب قضى فى إيران عاماً بين المسلمين أيضاً مبشراً بالإنجيل ولم يستجب له أحد ، وعند عودته إلى الهند جاء إليه بعض المسلمين يطلبون أن يعمدهم ، وكان معهم بعض ممن دخلوا المسيحية من أصفهان ، ولم يعرف مثل هذا الحادث فى بلد استقر به الإسلام ، وكان لابد لذلك أن يبقى بروس فى إيران عله يستميل بعض المسلمين ، وكان للحادث مغزى كبير لدى الكنيسة الانجليزية ، كما أن الكنيسة الأيرلاندية اكتسبت به مجداً وأصبح وجودها أمراً حقيقياً ، وكتب بروس إننى الآن لاأجنى حصاداً ، إننى بصعوبة أستطيع أن أقول إننى أبذر الحب ، بل أقول إننى بصعوبة أحرث الأرض ، أو على الأصح إننى أجمع الأحجار من الأرض[1] .

وأدى هذا الحدث إلى تأسيس هيئة تبشيرية فى إيران ، وبعد تسعين عاماً من هذا التاريخ وفى ١٩٦١ عين فى إيران أول رئيس أسقفية من الإيرانيين كان يدعى « حسن برناباس دهقانى تفتى » وفى سنة ١٨٧٧ عين أول أسقف فى لاهور ، كان يدعى « توماس ثالبى فرنش » - وهو ذو حماس بالغ للدعوة ، وموضع ثقة الجمعية الانجيلية التبشيرية لكثرة ماأحرز من النجاح وقد دفعه حماسه إلى غزو الإسلام فى عقر داره - أو كما قيل لطعنه فى قلبه ، فذهب إلى مسقط فى الجزيرة العربية ، وبقى هناك حتى مات ١٨٩١م ، وكان من بين رفاقه فى الكنيسة التى أسسها هناك شاب أمريكى واسع النشاط موفور الحماس هو « صمويل زويمر » هذا الذى نال شهرة واسعة فيما بعد باعتباره من الرواد الأول ، وذوى الأعمال البطولية فى تأسيس كنيسة للإرسالية فى الجزيرة العربية ، وهو أيضاً ذو ثقافة واسعة قضى أكثر من ستين عاماً فى دراساته اللاهوتية والفلسفية ، وكانت مؤهلاته العقلية ذات أثر كبير فى تأسيس هذه الكنيسة ، وفى مؤتمر مسكونى عقد فى سنة ١٩٣٨م كانت أشد

---

(١) Neil 367 .

المقالات تأثيراً على السامعين خطبة ألقاها أحد أعضاء الإرسالية العربية ، فذكر فيها جهود المرسلين وأعمال زويمر وذكر قصة خمسة تنصروا خلال خمسين عاماً ، ثم جثا أمام الدكتور زويمر قائلاً : « الكنيسة فى البلاد العربية تحييك[1] .

وهذه الأعمال اعتبرت فى نظر المرسلين بداية عمل مدت أطماعهم إلى ماوراءها ، وقد نضجت هذه الأطماع واتسعت بعد ذلك ، وأصبح من أهم آمال الإرساليات الآن تنصير المسلمين فعقدت لذللك المؤتمرات الكثيرة التى سنتحدث عنها بعد ، وجنحت الكنائس إلى الوسائل المادية ، مثل إنشاء المدارس والمستشفيات ووسائل الدعاية المرئية والمسموعة ، ولكن أنجح الطرق لديهم هى الاتجاه إلى الطبقات الفقيرة جداً والمهملة من التعليم ، وعملت الكنائس والإرساليات على التعاون وإيجاد صلات بينها لهذا العمل رغم اختلاف عقائدها ومذاهبها ، وبدا هذا واضحاً فى الكنيسة الكاثوليكية فى مصر القديمة ، فقد عملت طبقاً للوصايا على حسن الاتصال بالقبط ، واتخاذ أصدقاء هم ، وإشراكهم فى اجتماعاتها ، وبذا يمكن أن يكونوا جبهة واحدة ضد سلمين .

والواقع أن الكنيسة أشركت معها أيضاً الكنائس الأخرى التى بمصر وكونت من الجميع حلفاً قوياً ، ولكن فى صمت وسلام ثم جاءت الإرسالية الأمريكية فقامت بنشاط تعليمى وتبشيرى واسع ، لا فى مصر وحدها بل فى أنحاء الشرق الأوسط كله .

---

(١) IBID 369 .

٢ - المؤتمـــرات الــكبرى

﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض الا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفسادا كبيرا﴾

(قـرآن كـــريم)

أشهر المؤتمرات المسكونية

مر بنا فيما سبق أن هناك مؤتمرات قومية أو إقليمية يحضرها كبار القسس من الجهات المتقاربة ، ومؤتمرات مسكونية عامة يحضرها البطارقة ورؤساء الكنائس من مختلف أنحاء المسكونة ، وتعقد هذه المؤتمرات كلها للنظر فى سير الدعوة للإنجيل والعقبات التى تعترضها ، وما يمكن عمله لإزالة هذه العقبات ، ومنذ أول القرن العشرين كثرت هذه المؤتمرات وتلاحقت ، وبدا فيها جميعاً أن العقبة الكبرى أمام التبشير هى الدين الإسلامى . وجاء فى كتاب « الغارة على العالم الإسلامى » وفى كتاب « تاريخ الإرساليات للدكتور نيل استيفن » أحاديث عن هذه المؤتمرات ، والذى يعنينا من عرضها أن نبين للدعاة الإسلاميين مايبيت لدينهم ، ومايجب أن ينبهوا ويعملوا له ، ولا نذكر إلا المؤتمرات ذات الأهمية فى هذا الصدد .

١ - مؤتمـــر القـــاهرة

عقد هذا المؤتمر سنة ١٩٠٦ فى ظل الاستعمار الانجليزى ، وكان من تمام السخرية أن يعقد فى منزل أحمد عرابى الذى نفاه الإنجليز لمعارضته إياهم . وكان الذى دعا إلى هذا المؤتمر وتولى رياسته هو صموئيل زويمر الذى مر ذكره وشيء من أعماله ، وبحكم مذهبه دعا الإرساليات البروتستانتية إلى حضوره . وامتاز هذا المؤتمر بحسن تنظيمه واختياره الموضوعات الهامة التى يتحتم على المبشر أن يعالجها ، وأن يعرف أسبابها ويقضى عليها ، وكل هذه الموضوعات كانت تدور حول مواجهة المسلمين بالإنجيل والطريقة التى ينهجها المبشر وكان لهذا المؤتمر نتائج هامة أيضاً ، ومن طريف المسائل التى تعرض لها مكانة الأزهر التعليمية ووقوفه حائلاً ضخماً أمام التبشير والمبشرين ، وقدم اقتراح بإنشاء مدرسة مسيحية جامعة لجميع الكنائس بدون تفرقة بين مذاهبها العديدة — ويبدو أن هذا كان أول اقتراح من نوعه ، وقد أنشئت مدارس تبشيرية بعد ذلك وبوحى من هذا المؤتمر فى مصر وفى الشرق ولكن فكرة اجتماع الكنائس لم تتحقق ، (وفى المؤتمر الذى عقد فى معهد زويمر فى كاليفورنيا سنة ١٩٧٨م

أعيد هذا الاقتراح) ، ومما برز فى هذا المؤتمر العناية بالتبشير عن طريق الطب ، وعن طريق المبشرات اللائى يعلمن فى المدارس التبشيرية .

ومن المسائل النظرية التى أثيرت فى هذا المؤتمر بحث عقيدة المسلمين ، وهل الإله الذى يعبدونه هو إله اليهود والنصارى أم إله آخر ، وقرر زويمر رئيس المجلس أن المسلمين موحدون ولكن تعريفهم إلههم لا يوافق تعريف المسيحيين إلههم ، فإله المسيحيين إله قداسة ومحبة وإله المسلمين ليس كذلك .

وتمخض المؤتمر عن نشرات وكتب أهمها كتاب « وسائل التبشير بالنصرانية بين المسلمين » وهو مجموعة المقالات التى ألقيت فى هذا المؤتمر ، ثم كتاب « العالم الإسلامى اليوم » من عمل صمويل زويمروبعض رفاقه . وصدر بمقدمة ضافية تذكر أن الإسلام قوة لا يستهان بها ولكنه يحوى مساوىء تعدد الزوجة وانحطاط المرأة ، وفيها توجيه اللوم للإرساليات التى اهتمت بتنصير الوثنيين دون المسلمين .

وفى كتاب « العالم الإسلامى اليوم » فصل ضاف عن التبشير فى مصر — وفيه ذكر أن المبشرين الأمريكان أسسوا معهداً للتبشير فى مصر « أسسته جمعية اتحاد مبشرى أمريكا الشمالية سنة ١٨٥٤ ، وقد نشرت هذه الجمعية كتباً بين المسلمين منها « شهادة القرآن » — وهو كتاب يوضح أن القرآن الكريم يشهد بأن المسيح إله وابن لله ، وكتاب « إعتذارات الكندى » الذى سبق الحديث عنه ، وكتاب « ميزان الحق » — ثم وضعوا كتاب « الهداية » فى أربعة أجزاء وقد أشرنا إليه إيضاً فيما سبق ، وهو من عمل لجنة لم تذكر أسماء أعضائها به .

وقد بالغ المبشرون فى آثار هذه الكتب على المسلمين ، وأخفوا مناظرة الشيخ رحمه الله وكتابه « إظهار الحق » الذى فند فيه « ميزان الحق » .

وفى سنة ١٨٨٢ تأسس معهد للتبشير ، سميت مدارسه « مدارس المرسلين الأمريكان » اتخذ منهجاً منظماً ، إذ أنشأ قسماً طبياً للعلاج وتبشير

المرضى ، وأنشأ مدرستين للصبيان والبنات ، وقسماً خاصاً بنشر الإنجيل ، ونتيجة ذلك فيما ذكروا أن تنصر نحو مائة وخمسين شخصا فى خمسين عاماًأو ما يزيد عليها قليلاً .

وفى سنة ١٨٩٢ تأسست جمعية تبشير شمال أفريقية لتنصير المسلمين واتخذت مصر مقراً لها ، ثم أنشئت « الجمعية العامة لتبشير مصر » ، ولم تشأ هذه أن تكون القاهرة مركز نشاطها بل جعلت لها مراكز فى الأقاليم واعتمدت على توزيع النشرات والكتب والتقرب إلى المسلمين وتقديم الخدمات العديدة لهم ، واستطاعت هذه كلها أن تتصيد بعض السذج الفقراء ، واستعصى عليها الكثيرون رغم ما نالوا من خدماتها .

وكتاب « العالم الإسلامى اليوم » — مع ما فيه من المبالغات والمغالطات التى وضعها القس زويمر لتشجيع المبشرين — قيم جداً بما يبدى من أنواع النشاط التبشيرى ومراكز المبشرين وبما كشف عنه من وسائل التبشير وإعداد المبشرين ، وبه دراسة دقيقة عن المجتمعات الشرقية فى عدد من البلدان ، وهى تبين أن المبشرين يستعينون بالباحثين الاجتماعيين وتقارير السياسيين ، وخبراء العلوم المختلفة .

ومن نتائج هذا المؤتمر ونتيجة لاقتناع أعضائه بما اقترحة القس زويمر وأكده ، أنْ فكَّر الجميع جدياً فى إنشاء معاهد لتفهيم المبشرين ما يحارب به الإسلام وأنه دين زائف يجب أن يدحض ، وأن تُعدَّ لهم كتب أدبية ودراسات عربية تلبى متطلبات الدعوة بين المسلمين وتنجح فى استمالتهم لها ، وكانت هذه هى البذور الأولى والفكرة التى تبلورت فى مؤتمر لكنو ، وبها أنشىء معهد هنرى مارتن H. Marten فى الهند(١) ثم قامت « رابطة الإرساليات للمسلمين » وقامت مجموعة صغيرة لهذا العمل فأخرجت نشرة فى نحو خمس صفحات . فما لبث أن نمت وصارت مجلة سميت مجلة معهد هنرى مارتن(٢)، وسيأتى الحديث عن هذا المؤتمر .

(١) Sec the Bulettin of the institute. V-111-1980 publshed in Hyderabad.

(٢) Quted from study papers No 7 by Ataullah Seddiki .

٢ - فى مصـــــر

كان المبشرون ينظرون إلى مصر بشيء من الحذر ، لأنها قلب الإسلام ومبعث الدعوة إليه ، وبها الأزهر الشريف أكبر وأعرق مدرسة إسلامية فى العالم كله ، ورأينا فيما سبق أن الشرق الأوسط كله لم يكن حقل نشاط للتبشير ، وظل الأمر كذلك حتى كانت أصابع الاستعمارهى التىساندت التبشير وحولت القاهرة إلى مركز تبشيرى دولى .

فى سنة ١٨٨٢ وقعت مصر تحت سيطرة الانجليز ، فبدأ النشاط الانجليكانى وأنشأت «جمعية إرسالية الكنيسة» مستشفى هرمل فى مصر القديمة ، واتخذت منه مركزاً للدعاية الانجليكانية كما هو مصحة ومقر علاج للمرضى ، وكما يقول استيفن نيل كانت مصر أولى الأقطار التى تشعر بهذا الروح الجديد الذى كان يعمر الجامعات الأوروبية[١] ، وظهر عدد من الجماعات والمدارس التبشيرية ، منها : «اتجاهات الإصلاح للطلبة المسيحيين ، واتحاد الطلبة الرواد المرسلين» ، واتحاد الطلبة المرسلين الدولى ... وهذه الجماعات ليست موجودة إلى الآن ، ولكنها لم تكن لتنشأ فى القاهرة لولا سيطرة الانجليز ، ومما يذكر أنه بعد أقل من عامين بعد الاحتلال البريطانى ألغى القانون الإسلامى الذى كانت تحكم به مصر وحل محله القانون الفرنسى ، وبقى للقانون الإسلامى حقل ضيق هو قانون الأحوال الشخصية ، وتبعاً لذلك ضيقت الوظائف على أبناء الأزهر وضيقت رواتبهم المادية ، وغيرت لغة التعليم فى المدارس ، وجعل يوم الأحد أجازة الأسبوع فى بعض المصالح الحكومية[٢] .

ولم تشأ الحكومة الانجليزية أن تضيق على المسلمين فى عبادتهم وتقاليدهم الدينية ولكن هيبة رجل الدين بسبب ضآلة وظائفه اضمحلت وهان هو فى نظر الكبار من ذوى المناصب ، ولم يكن القاضى الشرعى عدلا للقاضى الأهلى فى

---

(١) انظر Neill p 368 .

(٢) ظلت مكاتب البريد تغلق يوم الأحد حتى سنة ١٩٣٦م .

راتبه ، ولا له من السلطة مثل ما له ، وكانت أحكامه تقوم على شهادة الشهود وهو مسلوب السلطة من عقابهم ، فكثرت شهادة الزور فى المحاكم الشرعية ، وألصق ذلك العيب بالإسلام ، ولم يكن التعليم بالمجان إلا فى الأزهر ومعاهده ، فكان التعليم فيه لأبناء الفقراء ، ومن هنا اتجه الآخرون إلى دراسة القانون الوضعى الذى يؤهل للوظائف الكبيرة ، وربما وجد من هؤلاء من يهجمون على الإسلام وينكرون صلاحية قانونه ، فكان هذا عوناً للمبشرين من طريق غير مباشر[١] .

وذهب جماعة إلى التعلم فى أوروبا وعادوا نسخاً من المستشرقين يرددون أفكارهم ويهجمون على الإسلام والقرآن بالصورة والأسلوب الذى يهجم به المستشرقون ، فبثوا نزعة الإلحاد فى الشباب ، وكان هذا عوناً آخر للمبشرين لأنه إضعاف للإسلام وقتل لروح الدفاع عنه .

وفى الثلاثينيات من هذا القرن كانت الأزمة العالمية التى أصابت الناس بفقر مدقع وعوز للمال القليل ، فكان ذلك منشطاً لحركة التبشير استغلالا لحاجة الناس خصوصاً فى المستشفيات والمدارس ، وقام للمبشرين فى مصر نشاط واسع ولكن لم يتنصر مسلم .

وقد كان فى الجمعيات الدينية مجال لتغذية الشباب بفكر إسلامى منوع ، وإكمال لما قصر فيه منهج التعليم الدينى فى المدارس ، ولكنها جميعاً أصيبت بالكساد وعداء الحكومات .

خلال ذلك كله كان الفكر الماركسى يحاول أن يتسلل سراً إلى أذهان الشباب ووجدت له فى مصر وغير مصر أوكار سرية ، وكان ذوو العوز والشره المادى هم الذين يستجيبون لهذه الدعوة ، ووضع الكثير منهم فى المعتقلات والسجون ، ولم يقض على منهجهم بل ظل آخرون يعملون سراً حتى قضت الظروف أن تتجه مصر اتجاهاً اشتراكياً أو نظاماً شيوعياً يحمل

---

(١) ظلت هذه النزعة زمناً طويلاً ومازال لها مناصرون إلى الآن .

اسم الاشتراكية ، فقوى الهجوم على الإسلام من أبنائه وفترت دعوة الدعاة ، ومهد ذلك السبيل للأعمال التبشيرية ، ولا يخلوا الآن بلد إسلامى من مدارس تبشيرية مقنعة أو سافرة كما لم يخل من مستشفيات تعمل لحساب التبشير ، وهذا يعنى أن هناك ركودا وسلبيات فى الدعوة إلى الإسلام يقابله نشاط وإيجابيات فى أعمال المبشرين ، والحق أن هؤلاء المسلمين المنحرفين عملوا لإضعاف الروح الإسلامى وإثارة الشبه حول الإسلام والغض من شأنه مالم يكن يطمع المبشرون فى مثله ، ويرجع انحرافهم إلى أمرين أثنين ، أنهم لم يثقفوا ثقافة دينية أو لم يربوا تربية دينية كافية ، وأنهم يؤثرون الكسب المادى ويفضلونه على المعنويات والمشاعر النبيلة وهذا راجع للأمر الأول أيضاً .

أما محاولات المبشرين الأولى – بعد الاحتلال البريطانى ، فكان من أبرزها قيام المبشرين الكبيرين دوجلاس ثورنتون Douglas Thornton ووليم هـ تمبل جايرندر W. H. Temple Gairender ، بإصدار مجلة الشرق والغرب Orient and Occident .

قدم ثورنتون إلى القاهرة سنة ١٨٩٩ ، فعمل فى حقول التبشير بنشاط بالغ ، ولكن حياته لم تطل فمات سنة ١٩٠٧ ، وخلفه جايرندر ، وكان قد حذق اللغة العربية لدرجة أنه كتب بها شعراً جيداً ونشره على الناس ، وكان منهجهما معاً هو التودد وحسن التعامل مع المسلمين ، ورأيا من ذلك أن يخرجا مجلة « الشرق والغرب » باللغتين الانجليزية والعربية ، وكان غرضها الأساسى عقد صلة بين الديانة المسيحية والإسلام من ناحية ، ودعوة أقباط مصر إلى المذهب الانجليكانى من ناحية أخرى ، وبواسطة هذين المبشرين ومن خلفهما قدمت بعض المعونات إلى الكنيسة الأرثوذوكسية مع عدم التدخل فى شئونها ، وأيضاً مع عدم طعن الإسلام لأن غرض الجماعة – وكلها موفدة من الكنيسة الانجليكانية – هو عقد صلة ومودة مع المصريين ، وعدم مجاهرة المسلمين بالعداء ريثما تتكون جبهة من هؤلاء المرسلين ومن قبط مصر معاً ضد المسلمين – ولم تصل هذه الحركة مع كثرة الإنفاق ووفرة النشاط إلى النتيجة التى كانت ترجى ، ولكنها كانت ريادة مشكورة .

٣ - مؤتمـــر أدنـــبرا Edinburuh

عقد هذا المؤتمر فى القاهرة سنة ١٩١٠ ، وكان به ١٢٠٠ مندوب من الإرساليات المختلفة وكان من المقرر أن يحضره الرئيس الأسبق للولايات المتحدة « مستر روزفلت » ممثلا للتبشير الأمريكى ، لأنه مبشر معروف ولكنه اعتذر عن عدم تمكنه من الحضور ، وحضر خطيب أمريكا مستر « براين » M. Brine المشهور بلسانه وبلاغته ، والذى رشح نفسه غير مرة لرياسة الولايات المتحدة ، وكانت كثرة المندوبين من الانجليز والأمريكان ثم الألمان ، وكانت لغة المؤتمر هى اللغة الانجليزية .

وكان هذا المؤتمر على أهمية كبيرة جداً ، وتنوعت البحوث والمقالات التى ألقيت فيه تنوعاً واسعاً ، وكان جاداً كل الجد إزاء المقترحات والمعلومات التى بحثت به ، ووضعت كلها بعد ذلك موضع التنفيذ ، وقسم الأعضاء أنفسهم حسب الموضوعات التى يدرسونها إلى ثمانى لجان كل لجنة تنظر فى جانب معين من الجوانب التى تهم المبشرين ، وفى استعراض ماتخصصت له هذه اللجان لم يخل عمل واحدة من حديث عن خطر الإسلام وبحث الطرق الناجحة للتغلب عليه ، أو مايمكن عمله لتنصير المسلمين ، أو كيفية إعداد المبشر المسيحى للهجوم على الإسلام ... وهكذا ، وجاء فى كلمة القس تشارلس وطسون » أن الغاية من عقد هذا المؤتمر هى البحث فى مسائل العالم الخارج عن النصرانية ، .. وقرارت المؤتمر تنبىء عما كان للمسائل الإسلامية من حظ كبير فى أعماله ، ولم يكن خطر الإسلام فى نظرهم هو فقط تحول بعض المسيحيين إليه ، ولكن أكبر من ذلك أن يدخله الوثنيون فيزيد عدد المسلمين على عدد المسيحيين فى البلاد التى يجتمع فيها الدينان ، وجاء فى مقالاتهم : أن فى جزائر ماليزيا وجزر الهند الهولاندية (وهى أندونيسيا الآن) ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ مسلم (وكان ذلك فى سنة ١٩١٠ والآن ، يوجد أضعاف هذا العدد) وعددهم يزداد يوماً بعد يوم بقدر ماينقص من عدد الوثنيين هذا مع أن المبشرين فى الهند خصصوا جل نشاطهم لتنصير المسلمين .

واستعرضت البحوث ميادين التبشير فى أواسط أفريقية وفى الهند والصين واليابان على الأخص وغير هذه الأقاليم عامة ، وفى جميعها يبدو أن العدو الألد هو الإسلام ، وفى كل إقليم بدت وسائل خاصة تدعو أن يستعد لها الدعاة ، وأن تكون دراساتهم واستعدادهم ملائماً للوسط الذى يعملون فيه ، وجاءت فى كلامهم عبارات تفاؤل تقول أن الوقت الذى يمكن فيه زعزعة الإسلام من أركانه قد أصبح قريباً .

ويمكن تلخيص النقاط البارزة فى بحوث المؤتمرين وقراراتهم فى نقاط خاصة هى :

١ — اتحاد الإرساليات التبشيرية — لأن تفرقها وانفراد كل إرسالية بمذهب ومنهج هون من قوتها ، واقترحوا لذلك — وإن لم يتم التنفيذ — أن تصدر كتب بالمسائل المتفق عليها من الإرساليات جميعاً ، وأن تنفرد كل إرسالية بإصدار النشرات الخاصة بها .

٢ — دراسة أحوال المسلمين وعاداتهم ، ثم التودد إليهم لمحو العداء بينهم وبين المبشرين . كى يأنسوا إليهم ويستجيبوا لهم .

٣ — أن بلاد المسلمين التى كانت تحت حكم الدولة العثمانية ، والتى كان ينال المبشرين يأس من العمل فيها أصبحت سهلة الغزو بعد أن حدثت بها عدة انقلابات ، ولذا يجب أن يتسلح المبشرون بمعلومات إسلامية تناسب هذه الأوساط .

وكان اللورد بلفور — صاحب وعد الصهيونيين باستيطان فلسطين — رئيس الشرف لهذا المؤتمر ، وقد ألقى فى نهاية المؤتمر كلمة جاء فيها أن المبشرين ساعدوا الحكومات فى كل بلد ، وأنهم ذللوا كثيراً من العقبات — (يعنى أمام المستعمرين) — التى ماكانت تذلل بغيرهم واقترح إنشاء لجنة دائمة تنظر فيما ينبغى أن يعمل لخدمة المبشرين .

---

(١) انظر ماكتب عن هذا المؤتمر فى « الغارة على العالم الإسلامى » ص ٤٠ وما بعدها — أما Niell — فلم يكتب عنه كتابة موسعة .

وكلمة بلفور واضحة صريحة فيما يجب عمله - من الحكومات الأوروبية كلها لخدمة المبشرين وهى وصية معمول بها، لأن اللجنة المقترحة تكونت توا.

وجمعت أعمال هذا المؤتمر فشملت تسعة مجلدات .

من آثـار هـذا المؤتمـر :

كان لهذا المؤتمر آثار فعالة فى أعمال المبشرين وفى المؤتمرات التى عقدت بعده ، فعقبه مباشرة غيرت مجلة الشرق المسيحى الألمانية اسمها فتسمت « الشرق المسيحى وإرساليات التبشير الإسلامية » وعهد منذ إذ بتحرير القسم الإسلامى فيها إلى قسيس بلغارى كان مسلم ثم تنصر ثم صدرت « مجلة العالم الإسلامى » الانجليزية بعد نحو خمسة شهور من هذا المؤتمر الذى عقد فى سبتمبر سنة ١٩١٠ ، والمجلة صدرت فى فبراير سنة ١٩١١ ، وتولى إدارتها القس زويمر ، وجاء فى عددها الأول « دخلنا بعد مؤتمر القاهرة فى دور جديد ظهرت فيه أهمية تنصير المسلمين ... ومجلتنا تستحسن الاهتمام الشديد الذى أبداه مؤتمر أدنبره وسنجتهد فى بحث المسائل التى بحثها ... » ، ثم صدر كتاب « العالم الإسلامى اليوم » لزويمر نفسه ، ومن آثاره المباشرة أن تألفت لجنة لمواصلة الأعمال التى أثيرت فى المؤتمر وقسمت فروعاً عديدة كل فرع له اختصاص معين ، ثم بمشورة زويمر أيضاً أنشئت مدرسة تبشير مشتركة تجمع الفرق البروتستانتية مهمتها تهيئة المبشرين الذين يعملون فى الأقطار الإسلامية ذكوراً وإناثاً .

ثم عقد فى ألمانيا مؤتمر استعمارى ، كانت مهمته هى البحث فى شئون الاستعمار وما يجب عمله فى المستعمرات لإقرار الأوروبيين فيها ، فبدا لأعضائه السياسيين أن التبشير المسيحى وتنصير المسلمين أمر هام لتثبيت الاستعمار فى الشرق ، وأن الإسلام هو العدو الأول للمستعمرين ، وأنه لابد من القضاء عليه قبل أن يقضى هو على الاستعمار ، وكان لابد من الرجوع إلى ما جاء فى مؤتمر أدنبرا من قرارات وبحوث .

ومن الجوانب الهامة – ومن وجهة نظر المسلمين – أن مؤتمر أدنبرا والمؤتمر الاستعمارى كانا من أسبق ما كشف الغطاء عن أعمال الحكومات الأوروبية لمحاربة الإسلام .

٣ – مؤتمـــر لكنـــو

عقد هذا المؤتمر فى مدينة لكنو (لكهنو) الهندية سنة ١٩١١ ، وهو فى واقعه امتداد لمؤتمر القاهرة ، لأن هدفه الأول هو التخطيط والإعداد لتنصير المسلمين ، واستمر ثمانية أيام ، وكانت شخصية زويمر وآراؤه وراء انعقاد المؤتمرات الثلاث ، وكان هذا المؤتمر أكثر استعداداً ونظاماً من مؤتمر القاهرة ، إذ أعد خرائط ورسوماً وصوراً مجسمة ، كل ذلك لتوضيح آثار الإسلام والأماكن التى يكتنز أو يقل فيها المسلمون ، ورأسه زويمر أيضاً ، وكان إعجاب الأعضاء به واستعدادهم لتنفيذ ما يشير به أو يقترحه بادياً عليهم وعلى أعمالهم ، ووصف بأنه الرجل الذى لا يهزم لأنه درس الإسلام سنين طويلة ، وعاش سنين أطول بين الشعوب الإسلامية التى يحبها حباً ماً[1] – ومحبته لهذه الشعوب هى رغبته فى هدايتهم إلى نور الإنجيل .

وكان المؤتمر سرياً ، لم يسمح لمراسلى الصحف بحضوره ، ولكن أعطوا صوراً من قراراته وملخصاً من أعماله بعد أن وضعت فى الصيغة التى يرونها صالحة للإذاعة ، وجاء فى مجلة العالم الإسلامى التى يرأسها زويمر أن السسنوات الخمس التى تلت مؤتمر القاهرة كانت مسرحاً لخوارق وأحداث جسيمة ، منها الانقلاب الفارسى والآخر العثمانى ، وتأسيس مجالس شورية فى الهند كان للمسلمين فيها ميزة وزيادة على المسيحيين ، ودخلت الدعوة الإسلامية فى قالب يلائم العصر ، وحاول مسلموا الصين تنشيط دعوتهم ، وامتد الإسلام فى أفريقية والهند الغربية والجزائر الجنوبية ... إلخ ، وكل ذلك يحتم على الكنيسة أن تعمل بحزم وجد ، وكان فى البرنامج تسعة مواد تدور كلها على النظر فى تنصير

---

(١) انظر الغارة على الإسلام ص ٥٢ – وما بعدها .

المسلمين وإعداد المبشرين بمختلف جوانب الإعداد ، والنظر فى حركة الجامعة الإسلامية وأثرها على التبشير إن عوق تنصير المسلمين .

وعرض زويمر فى خطبته إحصائيات عن المسلمين فى عدد من البلاد ، أو فى كل البلاد التى بها إسلام ، ثم تحدث عن التطورات السياسية والفكرية وآثارها فى إيقاظ الفكرة الإسلامية ، ولكنه تغزى وعزى الأعضاء بأن المسلمين لا يزالون فى حالة تقهقر ، رغم أن الإسلام يتمشى بين الوثنيين ، ورغم أن القرآن يترجم إلى لغات عديدة[1] .

كان هذا المؤتمر شاملاً لجوانب عديدة من أحوال المسلمين ، وأبدى بعض المتحدثين ارتياحاً لضعف الجامعة الإسلامية ، وظهرت أيضاً الشماتة فى السلطان عبد الحميد ، وفى نهاية المؤتمر تواصوا بعقد مؤتمر تالٍ فى القاهرة بعد خمسة أعوام أى سنة ١٩١٦ ، كما رأوا - أنه من الضرورى العاجل تأسيس مدرسة تبشيرية فى مصر تمثل كل المبشرين البروتستانت ، كما أوصوا بالعناية بإدخال المبشرات المسيحيات .

وتعتبر سنة ١٩١١ بداية تاريخ هام فى إعداد الإرساليات إلى المسلمين ، وفى تتابع المؤتمرات دراكا بعده ، وفى مايو سنة ١٩١٢ صدرت أول نشرة عن هذا المؤتمر وتدوولت بطريقة سرية ، وكانت كراسة صغيرة « بعنوان » أخبار وملاحظات - وهى التى تطورت فيما بعد لتصبح « مجلة معهد هنرى مارتن » .

ومنذ سنة ١٩١٢ - ١٣ قامت سلسلة من المؤتمرات بلغت واحداً وعشرين مؤتمراً للإرساليات وقادة الكنائس ، وكان الغرض منها هو التركيز على التعاون بين الكنائس ، ومضاعفة النشاط المبذول لتنصير مسلمى الهند ، وفى هذا العام صدر كتاب « العالم الإسلامى » لصمويل زويمر .

---

(١) انظر الغارة على العالم الإسلامى ص٥٢ وما بعدها .

وفى سنة ١٩٢٤م عقد مؤتمر «أورشليم» نتيجة لسلسلة المؤتمرات التى أقيمت فى بلاد المسلمين، وفيه وضحت المشكلات التى تواجه المبشرين بين المسلمين، كما قررت خطوات العمل وأبواب المعونات للعاملين بين المسلمين فى المستقبل، وجاء فى الإحصائيات التى عرضت أن فى الهند ٥٠٠٠ إرسالية بروتستانتية وأن عدد المسلمين فى الهند ٧٠ مليوناً، وأن هذه النسبة بين المبشرين والمسلمين لا تشجع على نشر المسيحية، ومن المقرحات التى قدمت اقتراح بدرس آداب الإسلام لتكون آلة يستطيع المبشرون أن يخترقوا بها نطاق العالم الإسلامى، وأن ينشروا تعاليم المسيحية بين المسلمين، إذ أن معرفة التاريخ الأوروبى بكل شعب هو الباب الذى يمكن من الاندماج به، وبهذا نجد أن الدراسة الاستشراقية أصبحت جزءاً من عمل المبشرين، وهذه الدراسة كانت فعلاً هى النشاط الرئيسى فى معهد هنرى مارتن.

ومن الأشخاص الذين برزوا فى هذا المؤتمر الدكتور: م. س. تيتاس M. S. Titus فقد شرع على الفور فى إنشاء معهد للدراسات الإسلامية، واستجابت له الكنيسة النظامية (ميثوديست) فما كاد يمر عام واحد حتى كانت الكلية قد أنشئت فى بريللى - قريباً من لكنو، وفتحت فرعها للخريجين الذين سبق لهم درس الإسلام، وكانت هذه المدرسة رائداً لمعهد هنرى مارتن[1].

وفى العام نفسه اجتمع مجلس جمعيات المرسلين فى بريطانيا، وقرر مساندة مركز الدراسات الإسلامية فى الهند، وجاءت اقتراحات أخرى مساندة من اجتماع المجلس القومى المسيحى فى الهند، الذى عقد فى كلكتا سنة ١٩٢٦ - ويبدو أن بعض العوائق نتأت فى طريق قيام المعهد حتى سنة ١٩٣٠م.

ولمعهد هنرى مارتن نشاط تبشيرى لا يزال قائماً إلى الآن، ويعتمد أساساً

---

(١) انظر بحث الأستاذ عطاء الله صديقى عن هذا المعهد - الحلقة الرابعة من الدراسات الإسلامية Siddiky Paper No. 7 بعنوان «Henry Martn Institute of Islamic studies» محاولة لتنصير المسلمين فى الهند.

على الدراسات الأدبية ، فيدرس الإسلام ويقدم للمسلمين دراسات مسيحية مرغبة فيها وشارحة فضائلها ، وهاك تعريفاً موجزاً بأعماله .

٥ – معهد هنرى مارتن

HENRY MARTIN INSTITUTE

رأينا أن الفضل فى فكرة هذا المعهد وفى إيجاده يرجع إلى القس زويمر ، وأن الغرض هو دراسة الإسلام محاولة لتنصير مسلمى الهند ، وأيضاً غيرهم . وقد أسس سنة ١٩٣٠ فى لاهور وبعد عامين فقط انتقل إلى جبال الهملايا فى مدينة لاندور . ومع الخريطة توضيح لتنقلات هذا المعهد فى أرجاء الهند حتى استقر أخيراً فى حيدر أباد ، ولا نعرف سبباً لهذه التنقلات ولعلها كانت لاختيار المكان المناسب الذى يمكن نجاح الدعوة فيه أكثر . وقد أمدته الإرسالية البريسبتارية الأمريكية وتحملت جمعيات الإرساليات البريطانية تمويله – وعلى الأخص جماعات الميثوديزم ، والتعميد Baptism والانجليكان – وهكذا نهض هذا المعهد بداية لنشاط أوسع واختيرت له هيئة تدريس وإدارة من قسس ممتازين معروفين برقى معلوماتهم وقوة حماسهم .

ومن الناحية الإدارية قسم المعهد إلى ثلاثة أقسام هى :

١ – دراسات للبحث والتنقيب يقوم بها أعضاء معينون من هيئة التدريس .

٢ – تدريب الدعاة المسيحيين على كيفية العمل لتنصير المسلمين .

٣ – إعداد مختارات معينة من الأدب المسيحى لتقدم إلى المسلمين .

وتقدم عدد من الكنائس والإرساليات والجماعات المختلفة للتعاون والعمل معاً وفقاً للتخطيط الذى رسم ، وكان هذا فى الواقع نجاحاً كبيراً لخطة زويمر التى دعا فيها إلى توحيد الإرساليات وعملها معاً .

أما الموضوعات التى كان على المعهد أن يعالجها ، فحددت بتسعة موضوعات لا داعى لتلخيصها ولا لعرضها جميعاً ، ولكن نقتطف منها :

١ - مساعدة الكنيسة والمعاهد الأخرى على تحقيق رسالتها فى تنصير المسلمين بتقديم فهم مبسط ومناسب للإسلام ، يمكن به التفاهم مع المسلمين حول دينهم وإبراز عيوبه .

٢ - أن تعد مكتبة أو مكتبات تسهل الاطلاع للأساتذة والطلبة على الإسلام للدراسة والبحث .

٣ - أن ينشر المعهد كتباً وتقارير ودوريات ونبذا ورسائل .. ليتداولها الأساتذة والطلبة ومن يقرأ من خارج المعهد .

وبقية الموضوعات تدور حول هذا الهدف ، وتوضيح الوسائل المختلفة التى ينهجها المبشرون .

وحين قسمت الهند سنة ١٩٤٧ رأى المعهد أن يبقى فى الهند ، وألا ينقل إلى باكستان لأن الهند ظل بها فى هذا الوقت نحو ٧٥ مليوناً من المسلمين موزعين فى الولايات الإسلامية ، وهم كثرة قد تعد التجمع الثالث لمسلمى العالم ، وهم فى هذا التفرق أسهل اصطياداً وأقرب انقياداً لدعوة الإنجيل -ولكن المعهد واجه صعوبات أخرى حتى وصل الدكتور كنيث كراج Kenneth Crag الذى يعتبر زويمر الثانى- أو هو زويمر هذا الموقف، فقام بمقابلات وعقد اتصالات بين رؤساء الكنائس وقادة الإرساليات وممثلى أنحاء الهند ، لجمع كلمتهم ، وجعلهم يلتقون حول رسالة هذا المعهد ، فبعث فيه حياة جديدة - وباقتراحه وعرضه أفكاره الجديدة تحول اسم المعهد - من مدرسة هنرى مارتن إلى « معهد هنرى مارتن للدراسات الإسلامية » .

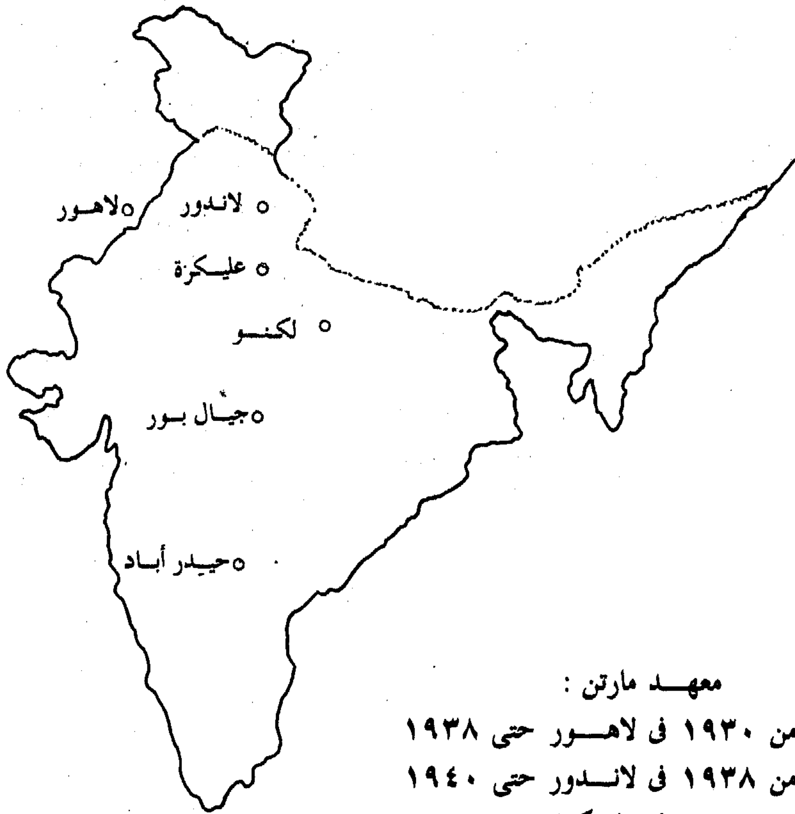
ولا يزال هذا المعهد يزاول نشاطه ، الثقافى ويخرج مطبوعات بمختلف اللغات الهندية وما زال المال يتدفق عليه من الإرساليات العديدة ، وهو بلا ريب يدخل فى المسيحية كثيرين منهم مسلمون .

٦ – مؤتمـر كاليفورنيا ١٩٧٨م

ربما كان هذا المؤتمر أكبر المؤتمرا وأهمها وأكثرها فاعلية ، عقد فى معهد زويمر بإحدى ضواحى كاليفورنيا ، واستعرضت فيه الطرق المجدية التى يمكن بها تنصير المسلمين بسرعة والتى يمكن بها أن يقضى بها نهائياً على الإسلام ، وكان فى أحاديث الأعضاء تركيز على تعيين قسس وإقامة أساقفة فى كل بلد من أبنائه المتكلمين بلغة أهله وعارفى عاداته ، وتقاليده وبينما كان بعض المتحدثين متفائلاً جداً يرى أن الإسلام قد وهن وأن القضاء عليه نهائياً قد أصبح قريباً جداً ، وجاء فى كلام بعض آخر أن الإسلام صخرة عاتية وأن زعزعتها تحتاج إلى مجهود كبير وزمن أطول .

وكان للجميع تفاؤل وأمل مبعثه ضعف المسلمين وعدم وجود رابطة أو هيئة عامة لتوجيه الدعاة الإسلاميين ، وأخرجت أحاديث هذا المؤتمر فى كتاب ضخم سموه الأناجيل والقرآن «Gaspels and Quran» .

* * *



معهـد مارتن :

من ١٩٣٠ فى لاهـور حتى ١٩٣٨

من ١٩٣٨ فى لانـدور حتى ١٩٤٠

من ١٩٤٠ فى عليـكرة حتى ١٩٤٢

من ١٩٤٢ فى جيال بور حتى ١٩٦٦

من ١٩٦٦ فى لكنـو حتى ١٩٧١

من ١٩٧١ فى حيدر أباد حتى الآن

من بحث الأستاذ صديقى الخاص بمعهد مارتن عن الدراسات الإسلامية - محاولة لتنصير المسلمين العدد ٧ من أوراق دراسية .

خاتمة

١ - أساليب التبشير المعاصر :

قد يكون التيار التبشيرى فى الوقت الحاضر أقوى وأنشط مما كان فى أى عصر مضى ، ويتجمع لنشاطه وقوته أسباب عديدة كما أنه يأخذ صوراً عديدة أيضاً ، ولا ينسى مبشر فى أى زمان ومكان أن يطعن الإسلام وينال منه - حتى بين الذين لا يعرفون الإسلام - وقد ذكرنا ذلك فيما سبق لأن - الإسلام يحبو بطبيعته ، ويزاحم المسيحية فى صمت ، والمبشرون يحرصون على أن يسدوا عليه هذا الطريق ، ونجمل صورة التبشير المعاصر فيما يلى :

١ - الغزو المسلح ، وهو منهج ينافى حضارة القرن العشرين ، وأشبه بأعمال العصور الوسطى ولكن التيارات السياسية المعاصرة تجد فى كبت الإسلام وتشجيع المسيحية أو حتى فى مجرد كبت الإسلام فوائد لها ومكاسب تنشدها ، والدول الكبرى الآن لا تبالى أن تلوث سمعتها بالتعصب ، وتاريخها بالظلم وأيديها بدماء المسلمين الأبرياء .

الدولة الروسية يعنيها أن تنشر مذهبها الإلحادى الذى ينكر جميع الأديان ، ولكنها لم تستعمل قوتها المسلحة إلا ضد المسلمين ، وهى منذ بضع سنوات تحارب أفغانستان وتقتل مسلميها لغير ما سبب ، ومن قبل ذلك ابتلعت البلاد التركستانية وضيقت عليها فى عبادتها وشعائر دينها ثم هى التى فعلت ما فعلت بالمسلمين فى بلادها عقب الحرب العالمية الثانية[١] .

ودعاة الشيوعية والكتاب المأجورون من روسيا يلتحفون اسم الإسلام ويفسرونه تفسيراً مادياً بحتا يُغَيِّر حقائقه ويلوث مبادئه ، فجعلوا

---

(١) كتبنا فصلاً ضافياً عن هذه الأعمال فى كتاب الشيوعية والشيوعيون فليرجع إليه من شاء .

حروبه ودعوته وثورات مجاهديه ترجع لأسباب مادية ومبادىء ماركسية ، قالوا دعوة الإسلام قامت لحسن توزيع الثروة ، والحروب الإسلامية كانت لإنصاف الفقراء من الأغنياء ، كأن الإسلام لم يدع إلى تصحيح العقيدة فى الله ولا لإخلاص العبادة له ، — وهذا ليس تبشيراً بالمسيحية ولكنه ضعضعة للإسلام وتمهيد طريق للمبشرين الذين يدعون إلى الرفق بالضعفاء .

وأمريكا أكبر دولة فى العالم الآن وأقوى دولة ، تحارب مسلمى الفيلبين الضعاف ، وتقيم بينهم الكنائس ودور التبشير ، وتهجر إلى الجزر الجنوبية المسلمة من قديم مسيحيين من الشمال وتهيىء لهم المستوطنات كى تكون أغلبية البلاد مسيحية ، وهذه الجزر كما قدمنا فى حديثها لا علاقة بينها وبين أمريكا ، ولم تكن لها علاقة بهولاندا ، وليس من الإنسانية ولا من مدنية العصر الحديث أن تسلم أرض بمن عليها من دولة لدولة أخرى ، ولكن هكذا تمارس أمريكا القوية القديرة جبروتها ضد جزر الفلبين الجنوبية لتكرههم على ترك الإسلام ولتضعف روح الإسلام ودعوته .

ولأمريكا عمل آخر لا ينسى ، وهو مساندتها إسرائيل ضد العرب عامة والمسلمين خاصة فإسرائيل هدمت مساجد ودوراً للمسلمين وأحرقت المسجد الأقصى ، وهى آخذة فى هدمه . وأمريكا راضية عما تعمل.

وليس هذا تأييداً مباشراً للمبشرين ، ولكنه إضعاف للإسلام .

أما انجلترا فلها دور أكبر وأعنف وهو كبتها للإسلام واضطهادها المسلمين فى جنوب أفريقية ، وهو عمل أصبح معروفاً فى كل أنحاء العالم والمسلمون هناك يسامون سوء العذاب ولا منقذ لهم ، وعمل الانجليز تأييد مباشر للتبشير وقتل صريح للإسلام .

٢ — تعمل جماعات التبشير العديدة على توحيد جهودها ، وقد سبق الحديث على شىء من هذا ، وهو الآن يأخذ اتجاهاً أكثر جدية .

٣ – أنجح ما تعمله الجماعات التبشيرية الآن هو تبنى الأطفال وتعليمهم مبادىء المسيحية وتنشئتهم عليها ، وهى تلتقط الأطفال الفقراء وأبناء المعوزين فتقدم لهم الغذاء والكساء والمسيحية ، ازاء المجاعات التى تفشت فى أفريقية استفادت الجماعات التبشيرية هناك كثيراً .

ويبدو أن دعاة التبشير يبالغون فى هذا الباب لأجل الدعاية والإعلان عن أعمالهم – وقد ذكرت مجلة المختار حديثاً عن مبشرة فى مصر سمتها « ذات الرداء الرمادى » – فذكرت أنها تأتى كل يوم أحد من حى شبرا فى شمال القاهرة إلى مصر القديمة فى جنوبها حيث يترقبها « جلمعو الزبالة » من الأطفال فتوزع عليه الكساء والأغذية ، وقد بنت لهم المساكن وأدخلتهم المدارس ، وسألتُ فلم أجد هناك شيئاً من ذلك ، ولكن السيدة المبشرة تأتى فعلاً وتعطى الأطفال بعض الحلوى وليس ثمة مساكن ممنوحة ولا مدارس مفتوحة .

٤ – الاستكثار من ترجمة الكتاب المقدس لنقله إلى البدائيين والقبائل المنسية فى جوف القارات وقد استطاع دعاة التبشير أن يضعوا أبجديات لهذه اللغات ، وأن يتفاهموا مع هؤلاء البدائيين ويدخلوهم المسيحية ، وهذا ميدان لا يشارك المبشرين فيه أى داعية آخر ، وقد دخلوا الغابات الكثيفة فى حوض نهر المسيسبى ، وأواسط استراليا ، وبعض الجزر النائية فى المحيطات ، وجهدهم فى هذا يستحق التقدير .

٥ – بعض المسلمين الذين يعيشون فى البلاد الكبرى غير الإسلامية يتحول أبناؤهم تلقائياً إلى المسيحية ، إذ تضيع الفكرة الإسلامية ومبادىء الإسلام من أذهانهم وقلوبهم ، ذلك أنهم يدخلون مدارس هذه البلاد منذ طفولتهم فيلقنون مبادىء المسيحية وينشأون عليها وهم لا يعرفون عن الإسلام شيئاً .

وفى هذه البلاد تتزوج المسلمات من المسيحيين ويتزوج المسلمون

من المسيحيات ، وفى كلتا الحالتين يكون الأطفال مسيحيين ، وقد انقرض المسلمون الأفغانيون الذين نقلهم الانجليز إلى استراليا ونشأت منهم ذرية مسيحية ، وأولاد المسلمين هناك الآن عرضة لهذا الخطر ، وقد رأيت فى انجلترا مسلمات يتزوجن من الإنجليز المسيحيين وهو زواج فاسد ، وهن لا يعرفن أنه فاسد .

٦ - طعن الإسلام واختلاق معايب وزرايات عليه ، وتطبع فى هذا نشرات وكتب وتسجل شرائط وتوجه دعوات صريحة إلى المسلمين أن يتركوا القرآن ويهتدوا بنور الإنجيل ، وقد يتستر أصحاب هذه النشرات وراء أسماء وهمية ، ولكنها كثرت الآن فى العالم العربى كله .

٧ - يساند الصهيونيون المبشرين ، وتستعين مدارس التبشير والإرساليات بهم فى غير بلد ، وهذا التعاون سببه أن الإسلام عدو للصهيونيين كما هو عدو للمبشرين ، ويستفيد الصهيونيون من حرب المبشرين للإسلام لأنه يساعدهم على التخلص من عدو لدود بدون تعب أو خسارات من جانبهم .

* * *

٢ - موقف الإســلام الآن

فى موقف الإسلام الآن أمور بارزة أكثرها مستحدث ، وكلها تحتم على المسلمين عامة والمعنيين بشأن الدعوة الإسلامية خاصة ، أن يتخذوا لهم مواقف إيجابية تحفظ عل الإسلام كيانه ، وتبث فى نفوس المسلمين ثقافة صحيحة ، وتدفع شبهات الذين يهجمون عليه .

إنه بسبب سهولة المواصلات وتقارب العالم الآن أصبح يوجد فى البلاد العديدة غير المسلمة جاليات إسلامية ، ويزداد عدد المسلمين يوماً بعد يوم فى القارة الأوروبية والأمريكتين واستراليا وأيضاً فى آسيا وأفريقية .. وأكثر هذه الزيادة بسبب الهجرة ، وبعضها بسبب دخول الإسلام أفراد وجماعات من غير المسلمين .

هذه الزيادة المطردة سارة للمسلمين ، ولكنها تلقى عليهم واجبات ، وتتطلب منهم أعمالاً فقبل كل شى لا بد لهؤلاء المسلمين من معلمين على حظ من الثقافة ، ففى هذه البيئات أعمال وعادات تختلف عما فى بيئاتنا الشرقية ، والمسلمون بحاجة إلى المواءمة بين الإسلام وهذه البيئات فإن لم يكن بينهم مرشدون متفقهون اجترفتهم تيارات البيئات الجديدة .

والنشء الجديد فى هذه البلاد يحتاج لمن يعلمه اللغة العربية ومبادىء الإسلام . لأنهم يذهبون لمدارس تعلمهم لغة البلاد ودياناتها ، وبمضى الزمن سيكونون لا عرباً ولا مسلمين كما أمحت من استراليا طائفة الأفغان المسلمة التى استقدمها الانجليز لاستعمار الأراضى فى جنوب استراليا ، وخلف من بعدهم خلف انجليزى اللغة مسيحى الديانة ، فما يزيده الإسلام من جانب ينقصه من جانب آخر ، وفى هذا الصدد أسجل تقصير المسلمين ، فقد منحت الحكومة الاسترالية مسلميها أراضى لبناء مدارس لهم ومساجد كما منحتهم مساعدات

مالية ، وأيضاً وافقت على جعل اللغة العربية لغة ثانية فى المدارس لمن يريد ، ولكن لا يوجد مدرسون وليس لدى المسلمين هناك قدرة مالية على بناء مدارس ومساجد أو دفع أجور لمدرسين يعلمون اللغة العربية والإسلام ، وظل الموقف يسجل قصور الإسلام ونقصه .

وفى جميع هذه البلاد ، وفى استراليا أكثر من غيرها - يوجد هجوم عنيف على الإسلام وتشويه لمعالمه وصد للناس عنه ، وليس ثمة مدافعون .

ينقص الإسلام حينئذ أن تكون له رابطة عامة تنظم توجيه دعاته على نحو ما تفعل الكنيسة العالمية ، وتنقصه أن يُكوّن كلية عامة أو جامعة دعاة ، على نحو ما فى الإرساليات الأمريكية ، وكليات الدعوة القائمة الآن ليست بذات قدرة كافية ، إذ ينقصها جميعاً درس اللغات الأجنبية ، ودرس الديانات الأخرى ومقابلاتها ، ودرس الثقافات الحديثة على نحو ما تفعل مدارس التبشير ، وما سبق فى ذكر برامج الإرساليات الأمريكية .

ينبغى أن يكون للمسلمين مدرسة متدرجة تقبل طلابها بدءاً من القسم الثانوى أو الإعدادى تختار الطلبة اللائقين عقلاً وخلقاً ، وتهىء لهم إقامة داخلية ومناهج دراسية تهيئهم تهيئة ناضجة سليمة لفهم الإسلام ، ودرس القرآن الكريم والسنة النبوية درساً عميقاً واعياً ، ثم يسلحون بوسائل العلوم الأدبية من علم النفس وطرق الدعاية وما إليها ... حتى يكونوا أئمة قادرين على بث الدعوة والملاءمة بين قوعد الإسلام ومستحدثات الحياة المتجددة الدائمة التغير .

وكم أود أن يختار الأزهر بعضاً من خريجيه لبعثة داخلية يفرغون فيها من أعمالهم الرسمية ليدرسوا طرق الدعوة الإسلامية وليتلقوا علوماً جديدة تساعدهم فى مهمة الدعوة أو على الأقل يدرسون لغات أجنبية ومزيداً من تاريخ الدعوات ومن علم النفس والاجتماع .

ولابد للمسلمين من رابطة إسلامية عامة ، يشترك فيها جميع الدول

الإسلامية ، وأن يكون لها استقلال وبعد عن تيارات السياسة ، حتى لا تتأثر بما ينجم بين البلاد الإسلامية من خلافات سياسية .

وإلى أن يتم شيء من هذا أو يتم كله على كل جامعة إسلامية أن تقدم ما تستطيع الإسهام به فى نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها والتخطيط لنشرها .

وأبتهل إلى الله تعالى فى ختام هذا الحديث أن يهيىء للإسلام عزة ونصرا إنه سميع قريب مجيب الدعوات .

وصلى الله على سيدنا محمد الذى أرسله كافة للناس بشيراً ونذيراً ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

(تم بحمد الله)

***

الفهــــرس

الموضـــــوع الصفحة

الفصـل الثـانى
فى
أفـريـقيــــــــة

أولاً : فى شمال أفريقية

ثانيـاً : فى غــرب أفريقيــة

ثالثـاً : فى جنــوب أقريقيــة

الموضوع | الصفحة

الموضـــــوع | الصفحة

رقم الإيداع ٢١٤٠ لسنة ١٩٨٩
الترقيم الدولى ٤ - ١٦ - ١٥٩٥ - ٩٧٧



مؤسسة الخليج العربي
ARABIAN GULF EST.
١٩٥ شارع ٢٦ يوليو - القاهرة
ت ٣٤٧٢١٨٣ - ٣٤٧٢٢٠٦
تلكس ٢٣١٦٢



فى هــذا الكتاب

- تصوير صادق أمين لمعارك التبشير والإسلام .
- حديث مستفيض عن تمشى الدعوة الإسلامية فى جوف القارتين الآسيوية والأفريقية ، ومواقف التبشير لصدها .
- كيف دخل الإسلام جزر المحيط الهندى- سيريلانكا وأندونسيا وجزر الفيلبين .
- كيف تحول المغول الوثنيون إلى الإسلام رغم إغراءات المبشرين .
- مناظرات عديدة بين دعاة الإسلام والمبشرين .
- مؤتمرات التبشير الكبرى وتخطيطاتها لمحو الإسلام .
- الجهود التى تبذل لتنصير المسلمين .
- صور الحضارة التى منحها المسلمون أوروبا ، وما حسرته أوروبا بخروج المسلمين منها .
- صور التعذيب العديدة التى صبت على المسلمين فى عصور عديدة .
- أعمال الأتراك العثمانيين الإسلامية .
- أشهر الجماعات التى بشرت بالإسلام :
  السنوسيون – المهدى السودانى – الميرغنى – أحمد القرين أعمال المرابطين والموحدين .

كتاب لا يستغنى عنه داعية ولا مؤرخ إسلامى ولا دارس لمقارنة الدعوات ، وتاريخ الدعوة الإسلامية ولا من يعنيه معرفة نشاط المبشرين .



مؤسسة الخليج العربى
ARABIAN GULF EST.
١٩٥ شارع ٢٦ يوليو - القاهرة
ت ٣٤٧٢١٨٣ - ٣٤٧٢٢٠٦
تلكس ٢٣١٦٢